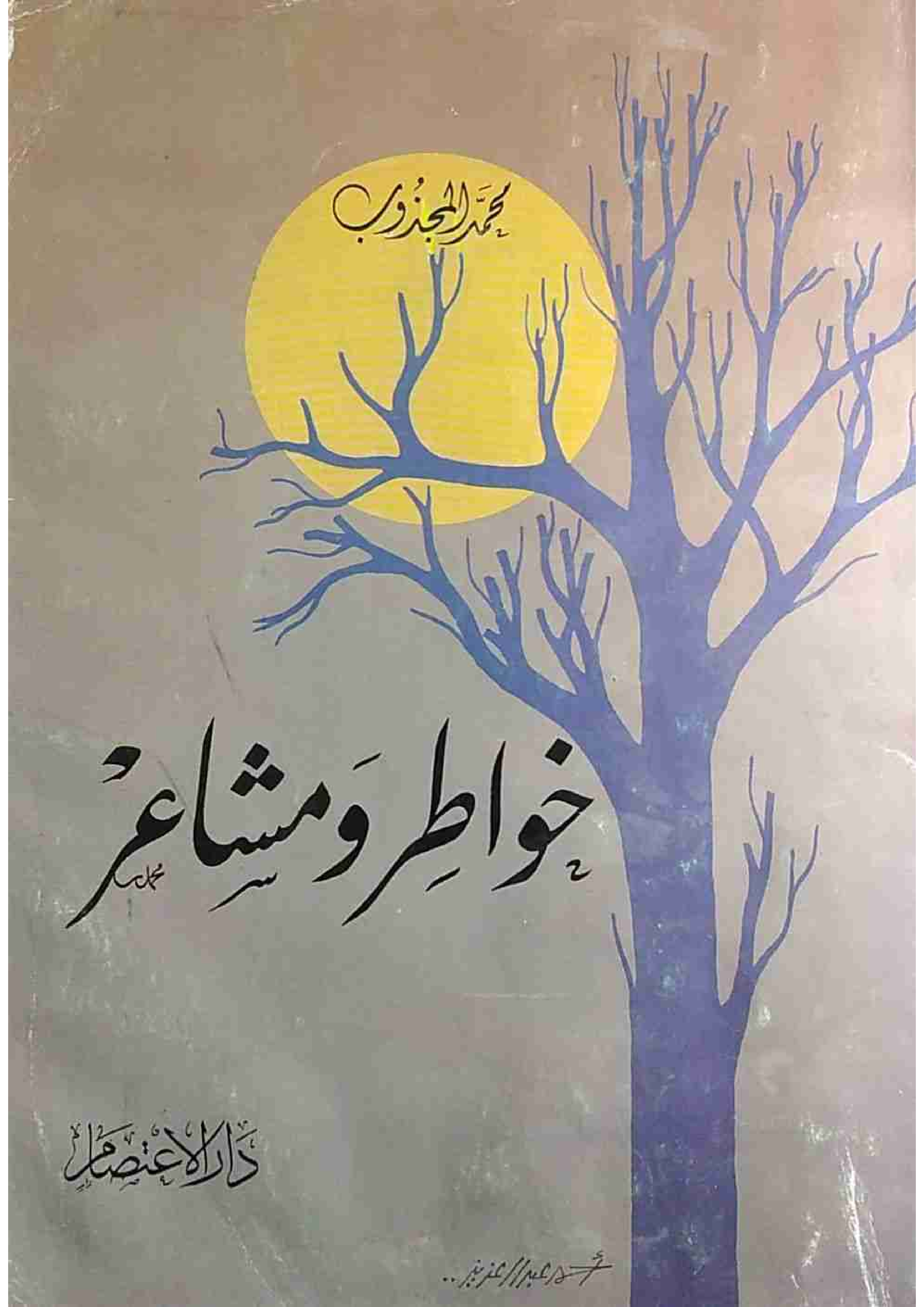

محمد المجذوب
خواطر ومشاعر
دار الاعتصام


بسم الله الرحمن الرحيم

محمد المجذوب

خواطر ومشاعر

دار الاعتصام

بين يدى الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على صفوته من خلقه محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعـــد :

فقد كان من حق هذا الكتاب أن يصافح بصر القارىء منذ سنين ، وأن يكون قد أعيد طبعه عدداً من المرات لو مضت الأمور فى طريقها الطبيعى ، ولكن المؤسف أن الكتاب قد غاب عن الأعين فضلَ السبيل إلى المطبعة .. ولولا فضل الله بالعثور على نسخته الثانية لا نتهى إلى مصير إخوة له فَقَدْنا احـدها فى حماة ، والثانى فى دمشق ، والثالث فى المدينة الحبيبة ، والرابع فى بيروت ، ثم لم نعثر منها على أثر حتى الآن ..

ولعل الأيدى التى احتجزتها تقدمها للنشر ولو بغير اسم مؤلفها ، رعاية للفكر الإسلامى ، الذى تنطوى عليه ، وللأحداث التى اتصل بها ، فإن فعلت كنا لها من الشاكرين المسامحين .

والحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة – طريق الهجرة

المؤلف

نفح الطيب من مدينة الحبيب

لعل أفضل تعريف للسعادة أنها لحظات انخطاف تحلق بالنفس البشرية وراء حدود المكان والزمان ، فتضع عنها آصار التراب ، وتحررها من أغلال الحقد والأثرة ، فلا ترى إلا الجمال ، ولا تستشعر سوى الحب .

وإذا كان لهذا التعريف ظل من الحقيقة فأنا سعيد ، ولكن سعادتى لا تتقيد بلمعات تبرق ثم تمحى ، بل هى جلوات متصلة ، بدأت منذ حطت بنا ماخرة الهواء فى مطار المدينة المنورة ، ثم لم تنقطع .. وليس ذلك بعجيب .. إنها مدينة المصطفى التى حقق بها الله دعوة حبيبه محمد ﷺ ، حين أوحى إليه أن يسأله « مدخل صدق » فكانت طيبة هى المدخل الذى سأل .

والدار والإيمان ومدخل الصدق .. إنما هى إشارات إلهية إلى معان لا يدرك مدلولها إلا القلب الذى تفتح فى جو الوحى .. فهو يطل من خلال حروف القرآن على عوالم لا سبيل إلى وصفها بقلم أو لسان ...

* * *

فى كل مكان كلام عن السلام ، ولكنه كلام منطوق بلغة الحرب ، وادعاء مكذوب تفضحه روائح الحقد ، الذى يمزق وشائح الأرحام ؛ ويحطم وحدة الإنسانية ، حتى ليستحيل الإنسان فى جحيمها خنجراً يفتك ، أوثعلباً يراوغ .. ولكن فى هذه الأرض التى باركها الله تسترد تلك الكلمات مضمونها السليب ، فإذا هى واقع يعيشه المؤمن ، وطهر روحيٌّ لا يتسلل إليه ضغن .. .. فكأنه شريد انتزع من مرابع أنسه ، فراح يضرب فى الأرض على غير هدى ، فما إن احتواه عالم المدينة حتى وجد ضالته ، فاستراح بعد عناء ، وسعد بعد شقاء ، وأدرك فى عمق معنى الحديث النبوى الصحيح : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[1] ولا غرو .. فهو هنا يتفاعل مع حقائق هذا الخبر النبوى بكل وجوده ، بعد أن كان منه على حدود الألفاظ ، يؤمن بها دون أن يستطيع لمدلولها تحديداً .

(١) متفق عليه

فى (طيبة الحبيبة) يعيش المسلم الحق تاريخ الدعوة الإلهية فى مرحلتها الثانية ، مرحلة التنظيم والجهاد والبناء ، يعيش حياة حارة خافقة ، ترجمت فيها الكلمات المكتوبة إلى أشعة وظلال وأنسام وألحان ، يحسها فى كل خفقة هواء ، وفى كل ذرة هباء .

هذه الروضة المطهرة بين المنبر والقبر المنور ، قد طالما احتوت شخص الحبيب ، ساجداً ومعلماً ومبلغاً .. فما أسعد المؤمن حين يضع جبهته فى البقعة المباركة التى طالما شهدت سجداته .. ويتنفس فى الجو نفسه الذى طالما مازج نفحاته ، ويمس الأرض نفسها التى طالما سعدت بخطواته ! .

وأي غبطة يمكنها أن تضاهى تلك التى يستشعرها المؤمن هناك ، وهو يرى إلى جانبه تلك الروضة الأخرى التى شرفها الله ، بأن جعلها مسكن حبيبه فى حياته ومثواه بعد مماته ! .

ثم أليس هنا قد وقف صاحبه فى الغار وصديقه المفضل يعالج صعقة المسلمين يوم الكارثة الكبرى ، إذ سرى فى القوم نبأ وفاته ﷺ فزلزلت المدينة زلزالها ، وذهلت العقول ، وانهار الجلد ، حتى أقبل عليهم يذكرهم بخبر السماء الذى صرفتهم عنه فجأة الهول ؟ . أليس ها هنا قد سالت دماء الفاروق بيد القومية الحاقدة .. التى آثرت المجد الجنسى على الحق الربانى ، فرفضت دعوة الله ، ثم حاولت إطفاء شعلته ، بالقضاء على الرجل الذى صنع الإسلام منه مثل العدالة الأعلى للعالمين .

أليس من هنا .. من هذا الحرم الأطهر بدأت كتائب الإسلام زحفها لاستئصال النكسة الجاهلية ، التى تخبط فيها أهل الردة ، فأماطت عن أبصارهم العمى ، وأعادتهم إلى جنة الإسلام نادمين منيبين ، بعد أن تبينوا أن الإسلام دين الأبد ، ونظام اليوم والغد ، لا يموت بموت أحد ! .

أوليس من قلب هذا الحرم بدأت الانطلاقة الأولى بمشعل الإسلام إلى خارج حدود الجزيرة ، تبدد الظلام ، وتوقظ النيام ، وتنشر أنى توجهت بذور الأمن والسلام ...؟!

* * *

والمدينة حرم كلها ، وفى كل شبر من هذا الحرم ذكريات وعبر ودروس ، بها يجدد المسلم طاقاته ، ويشحن مدخراته ، ويتزود بالقوة الروحية التى تعده لمجابهة الأحداث ، بأقباس من العزيمة فوق مستوى الأحداث .. إنه حيثما يلتفت يستقبل الآثار الموحية .. فهنا « أحد » الجبل الذى يحبنا ونحبه .. أحد الذى شهد انتصار القلة المؤمنة ، حين أخضعت نفسها لأمر قائدها المعصوم وهو يحركها بقانون السماء ، ثم شهد المحنة الفاجعة التى نزلت بها حين وُجد فيها من تستهويه الدنيا فيخالف عن أمره وهو يظن أنه غير ملوم .

وهنا بقية الخندق الذى يعلمنا كيف فهم المسلمون الأولون أمر ربهم بالاستعداد فلم يدخروا وسعاً لتحصين وجودهم بكل ما وسعهم استخدامه من قوى الطبيعة ، ولم يبخل أحد منهم بجهد يملكه ، وهو يرى سيد ولد آدم المزود بعصمة الله ، يتقدمهم فى جرف التراب ، وشق الصخور ، حتى ليلجأون إليه فى كل ما يعجزهم من ذلك ، كما اعتادوا أن يلوذوا به فى ساحات الروع ، كلما احمرت الحدقُ ، وحمى وطيس القتال .

وهناك فى الجانب الآخر .. ينتصب مسجد قباء كالحمامة البيضاء ، المسجد الذى تعدل فيه الصلاة عمرة ، لأنه أسس على التقوى فكان بذلك رمز الخلود ، الذى يحققه الإخلاص للأحد المعبود .. تنتابه جموع المؤمنين صباح مساء للتزود من موعود الأجر ، الذى بشر به رسول الله ﷺ مصليه .

ولا جرم أن منظر هذا المسجد الخالد ليذكر أولى الألباب كل يوم ، بمأساة ذلك المسجد البائد ، مسجد الضرار ، الذى أسس ليكون مركز تجسس لأعداء الله على رسوله ، فكان مصيره مصير الخيانة ، تنتفخ حتى تتراءى ضخمة كبيرة ، ولكنها ما إن تواجه الحقيقة حتى تتلاشى كأطياف السراب ، حين تستكشفها العين المبصرة .

وهناك على مقربة من المدينة الحبيبة خاض الإسلام أول معاركه الأبدية مع قتلة الأنبياء من يهود ، وقد بلغت مؤامراتهم ذروة الهول حين أحاطوا برسول الله وصحابته من وراء ، بينما أحدقت الوثنية بالمدينة من أمام ، بكل ما تملك من حول وطول وخيلاء ، واندفع خفافيش المنافقين من الداخل يبثون ألغام

الخيانة فى الخفاء .. فكانت محنة ابتلى بها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً كبيراً .. ولكنها لم تزدهم إلا تثبيتاً وإيماناً ، كما تزيد النار الذهب صفاء ولمعاناً ، فلم يهنوا ولم يستكينوا حتى دفع الله البلاء*، وهزم الحلفاء وكفى المؤمنين القتال .

تلكم الذكريات .. هى بعض دروس الوحى ، يتلقاها المؤمنون فى مهبط الوحى ، فيتعلمون منها كيف يربطون وجودهم بأهداب الرسالة ، التى ألفت فى ربع قرن من الأميين الضائعين فى صحراء المجهول خير أمة أخرجت للناس .. ثم قذفت بهم إلى الدنيا ، كما تقذف الشمس بأشعتها ، حياة للأرض الميتة ، وضياء للأعين الزائغة ، ودفئاً للأكبد المقرورة ، فإذا هم بعد قسوة الذئاب رسل الرحمة الربانية ، يحررون عباد الله من كل عبودية لسواه ، ويضعون عن إخوتهم المعذبين أغلال السفاحين ، فتعود بفضلهم إلى الحياة الذاوية بهجتها ، وتشرق الأرض بعد ظلمة بنور ربها .

من هذه الذكريات يتعلمون دروس الصبر الذى قهر اليأس ، ليثبتوا فى وجه أعاصير اليوم ، كما ثبت أسلافهم على أعاصير الأمس ، واثقين بنصر الله كما وثقوا ، مخلصين جهادهم لله كما أخلصوا .

وليس أحوج من مسلمى اليوم – معاصرى النكبة المخزية – إلى الاستمداد من هذه المعانى ، وهم يخوضون معركة الحياة والممات ، فى وجه أعداء لا عداد لهم ، منهم اليهود ، وفيهم المنافقون ، وبينهم المثبطون ، وعلى رأسهم المتواطئون مع أعداء الإيمان ، المتاجرون بمدّعيات الإسلام ، يرفعون أصواتهم باسمه كلما رأوا فى الإشادة به منفعة ، ولكنهم لا يستنكفون عن إقامة السدود دون أشعته ، خشية أن يفسد مؤامراتهم التى يبيتونها عليه فى الظلام !..

* * *

إن المؤمن الذى يسعد بزيارة هذا البلد الحبيب ، لا يسعه أن ينسى كونه فى عاصمة الإسلام الأولى ، العاصمة التى عرفت البشرية فيها أول أنموذج كامل للدولة الربانية ، التى حطمت حواجز العصبيات الأسرية والقبلية والجنسية ، فردت الناس بذلك إلى أخوة لم يصنعها الدم ، ولكن نسجتها العقيدة التى يعلن قانونها الأساسى ، أن البشر كلهم لآدم وآدم من تراب ،

أكرمهم عند الله أتقاهم . العاصمة التى انتهت إليها ذات يوم أزمة الدنيا ، فهى تملى إرادتها على الحياة والناس ، فتحكم تصرفاتهم، كما تحكم القوانين الكونية حركة الفلك ، لأن إرادتها من إرادة الله ، وما وظيفتها إلا تحقيق المثل الأعلى للنظام الذى شاء الله أن يكون ضابط الأمن ومناط السعادة ، لكل حى على هذه الأرض .

ولئن سُلبت المدينة الحبيبة سلطانها السياسى على ربوع المسلمين ، فلنا أن نتساءل : هل انقطع أثرها فى وجودهم ؟ هل فتر إيحاؤها إلى قلوبهم ..؟

إن نظرة واحدة إلى هذه السيول البشرية ، متدفقة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، لتقدم الجواب الشافى على هذا التساؤل .. إذ تؤكد أن هذا الحرم المرموق لم يزل هو صاحب السلطان النافذ فى قلوب مئات الملايين من أتباع سيد المرسلين ....

* * *

ولعل أروع ما احتفظت به مدينة المصطفى من تراث الماضى العظيم هو تلك الطمأنينة التى تعمر بظلها الوارف كل شىء ، حتى النبات والطير والحيوان فضلاً عن الإنسان ...

إنك هنا فى معرض بشرى عجيب ، تطل منه على مواكب البشر ، فى مختلف ألوانهم ولغاتهم وأزيائهم .. وأكثر ما تشهد ذلك فى المسجد النبوى ، حيث ينصبُ السيل البشرى الوافد من أنحاء الدنيا . كيفما اتجهت هناك تجد نفسك مع أخ لك لم تلده أمك ، يعجز لسانه عن ترجمة شعوره ، فتقوم يده مقام لسانه ، يصافحك .. فتحس أنه يضع قلبه على راحته ليقدمه إليك حباً وشوقاً وروحمة .

وتغادر المسجد النبوى إلى الشارع ، ولكن سرعان ما تشعر أنه لم يغادرك لأن روحه مرفرفة على أنحاء البلد الطاهر .. حتى الباعة الذين عرفتهم فى كل بلد لا يمنحونك من لطفهم إلا بمقدار ما تنفحهم من نقودك ، حتى هؤلاء عليهم هناك من جوار الحرم طابع مميز ، أكثر ما يطالعك فى تلك الثقة الغريبة التى يقابلونك بها فى كل حانوت ، ولا أكاد استثنى .. إنك لتشترى

من أحدهم السلعة فتقدم إليه ورقة النقد ليرد إليك التتمة ، فإذا لم يجد لديه ما يفى ، أعاد إليك ورقتك معتذراً وهو يقول : « تعطينى فيما بعد » فكأنك من أحب معارفه إليه ، وأنت الذى لم تره قط ، ولم يلمح لك وجهاً من قبل ! .

وتمضى هنا وهناك متفرجاً مستكشفـاً ، فلا تشعر أنك فارقت هذا الوحى أو فارقك .. أنّى سرت تسمع تحية الإسلام ، وأنّى اتجهت أحسست بنفحات السلام ، رقة فى الحديث ، ورفقاً فى المعاملة ، وأمناً فى كل شىء .

أجل .. إنها نفحات الحرم المبارك ، تغمر بروحها كل شىء ، فالطيور التى عهدتها تجفل حتى من شبح الإنسان ، قد تقع عليك أو تدنو إليك ولا ترى لها نفرة ، إلا أن تخشى منك وطأة الغفلة .. وفى هذه الغمار النورانية يعيش الإنسان آمن السرب ، مطمئن القلب ، خالى الذهن من كل شاغل يصرفه عن الاستغراق فى ملكوت الله .

ولا عجب ، إن فى مدينة الحبيب لبقية تحسـها القلوب من المجتمع الأول الذى أنشأته تربيته المثلى ، فكان صورة من الأخوة التى حُدِّدَت فيها قيمة الإنسان على أساس من الأخلاق دون الأعلاق ، فلا ترى هنا أبيض يستكبر على أحمر ، ولا تجد فى حرمه المطهر من يقول لملون ليس هذا بمكانك .. بيد أنك لا تعدم أن ترى فى أى لحظة رجلا يصافح جاره وهو يقول له:يا أخى .. لا تنسنا من دعائك ...

أوليس فى هذا السلامُ والطمأنينة والأخوة الضالةُ التى يفتش عنها المفكرون ويتلهف إليها الحزانى والمعذبون ..؟ أجل وربى ، وسيظلون عبثاً يفتشون ، وعبثاً يكدحون ، حتى يعرفوا طريقهم إلى روح هذه البلدة المصفاة ، التى أخبر الصادق الأمين أنها محصنة بالملائكة من الدجال والطاعون .

* * *

ولكن .. ولنعلنها صريحة إن هذه النفحة ، نفحة السلام والغبطة الروحية فى خطر .. إنه الخطر يزحف من الخارج مع السموم الوافدة من

هناك وهنالك.. تلك التى تريد ، بكل ما تملك من قوة الإغراء والإغواء ، أن تعكر على الجو الطهور صفاء الفطرة ، وأن تصرف القلوب عن ريها الروحى إلى وهم كالماء الأجاج ، لا يزداد منه القلب عبّاً إلا ازداد ظمأً .. تماماً كما فعلت فى الآخرين الذين خدعتهم تلك السموم الدخيلة ، فسلختهم من أخلاق الإسلام ، حتى لم يبق فى أيديهم من دليل عليه غير الهوية المزورة ...

فليقف أهل الحرم بوجه ذلك الخطر الزاحف .. وليتذكروا أنهم الأسوة وأن المسلمين عنهم يأخذون ، وبهم يقتدون ، وليزودوهم بنفحات مباركات من عبير النبوة ، الذى لم يشخصوا إليهم من مئات الأميال وآلافها إلا شوقاً إليه ، وحرصاً عليه ..

* * *

وبعد .. فأنا لم أعْدُ الحقيقة عندما قلت إننى سعيد .. سعيد منذ حطت بى الطائرة فى مدرج الوطن الحبيب .. وطن القلب الذى لا يجد المؤمن قراره إلا فى ظلاله ...

* * *

تأملات في يوم الذكرى

روى مسلم فى صحيحه من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب »[1] .

فى هذا التعبير النبوى صورة رهيبة ودقيقة لحالة العالم أيام مبعثه، اختصرت التاريخ البشرى فى كلمات يسيرة ، ولو شئنا تتبع ظلالها فى واقع ذلك العالم لرأيناه أشبه بتفسير مفصل لهذا الوصف البليغ المكثف .

فالتصريح النبوى يستوعب أهل الأرض جميعهم على اختلاف ألوانهم ولغاتهم ومواطنهم ، فيعرضهم فى وضع لا يستحق من خالقهم إلا المقت ، ولا يستثنى من هذا المقت إلا بقايا من أهل الكتاب .. وطبيعى أن هذه البقايا لا تشمل سوى النزر اليسير من مجموع الأمم الكتابية ، وهم دون ريب طائفة من حملة العلم الإلهى،الذين احتفظوا بأمانة الوحى نقية، كما أراد الله،وشاءالله حمايتهم واستبقاءهم ليكونوا حجته على عباده ، وشهداءه على رسالته الخاتمة .

ونظرة إلى مخطط الحياة البشرية آنذاك ، من أقصى الصين إلى تخوم الأطلسى ، تبرز لنا هذه الحقيقة فى أجلى بيان ، إذ نرى (العالم – على حد تعبير العلامة الندوى – أشبه ببناء ضربه زلزال فقلب أوضاعه .. فالشعوب قطعان ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج منطلق ، والحكام كسيف فى يد سكران ..) وإذا كان هذا الوصف يلخص الواقع المنظور لأرقى أمم هذه الكرة وهى أمة الفرس وأمة الروم ، فغيرها من الأمم ، التى لم تبلغ مبلغها فى الحضارة والرقى العلمى ،أشد تمثيلا لهذا الانهيار ، وقد ضاعت فى هذه الظلمات رسالة النبيين ، فانطلقت الغرائز البهيمية تتحكم فى مصير الجنس البشرى ، إذ أصبحت المنافع العابرة هى مقياس المجد والعظمة ، والتفوق ، سواء فى ذلك الأفراد أو الجماعات .

---

(١) من حديث أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) راجع شرح النووى ج ١٧ .

وهكذا اشترك الناس كلهم فى هذا الصراع الذى لا يعترف بحق لغير القوة ، قوة المال وقوة السلاح ، وقوة العصبية ، وما إلى ذلك من مظاهر الطغيان ، الذى أفلت من كل زمام ونظام ورباط أخلاقى .

فالدولة الرومية أداة لترفيه الطبقة الحاكمة على حساب شقاء الجماهير ، ولم يكن حكم اليونان قبلها بأقل قسوة وتحيزاً ، وهو الذى أغرق ديار الشام بالنزاع والشقاق والدماء طوال سبعة قرون .

ولم تقصِّر الدولة الكسروية فى هذا المضمار ، حيث استطال الطغيان على كل شىء ، وفُرض على عامل الأرض أن يكون شيئاً من متاعها يُنقل معها من مالك إلى آخر ، دون أن يكون له أى حق فى تغيير سيده أو تبديل حرفته .

وإذا صرفنا النظر تلقاء الهند واجهنا المجتمع العجيب الذى يعتبر التقسيم الطبقى أصل وجوده ، فالنعيم المترف حظ البراهمة وحلفائهم من الطبقات العليا ، والشقاء والذل نصيب المنبوذين الذين خلقوا – بزعم الوثنية الهندية – من قدم آلهتهم، فليس لهم أن يرفعوا أعينهم عن التراب .

ومع أن سكان الجزيرة العربية أيامئذ كانوا أقرب الخلق إلى سلامة الفطرة ، لم تَعْدُ حياتهم أن تكون جحيماً من الرعب لا نهاية له ، لأن قسوة البادية ، وضنك العيش ، وضغط النظام القبلى ، كل أولئك كان يزج بهم فى حروب مستأصلة يقتل فيها الأخ أخاه والقريب قريبه ، فما تكاد دماء الضحايا تجف ولا حملات الثار تفتر .. وقد أناخ الشقاء بكلكله على الجميع فلا منفذ ولا أمل ، ولا شعاع من هداية ، إلا لُمَعاً هزيلة مثل أضواء الحباحب يرسلها بعض الشعراء أو الخطباء أو الحنفاء ، فى حكم بتراء ، لا تعدو كونها تعبيراً عن حاجة الفطرة إلى نور لا تعلم من أين ينبثق ؟ .

وقد زاد البلاء عمقاً انسياق رجال الدين فى هاتيك التيارات الجارفة ، فبدلا من أن يتجردوا للنهوض بأعباء الإصلاح تذكيراً وإرشاداً ، وتحذيراً واجتهاداً إذا هم – أو معظمهم – يقتلون طاقاتهم فى تأييد الطواغيت من جانب ، وخوض معارك الجدل العقيم من جانب آخر .. وذلك ما سبب العديد من المذابح الطائفية ، ولا سيما فى مصر والشام ، حيث طورد دعاة التوحيد ، وفرضت الدولة فلسفتها الوثنية على رعيتها المسيحية بقوة الإرهاب

وفنون النكال .. وهكذا شمل الضياع كل مكان ، إذ بات الناس مقطوعى الصلة بهداية السماء ، فكل خطوة ينقلونها تزيدهم بعداً عن ساحل النجاة وغوصاً فى مستنقع النائبات .

وقد أثبت العقل إفلاسه فى هـذه الظلمـات الطـاحنة ، فلا سبيل للخلاص عن طريقه ، بل لا أمل بالخلاص إلا عن طريق معجزة إلٰهية توقظ ضمير البشرية النائم ، و تضىء للعقل الحائر طريق الحق ليسلكه على بصيرة ، ومهما أوتى الإنسان من بلاغة الوصف ، فهو سيظل عاجزاً عن الإحاطة بما يصوره القرآن العظيم من هذا الواقع الأليم فى قوله الكريم : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كَسَبَتْ أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا ...** ﴾ .

فالفساد قد شمل الكرة كلها لم يستثن منها براً ولا بحراً ، وهو نتيجة زيغ الإنسان عن سبيل الهدى الحق الذى أخذ الله عليه العهد باتباعه ، منذ أخرج طلائعه إلى هذه الدنيا ، مزودة بوصيته تعالى التى تقول للجنس البشرى ممثلاً بأصوله الأولى : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتَّبعَ هُداى فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ...** ﴾ .

تلك الوصية الرحيمة التى تؤكد وقائع التاريخ كل حين أنها العاصمة من كل قاصمة .

فالحياة التى كتب للإنسان أن يعيشها على هذه الأرض شاء خالقُها أن تبلغ من التعقيد الحكيم حداً لا تستكشفه العقول كلها ، ولو كان بعضها لبعض ظهيرا ، فهى كالمفازة المهلكة ، لابد فيها من الدليل الخِرِّيتِ وإلا ضاع الركب ، وفنى الزاد ، وهلك الرائد .

ولا دليل يصلح فى حياة الإنسان إلا رعاية الله الذى لم يقطع عنه مدده طوال العصور .. فلم يُخل أمة من نذير يوحى إليه بما يكفل لها الهدى الذى يدفع عنها كل ضلال وشقاء .. والويل للمعرض عن ذلك النور إذ لا مصير له سوى الضنك ، والضياع ، وما يعانيه البشر الزائغون عنه من العمى المفسد للحياة ، المدمر للطمأنينة والأمن فى الدنيا والآخرة .

وعلى ضوء هذه الحقائق المشهودة نفقه دلائل قول الله للذين خاطبهم بوحيه على لسان رسوله : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف**

بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... ﴾ ، فالعداوة أساس علاقاتهم فيما بينهم ، وقد وضعتهم هذه العداوة على شفا النار .. فلما اتبعوا ما أنزل الله على نبيه أبدلهم بالعداوة أخوة ، وبالجحيم الذى كانوا متهافتين عليه رحمة وسعادة ، أظلتا دنياهم وآخرتهم على السواء ، ولو هم أعرضوا عن دعوة الله لاستمروا فى صراعهم الشقى حتى يخوضوا به نار جهنم ، لا ينقذهم من ذلك فكر ولا ذكر ، لأن المفازة مهلكة ، ولا مندوحة فيها عن الدليل ، ولا دليل يصلح لها إلا هداية خالقها المحيط علماً بكل خصائصها ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(٢)

ومرت البشرية فى مراحل متآلفة مع تدرجها الفكرى .. وكانت هداية الله مساوقة لذلك التدرج ، ففى مطلع وجودها على الأرض تلقت إشارات السماء عن طريق أبيها آدم عليه السلام ملائمة لاستعدادها ، لا تكلفها فوق ما تطيق ، ثم تكاثرت وتباعدت بها المنازل ، فكانت قبائل وعشائر ثم شعوباً وأمماً ، وظل الرباط القصير هو الذى يشد كلا من أجزائها بعضاً إلى بعض ، وكان الوحى الإلٓهى تبعاً لذلك يخص كل فريق من الأسرة البشرية الكبيرة بعلم يهديها سواء السبيل ، ولكن الله جلت حكمته لم يشأ أن يكون هذا الوضع هو الخط النهائى لمستقبل الإنسانية ، بل كان التدبير الأعلى قد قضى بأن يمهد هؤلاء المنذرون لعودة القطعان المتفرقة إلى الحظيرة الجامعة ، وهكذا أخذ العهد على كل نبى أن يذكر بأخيه ، وأخذ الميثاق على كلهم أن يبشروا أقوامهم بخاتمهم ، ويأخذوا بدورهم العهد عليهم ، بأن ينقلوا ذلك البلاغ إلى الأجيال المتوالية ، لكيلا يكون للمخالفين عن سبيل الله حجة أو عذر فى انفصالهم عن الركب الذى ستُظله راية خاتم النبيين .

ثم هيأ الله للرسالة الخاتمة سبيل التجميع البشرى بما هدى إليه الإنسان من الكشوف التى قربت البعيد ، وذللت العسير ، ولاقحت الأفكار ، ومازجت بين المشاعر ، فاستعدت البشرية بذلك لفهم الدعوة الجامعة ، حتى إذا اقترب موعد الفجر الصادق انطلقت النذر والمبشرات تهز قلوب البقية الثابتة على

عهد الله من أهل الكتاب ، فتجدد التذكير بالبشير النذير ، وتهيء الأذهان لاستقبال المنقذ العالمى ، ولم يكتف كثير منهم بالكلام فغادر وطنه ونعيم بيته ، ليضرب فى أكناف الأرض يتوكف ظهور ذلك النور الموعود .

ومن هنا كانت النذر تتوالى على ألسنة القسس والحنفاء ، وبقية الصالحين من أهل الكتاب ، وحملة العلم المستضىء بمشكاة الوحى تلفت الأفكار إلى المبعوث الذى بشر به موسى وأشعياء وداودوعيسى، والذى تحدثت عنه أسفار الهند وفارس وتتبع مطالع فجره العديد من رواد ذلك العهد ، الذين تحملوا أقسى العنت نشداناً لذلك الخير .. فكانوا بذلك كله ترجمة حية لحاجة البشرية إلى المنقذ الذى اصطفاه الله رحمة للعالمين ،وضياء للمدلجين وتصحيحاً للإدراك الإنسانى حتى تتم له الرؤية الواضحة لطريقه الأمين .

فتطلعاً لميلاد هذا الفجر السعيد رابط بحيرا على سيف البادية ، يرصد مسيرةالقوافل الزاحفة من أرض المبعث ، يتنسم أخباره ، ويتطلب آثاره[١] .

وشوقاً إلى لقاء الحبيب غامر ابن دهقان جى – سلمان – بحياته ، ففارق الأرائك ، وخاض المهالك ، وأسلم عنقه راضياً للرق ، رجاء الوصول إلى مطلع ذلك الرسول[٢] .

وتلهفاً إلى أنباء النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل ، زحف الحبر الإسرائيلى الصالح ابن الهيِّبان ، يجر شيخوخته الفانية إلى قريظة والنضير وقينقاع ، يثير تطلعاتهم إلى السعادة التى أوشكت أن تظلل يثرب بأجنحتها الملائكية ، لئلا يسبقهم إلى نصرة صاحبها المبعوث بالرحمة والحرية سابق[٣] .

وقبل ذلك سجلت أسفار الهند أنباء تلك الرسالة ، وحددت معالمها ومواطنها ، فقرأ الهنود فى كتابهم المقدس (بهو شيا بران) قوله فى نعت تلك الرحمة المهداة : « إن رجلا جاء فى المنام إلى الملك بهوج – ملك السند – فقال له : عليك أن تلحق بدين رجل ظهر فى الصحراء وهو مختون ، له كلام يسمع[٤] اصطفاه برهما ، يأكل الطيبات من اللحوم ، تظهر على يديه معجزات

---

(١) ، (٢) ، (٣) سيرة ابن هشام طبعة الحلبى ١٣٧٥ ج ١ ص ١٨٠و٢١٣،٢١٤ .
وانظر (البداية والنهاية) لابن كثير .

(٤) يشير بذلك إلى تأثير كلامه فى نفوس المؤمنين وإسراعهم إلى طاعته ﷺ .

كثيرة ، وهو محفوظ من أعدائه اسمه محامد يعنى كثير الحمد » ، وقد طالما طالعهم هذا الاسم المكرم أحمد وأحامد ومحامد فى كتابيهم الآخرين (أثارويد) و(سلرويد)(١) حتى بات مألوفاً عند أولى الحكمة من فضلائهم على مر الأزمان .

وعلى هذا القائد الرحيم ركز المسيح عليه السلام أنظار حوارييه بهذه الصفات التى لا تدع مجالا لتطلبها فى غيره من المصلحين والمرسلين : « إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، و أنا أطلب من الأب فيعطيكم (بارقليط) آخر ليثبت معكم إلى الأبد .. وهو يعلمكم كل شىء .. وهو يذكركم كل ما قلته لكم .. يشهد لأجلى يوبخ العالم لأنهم لم يؤمنوا بى .. وإن لى كلاماً كثيراً وإنكم لستم تطيقون حمله .. وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق .. لأنه ليس يتكلم من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بكل ما سيأتى(٢) .

فالمسيح هنا يبشر أنصاره برسول مثله ، يمتاز على جميع الرسل بأن شريعته ثابتة إلى الأبد لأنه خاتمهم ، وأنها تستوعب كل الحقائق ، وموضحة لحقيقة المسيح التى طمسها غلو النصارى وبهتان اليهود .. وفى ذلك توبيخ لكلهم أىُّ توبيخ .. وهو روح الحق ، لأنه صفوة رسل الله ، والجامع بين أتباعهم جميعاً ، وهو يبلغ الحق الذى يوحى إليه ، بمايصحح الماضى ويوضح طريق المستقبل .

وقبل المسيح كانت بشرى داود شاهداً لا يُدفع عند كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، إذ يثير اهتمام قراء مزاميره بمثل هذه المشوقات الملهبات : « غنوا لله .. أعدوا طريقاً للراكب فى القفار باسمه .. أبو اليتامى ، وقاضى الأرامل .. يقضى لمساكين الشعب .. يخلص البائسين ويسحق الظالم .. ينجى الفقير المستغيث والمسكين ، ويخلص أنفس الفقراء من الظلم والخطف(٣) .

ومن حق الخليقة كلها أن تفرح وتنشد ترانيم الشكر لله على إرساله هذا الرءوف الرحيم الذى سيرد باسمه إلى قلوبهم الهالعة ما فقدته من روح الأمن

---

(١) عن مجلة كانتى الصادرة من دلهى عدد يوليو ١٩٦٩ بقلم ويد بركاش .
(٢) إنجيل يوحنا . (٣) مزامير ٦٨ - ٧٢ .

والحرية والعدالة . وهيهات أن يجد الباحث فى تاريخ العالم إنساناً يمكن أن تنطبق عليه كل هذه الصفات غير محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه ، مكرم اليتامى ومنصف المساكين ، ومنقذ البائسين وقاهر الجبارين ، ومحطم الظالمين والمستعبدين .. ومحقق الخير والعدالة للفقراء والمحرومين .

وإلى هذه الثمرات المباركات يشير أشعياء أيضاً إذ يقول فى وصف أثر بعثته ﷺ فى عالم المظلومين والمعذبين : « تفرح البرية ، والأرض اليابسة ، ويبتهج القفر ويزهر النرجس .. شددوا الأيدى المسترخية ، والركب المرتعشة ثبتوها ، قولوا لخائفى القلوب : تشددوا لا تخافوا هوذا إلهكم ، الانتقام يأتى . جزاء الله هو يأتى يخلصكم ...» ثم ماذا ؟

(حينئذ تتفتح عيون العمى وآذان الصم .. يقفز الأعرج كالأيل ، ويترنم لسان الأخرس ، لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر ..) .

إنه انقلاب يتناول كل شىء فى تلك البوادى يهز سكانها ، فيطلق طاقاتهم ، ويفجر مواهبهم ، حتى يصبح رعاة الإبل والغنم أهلا لسياسة الأمم .. ثم ماذا ؟

« فى مسكن الذئاب ، فى مربضها دار للقصب والبردى..[1]

أجل .. فى تلك الصحراء التى كانت حتى قبيل البعثة مرتعاً لذئاب البشر ، التى لم تألف غير الفتك والبطش والخطف حتى لتغير على أخيها ، إذا ما لم تجد إلا أخاها ، هناك تنهض منائر العلم سامقة ترسل أشعتها إلى أنحاء الدنيا ، بأقلام الأمة التى لم تنطلق من ربقة الأمية إلا بالإسلام .. ثم ماذا ؟ ..

« وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة ، لا يعبر فيها نجس ، بل هى لهم .. لا يكون هناك أسد . وحش مفترس لا يصعد إليها .. »

إنها حدود الحرمين التى حرمت على الشرك وأهله ، فهى للمؤمنين خاصة ، وكل من عداهم فهو نجس لأنه حامل لقذارة الشرك ، وهناك الأمن الذى خصت به هذه الأرض دون بقاع الدنيا ، فلا خوف ولا قلق ، بل من دخلها كان آمناً !.

---

(١) يريد بالقصب الأقلام ، وبالبردى ما يكتب عليه .

ثم ماذا ؟.. ما شأن هذه الطريق المقدسة ؟!..

يسلك المفديون فيها ، ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون – فلسطين – بترنم وفرح أبدى على رؤوسهم .. ابتهاج وفرح يدركانهم ، ويهرب الحزن والتنهد .. »[1] .

ومن المفديون هؤلاء ؟.. إنهم الحجاج وفود الرحمن القادمون من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. وأى وصف أليق بهم من أنهم المفديون ؟.. أليس لكل هفوة يأتونها فدية يقدمونها طلباً لمرضاة الله .. ذبائح وصدقات وضراعات .. ومن ظفر بكل هذا الخير كان حقيقاً بأن يعود إلى أهله بترنم وفرح .. ترنم السعيد بأداء المناسك ، وفرح الواثق برضوان الله ، الذى يرجو أن يكون ممن شملهم التجلى الأعلى يوم عرفة ، فرجعوا كيوم ولدتهم أمهاتهم .. وأشعياء عليه السلام لم يخص صهيون بالذكر لمجرد الحصر ، ولكن لينذر قومه بسلطان الرسالة الخاتمة التى ستحول جميع المؤمنين إلى البيت الحرام ..

* * *

(٣)

ذلك الضياع الذى عانته البشرية حتى البعثة المحمدية ، والذى يمثله الحديث الصحيح الذى صدرنا به هذا البحث ، وتؤكده النبوات السابقة ، قد أعطى الدليل القاطع على أن طريق الإنسان إلى الأمن والاستقرار لن يتوافر إلا فى ظل القيادات النبوية ، فلا الفلسفات اليونانية ، ولا الرياضات الهندية ، ولا الحكمة العربية والفارسية ، كانت قادرة على أن تخفف من هول المأساة ، أو توقف التدهور العام ، إذا لم نقل إنها زادت الواقع الشقى عمقاً وتعقيداً ، ذلك لأن العقل البشرى ليس فى طوقه أن يتحرر من عوامل البيئة وقوانين الوراثة الاجتماعية ، وبسبب من ذلك كانت تجاربه فى ميدان الإصلاح البشرى ولا تزال مجموعة من التناقضات التى تمثل تضارب المصالح ، وإنما تستقيم هذه الطاقة المفكرة فى طريقها الصحيح حين

---

(١) انظر أشعياء صح ٣٥ .

تسلك إلى غاياتها الجادة التى تضيئها مشكاة الوحى ، الذى لا تؤثر فيه أهواء البشر ، ولا تفوته شاردة ولا واردة من أسرارهم ومؤثراتهم ، فإذا أصدر حكماً أو قرر أمراً ونهياً ، كان ذلك لمصلحة الإنسان فرداً وجماعة ، فكل زيغ عن سبيله إنما هو دفعة نحو الهاوية ، التى لا مخلص له منها إلا بالتزام سبيله والاستعانة بدليله ..

ومن كمال حجة الله على خلقه تزويد مرسليه بصفات الكمال الذى به يحققون معانى الرسالة المنزلة ، فيكونون بذلك الأسوة الصالحة للاقتداء ، والأنموذج المنظور للربانية فى الأرض ، وإذ كان محمد ﷺ هو إمام هؤلاء المصطفين الأخيار الذى به وعلى يديه وبرسالته الخاتمة قدر الله ولادة الوحدة العالمية ، إذ بعثه كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ورحمة مهداة للعالمين ، لذلك ميزه بالكمالات العليا التى تؤهله لهذه الإمامة فكان (الإنسان) الأعلى الذى يحمل بتصرفاته الممتازة دلائل نبوته ، وحسبه من ذلك شهادة ربه فى قوله الكريم : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ثم أثره العجيب فى تأليف الطبائع المتنافرة التى تولى تربيتها وتهذيبها ، فجعل أصحابها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، وتنسخ بضياء المعرفة ظلمات الجاهلية العالمية ، فأعطيت بذلك إمامة الدنيا فى العلم والعدل والإحسان ، ورد الخلق إلى ما أضاعوا من روابط الإنسانية ، حتى لم تبق زاوية من العالم المعروف لم تستنر بشىء من أشعتهم ، بعد أن كانوا من الفرقة بحيث لا يستحقون اسم الشعب - كما أشار إليهم موسى[1] - ومن الجاهلية المدمرة بحيث لا يرتفعون عن مستوى الذئاب الضارية - كما وصفهم أشعياء - ولا جرم أن مجرد نجاحه ﷺ فى هذا الوسط الفوضوى كاف للدلالة على أنه القمة من الحكمة ، وفى الذروة من الكمال النفسى والعقلى ، إذ استطاع بهذه المواهب اللدنية أن يملك قلوب أصحابه حتى ليؤثرونه على أنفسهم وأبنائهم ، فيتسابقون إلى الموت ذياداً عن دعوته ، وحرصاً على سلامته ، ويمتد حبه إلى أتباعه على مدى الزمن حتى يود أحدهم لو رآه بأهله وماله[2] وهو نوع من

---

(١) من كلام موسى عليه السلام فى سفر التثنية حيث يعرف العرب الذين إليهم ينتقل إرث النبوات بقوله عن ربه « أغيرهم بما ليس شعباً » .

(٢) مضمون حديث شريف رواه مسلم عن أبى هريرة فى « كتاب الفضائل » .

الحب، لا تعرفه البشرية لغير محمد ﷺ لأنه صادر من منطقة الحقيقة التى عليها قام تاريخه كله ، فلا دعاية ولا طنطنة ، ولا أضاليل إعلامية تجعل من الحبة قبة ، ومن الأقزام عمالقة !..

واليوم ، وقد تهيأ العالم الإسلامى لاستقبال ذكرى ميلاد ذلك الحبيب الأعظم ، لابد للمفكر المؤمن من التأمل فى واقع هذه الأمة وما صارت إليه من جاهلية جديدة ، انقلبت فيها الأوضاع ، فضاعت فى غمارها معالم الشخصية الإسلامية التى أنشأتها تربيته المثلى لتكون الأنموذج الذى لا مندوحة للأمة كلها وفى تاريخها كله من اقتفاء أثره ، لتستحق ما استحقته من العزة والكرامة والعناية الإلهية .

إنه ينظر إلى المسلمين فيراهم قد عادوا إلى أسو ما كان عليه الجاهليون من التفكك والتنابز والتخاذل ، إلا من رحم الله .. وقد انسلخ معظمهم من طابعه الأصيل ، فهو يستبدل به راضياً مزقاً يستعيرها من هنا وهناك ، ليؤلف منها ما يظنه شيئاً مذكوراً ، وليس هو إلا وهماً وزوراً .. حتى لكأنه صورة مجسمة لأولئك : ﴿ **الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ... ﴾ .

وإنه لينظر إلى العالم البشرى من حوله فيراه نسخة من ذلك الماضى الرهيب الذى سبق فجر الإسلام ، بغى فتاك يستذل به الأقوياء أعناق الضعفاء ، وانحدار بالإنسان إلى أهول ما سجله التاريخ من مهاوى القلق والشقاء ، حتى ليقتل الأخ أخاه ، وتسحق الغوغائية العمياء أحق الخلق بمودتها ورحمتها !..

ويتساءل المؤمن عن آثار الرسالة المنقذة فى هذا الخضم الطاغى ، فلا يكاد يسمع جواباً ، لأن اضطراب المقاييس يحول دون وضوح الرؤية ، فهناك طائفة من أهل الحق لم تزلزلها الأحداث تهيب بالناس ليسلكوا طريق الرب ، ولكن آلافاً من وسائل التضليل تحول بين صوتها وآذانهم ، ثم إلى جانب هذه الطائفة المجاهدة طوائف يزعمون أنهم دون غيرهم حملة الدعوة الهادية مع أن كل ما يملكون من فكرة عن الإسلام لا يعدو مجموعة من الأوهام ، فكأنهم لم يقرءوا كتاب الله ، ولم يسمعوا قط بسنة رسوله ، فهم

من أجل ذلك لا يستطيعون أن يتصوروا رسول الله ﷺ بشراً من الناس ولا يكادون يصدقون أنه مبعوث بالشريعة ، التى يجب على المؤمنين بها أن يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم ليقوموا بها عوج الإنسانية ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله !..

ثم يرى على رأس هذا الغثاء خطباء فتنة لا عمل لهم إلا تمجيد المتسلطين ، وإسباغ حلل القداسة على مقررات الغاشمين ، وكأنهم نسوا البتة قول الحكيم العليم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ... ﴾ .

وأنى تلفت هذا المتأمل من عالم الإسلام يشاهد التجارب التى مزقت من قبل دولته ، وشردت أمته ، تعيد نفسها فى مذاهب شيطانية جديدة يراد فرضها بالقوة والتضليل على سواد هذه الأمة المعذبة ، وقد حشد لها صنوف الأوشاب الذين دربوا على التصفيق لكل عاد ، والثورة بكل برىء يدعو إلى الله على بصيرة !..

وهكذا يرسل بصره فى أكناف هذه الأرض فلا يلمح إلا ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، فيتردد بين يأس يقطع صلته بكل أمل ، وأمل يرفع قلبه فوق كل يأس ، ثم لا يلبث أن يغلب إيمانه تردده ، فيزداد ثقة بدين الله الذى لا سبيل سواه إلى الخلاص ، وقد امتلأ جنانه يقيناً بأن البشرية لم تكن قط أحوج إلى قيادة محمد ورسالته منها فى هذه المرحلة الكالحة من تاريخ الإنسان .

إنه يتذكر – فى هذا الموقف المتأمل – كلمة رسول الله وهو يقدمها إلى جبابرة قريش الذين أقبلوا يفاوضون عمه وهو على فراش الموت ، ليضع حداً بينه وبينهم ، فيقول : « نعم .. كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .. تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه »[1] .. وعلى الرغم من رفضهم يومئذ لتلك الكلمة ، فسرعان ما جاءت الأحداث تترى بتوكيدها إذ لم تنقض سوى سنوات قصيرة حتى حقق الله وعد نبيه ، فقال العرب هذه الكلمة مخلصين دينهم لله ، ثم انطلقوا يحملونها إلى أمم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٧ طبعة الحلبى ١٣٧٥ هـ .

الدنيا ، فإذا الأرض مشرقة بنور ربها ، وإذا الجميع إخوة فى ظل (لا إله إلا الله) ، وبذلك ملك دعاة هذه القضية الإلهية قلوب العرب بإنقاذ الله إياهم من فوضى الفتك والبغى إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً .. ودانت لهم أمم العجم اعترافاً بفضلهم فى هدايتهم إلى طريق ربهم ، فهم أحب إليهم من ألصق الناس بهم ...

أجل.. إنه ليتذكر هذا كله، فلا يتمالك أن يهتف بالطائفة الظاهرة على الحق.

أيها المؤمنون .. إن الزمان قد استدار كهيئته يوم بعث الله محمداً ﷺ فالظلمات المتكاثفة فى حياة البشرية إنما هى تعبير عن حاجتها الماسة إلى كلمة التوحيد .. وتلك هى سنة الله فى بعثة الرسل وانبثاق المصلحين ، لا يظهرون إلا عندما تنطمس السبل فى أعين المدلجين ، فيكون وجودهم آنذاك كإقبال الصالحين من الأطباء على البلد الذى اكتسحته الأوباء .

أيها الهداة الثابتون على الحق ، الحافظون لأمانة الله .. تذكروا أنكم الطوف الأخير فى خضم المهالك التى تحيط بالكرة الأرضية .. وأنكم شهداء الله على خلقه ، والمسئولون الوحيدون عن عملية الإنقاذ التى تتطلع إليها أعين المكروبين ، الذين سلبوا الحرية باسم العدالة ، وحرموا نعمة الأمن باسم الثورية ، وجردوا من كل مقومات الإنسانية باسم الأنظمة التى صنعتها الأهواء وفرضها الأشقياء ...

إن طريقكم لشاق طويل ، وسيسقط الكثيرون منكم أثناء هذه المسيرة المستقيمة قبل تحقيق النصر .. ولكن حذار أن يَفُتَّ ذلك فى عزائمكم، وتذكروا أن الله يريد أن يبلو صبركم ليرفع منازلكم ، ويتخذ منكم شهداء .. ثم لا تنسوا أن البشرية كلها - على الرغم من عدائها لكم - هى أشد ما تكون استعداداً لتقبل دعوتكم إذا أحسنتم عرضها ، وصبرتم على مضّها ، واستطعتم أن تمسُّوا بها قلبها ...

وأخيراً لا تنسَوا قوله تعالى ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم** ﴾ .. فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

سُبۡحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ

موضوع الإسراء والمعراج من كنوز السيرة التى شاء الله أن لا تنفدَ عجائبها وأن تتجدد أبداً عَبِرُها ، فالمضمون الواحد تعالجه الأقلام النافذة فلا تستوفى منه إلا ما يواجهها مما يتصل بحاجة البيئة ومفهوماتها المتطورة ، وتبقى أسراره الأخرى بانتظار المَدارك الجديدة التى يتعذر سبقها إلا فى نطاق محدود ، ولا جرم .. فالسيرة النبوية هى مجال التطبيق الأول لحقائق القرآن ، وهى من أجل ذلك خالدة بخلوده ، ومنتظمة فى موكبه ، تنتظر دائماً وأبداً الموهبة التى تحسن عرضها بلغة عصرها ، ومن هنا جاء توافر الإنتاج الفكرى فى قضية الإسراء والمعراج ، إذ كثر متناولوهما ، فتعددت طرقهم بين التحقيق والتلفيق والخيال والموضوعية .. ولكلّ وجهة هو مولّيها ، وفهم خاص هو آخذ به .

وأسرع لأقول إننى من أجل ذلك لن أقف بحثى على كيفية الإسراء والمعراج وأحداثهما ، لأن كثيرين سيتولون ذلك فيما أتوقع ، وأوثر لحديثى أن يكون فى حدود العِبر التى أحسبها بعض الأهداف الكبرى فى هذين الحدَثَين العجيبين .. ذلك لاعتقادى أن كل حَدَثٍ صحَّ خبره من وقائع السيرة النبوية هو محطة تعبئة لا مندوحة للمسلم من الوقوف عليها ، لتجديد طاقته الروحية ، التى بها وحدها يحقق وجوده ، ويتبين حدود مسؤوليته فى تنازع البقاء ، ولا سيما بإزاء التيارات الرهيبة التى تلح على فصله عن ذلك الماضى الذى على مقدار ارتباطه به يتوقف استمراره ويتأكد انتصاره .

قبل ربع قرن أُلقي على هذا السؤال : تبدأ سورة الإسراء بتمجيد الله وإسرائه برسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وبيان الحكمة من هذه الرحلة ، ثم تنتقل فجأة إلى رسالة موسى وبنى إسرائيل وما يلى ذلك من الأغراض الهامة .. فما السر فى جمع المقدمة بين إسراء محمد ﷺ ورسالة موسى عليه السلام وما يتصل ببنى إسرائيل ؟!

ولقد تفطن بعض المفسرين إلى الرباط الخفى بين هاتين النقطتين ، وحاولوا الكشف عن ذلك على تفاوت فى وضوح الرؤية وتحديد الغاية .. وفى يقينى أن استبانة هذا السر وإبراز مكنوناته مطلب على جانب عظيم من الأهمية ، من حقه أن يرهف عزيمة المسلمين ويزودهم بالكثير من أسباب الصبر والنصر .

لقد شاءت حكمة الله أن ينشىء للجنس البشرى مناطق سلامة يفيىء إليها كلما حزبته هموم الحياة ، فحالت بينه وبين الأمن الروحى ، الذى لا يستكمل إنسانيته بغيره .. فكان المسجد الأقصى الذى بارك حوله ، أحاطه بالخير والنعم ، وجعله منطلق الدعوة إلى توحيده وعبادته الخالصة ، يقوم بها النبيون والربيون .

وفى وادٍ غير ذى زرع من مكة المكرمة أرسى لهذه الإنسانية قواعد البيت الحرام ، لتتعارف فى ظلاله على طاعة الله ، فتسترد فى هاتين المثابتين ما ذهلت عنه من أواصر القربى ، ووشائج التعاطف وروح الاستقرار ، وعَهِدَ سبحانه برعاية كل منهما إلى طائفة من عباده ، فوكل أمر المسجد الأقصى إلى أنبيائه وأنصاره من بنى إسرائيل ، يعمرونه بالعبادة ، ويتولون مجاوريه بالهداية ، ويفصلون بينهم بحكم الله ، واختار سبحانه لولاية بيته الحرام ذرية من نبييه الأكرمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يكرمون الوافدين إليه ، ويوفرون الأمن لكل مقبل عليه .

لكن سرعان ما نسى بنو إسرائيل عهد ربهم فى رعاية مسجده ، فإذا هم يقتلون أنبيائه ويغدرون بعباده ، وينشرون على الأرض المباركة ظلمات البغى ، على حين ظل سدنة البيت الحرام وافين بعهد الله ، موقرين بيته ، قائمين بخدمة ضيوفه ، حارسين لسلامتهم وأمنه .. حتى شاء الله تحقيق موعوده ببعثة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بعد أن استشرى الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، وتقلصت أنوار الهداية عن أرجاء الأرض ، فلم يبق فيها من يهتم بها ، إلا بقية ضئيلة من أهل الكتاب تناثروا فى الأبعاد ، حيث لا يسمع لهم كلام ، ولا يستطيعون ضراً ولا نفعاً .. وبهذه البعثة الخاتمة تدارك الله عباده بواسع رحمته ، فإذا هم فى أول الطريق اللاحب إلى الألفة الجامعة ، التى قدرها من الأزل تحت قيادة الصادق الأمين وسيد الأولين والآخرين .

وفى ليلة الإسراء المباركة تم بناء هذه الوحدة العالمية ، لأول مرة فى تاريخ الإنسان ، منذ أن افترق جنسه إلى شعوب وقبائل .. وقد تجلى ذلك فى الجمع بين البيت الحرام والمسجد الأقصى تحت لواء هذا الرائد الأعظم ، الذى اختارته العناية الإلهية لهذه المهمة ، ومن أجل ذلك جمع الله له إخوانه النبيين ليؤمهم فى صلاة جامعة تؤكد العودة بالإنسانية إلى وحدتها المقررة ، وتضع فى يد الأمة المسلمة من جميع الألوان ولاية المسجدين جميعاً ، لتكون أمة الدعوة العالمية إلى التى هى أقوم .

ثم جاء المعراج إلى الملأ الأعلى تكملة رائعة للمسيرة الإنسانية ، إذ كان بمثابة إعلان بليغ لاتجاه هذه المسيرة نحو السماء ، وبذلك انتهى عهد الضياع البشرى ، وتعينت الغاية العليا من الحياة والحضارة ، ليحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .

وفى حسبانى أن فى هذه الحقائق المنظورة من خلال آيات الإسراء ما يصلح لأن يكون الجواب المقنع على ذلك السؤال القديم .

على أن ثمة أسئلة أخرى تثيرها الآيات من شأنها أن تدفع المفكر المؤمن إلى استكناه أجوبتها أيضاً ، لأن فيها ما يمس واقعه الفاجع مع هذه النفس اليهودية التى تصورها الآيات أنموذجاً صارخاً للالتواء والتعقيد ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لَتُفسدُنّ فى الأرض مرتين ولَتَعْلُنَّ علواً كبيراً فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتُم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهَكم ، وليدخلوا المسجدَ كما دخلوه أولَ مرة وليُتَبروا ما عَلَوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتُم عُدنا وجعلنا جهنمَ للكافرين حصيرا** ﴾ .

فهاهنا إنذار ربانى يوجهه الله إلى بنى إسرائيل فى بعض أسفاره المنزلة على بعض أنبيائهم حول عهدين من المعاصى الكبرى يقترفونها فيستحقون عليها نكاله الهائل ، فهو يحذرهم تلك الموبقات ويرشدهم إلى سبل الخلاص منها وفق سُنَنِهِ الذى لا يحابى محسناً ولا مسيئاً .

أما أولى المرتين فقد اتفق المفسرون والمؤرخون على حصولها وإن اختلفوا فى تعيينها وذلك لتعدد المفاسد التى استحق القوم عليها العقاب الكبير ، ولعل أهمها وأحقها بالتعـــيين حملة (نبوخذ ناصر) التى دمرت ملكهم ، وهراقت دماءهم ، ، واسترقت بقاياهم لعشرات السنين .. ولكن الاختلاف على تحديد الثانية ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها قد مضت كأختها على يد الرومان .. ويرى آخرون أن الثانية هذه غير محصورة فى ذلك الانتقام الرومانى على وجه القطع ، لأن مفاسد بنى إسرائيل مستمرة على وجه الدهر ، ومستمرة عقوباتها الإلهية تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ فلا يستثنى منها وقائع قريظة والنضير وقينقاع وخيبر ، ثم ما تلاهن من كوارث جروها على أنفسهم فى أوربة حتى انتهت بمئات الآلوف منهم إلى أفران هتلر ، وفى رأى هؤلاء إن المرة (الآخرة) لم تخص بالذكر فى كتاب الله إلا بما تتميز به من الحسم الذى يشبه الاستئصال إذ سيكون فيها القضاء على طاقتهم الشريرة كافة ، فلا يستطيعون بعدها إلى فتنة سبيلا ، وقد يؤيد هذا المفهوم كونهم فى مفاسدهم التالية لحملة (بنوخذ ناصر) كانوا عالة على غيرهم لا يقدرون على شىء إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، على حين يصفهم القرآن العظيم أثناء المرتين أو أخراهما بالتفوق الذاتى الذى يرتفع مدُّه إلى قمة الطغيان ، حتى لا يفى بتصويره إلا قوله تعالى : ﴿ **ولَتَعْلُنَّ علواً كبيراً** ﴾ ومعلوم أنهم لم يبلغوا قط هذا المستوى خلال عشرين قرناً قبل قيام إسرائيل .. إذ أصبح لهم كيان مزود بكل وسائل التدمير والإرهاب والاستعلاء ، فضلا عن سيطرتهم الفكرية على منابع القوة فى الشرق والغرب ، وبخاصة فى نطاق المال والسياسة والمذاهب الفكرية والاجتماعية الهدامة .

وبسبب ذلك نميل إلى اعتبار (الآخرة) من المرتين هى التى نعاصرها اليوم ونعيش مآسيها فى العدوان الذى لا يقيم وزناً للعواقب ، وفى التدمير الخلقى والروحى الذى لا يتورع عن سلب الإنسانية فى كل مكان كل مقومات السلامة والاستقرار .. وهذا يقتضى بديهياً أن يكون مدلول (الأرض) فى كل من المرتين مقيداً بحدود الواقع التاريخى ، فإذا كانت فى الإنسان الأول مقصورة على الأرض المقدسة ، التى انحصر أثرهم فيها وحدها ، فميدانها فى الافساد الثانى يشمل كل جانب امتدت إليه سموم هذا الشعب الشيطانى من أجزاء الكرة الأرضية .

والآن ونحن بإزاء الثقل الأكبر من أوزار هؤلاء المفسدين فى الأرض يجدر بنا أن نتساءل : إلى أى مدى كتب علينا أن نسهم فى تأديبهم هذه المرة (الآخرة) ؟؟

وقبل الإجابة على ذلك نركز البصر على قوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ **وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا** ﴾ وعلى الرغم من إغفال الكثيرين من المفسرين ربط ما بين هذه الآية وسابقتها فى مقدمة السورة : ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ لا نشك فى أنهما تستهدفان الغرض الواحد ، بحيث جاءت الثانية تكراراً مؤكداً للأولى فى كون الآخرة فى كلتيهما واحدة هى ثانية المرتين ، والذين ذهبوا بمعنى (الآخرة) إلى مقابلة الدنيا لا سند لهم من أثر أو وحى ، وإنما هوالاجتهاد المأجور .

هذا إلى أن فى الفقرة الأخيرة زيادة تسترعى الانتباه ، ففى قوله تعالى : ﴿ **جئنا بكم** ﴾ إيذان قاطع بأنهم سيساقون بتقدير محكم من مختلف الأنحاء إلى مكان معين ، وفى التعبير بـ (لفيف) توكيد لذلك ، إذ يشير بصراحة إلى تجميعهم إثر حصول الإفساد الآخر .. ومع أن الآية لم تحدد موضع التجميع باللفظ فهو ملحوظ بالمعنى من اللفظ المجاور (الأرض) الذى لا مجال للتردد فى أن المراد به هنا هو الأرض المقدسة ، التى أمروا باستيطانها لإقامة شعائر الله ، وتحقيق القيم العليا ، التى يحب سبحانه أن تعمر بها الحياة ، والتى تحقق بسابق علمه أنهم سيفسدونها بسوء سلوكهم وبتمردهم على أنبيائهم :

وإذا كان الأمر كذلك لم يبق من شك فى أن مهمة الإنقاذ ، إنقاذ الإنسانية من رجس هذه الثعابين واقعة على عاتق المسلمين وحدهم ، وأن موعد المعركة الفاصلة معها متوقف على وصول هذا التجمع إلى حدود الانفجار .

وطبيعى أننا لا نسجل سبقاً علمياً إذا قلنا ان علماء السنة على علم بهذه الملحمة الحاسمة منذ أربعة عشر قرناً ، وأنهم يملكون المخطط الكامل عن تفاصيلها الكبرى ، وذلك منذ اليوم الذى أبلغهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر

والشجر يا مسلم .. يا عبد الله .. هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود »[1] .

والحديث من أنباء الغيب أخرجه مسلم فى جامعه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فلا مِرية فى صحته ، ويحسن بأهل الإسلام أن ينعموا الفكر فى إشارته ، التى قد يكون فيها الغريب عن مصطلحات زمنهم ، ولكنها ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى معركتهم المحتومة مع هذا العدو الخبيث .

إن هاهنا إخباراً قاطعاً بملحمة لا مناص منها بين المسلمين واليهود ، تفسره كلمة (يقاتل) التى تصور المشاركة المتقابلة ، ثم يأتى النصر الحاسم الذى يسجله فعل الغلبة بقوله (فيقتلهم المسلمون) ويعقب ذلك تجسيم الهزيمة الواقعة فى العدو بصورة الاختباء وراء كل مظنة للقوة والنجاة من حجر وشجر ، ويلحق بالحجر كل ما يتألف منه كالحصون والخنادق والبيوت والصخور .. ويلحق بالشجر كل ما يتخذ للوقاية والتضليل والكمون ، ويبقى موضـوع (القول) الذى يصدر عن الحجر والشجر : ما هو .. وما صفته ؟ .. وهو تعبير يتسع لأكثر من تفسير . فالقول يطلق على اللفظ الذى ننشئه من أنفسنا ، والذى ننقله عن غيرنا ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف كلامه العزيز : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ ويحتمل معنى الإشارة كما فى الحديث (وقال بأصبعه هكذا) أى أشار ، وعلى هذا فقول الحجر والشجر يحتمل أن يكون كلاماً يخلقه الله فيهما لإرشاد المسلمين إلى مكامن عدوهم فى تلك المعركة ، فيكون ذلك من التكرمة الربانية لعباده المؤمنين ، كتنزيله الملائكة بنصرتهم حين يشاء .. ويحتمل أن يكون من نوع الإشارة اللاسلكية أو الصوتية التى يحدثها الرادار أو نحوه ، يوجهه الخبراء إلى الأماكن المختلفة فيستكشف ما خلفها ، فيكون ذلك مساعداً على تتبع العدو ، أما استثناء الغرقد من ذلك التجاوب فلعله حاصل من تحصين اليهود إياه بعواكس معطلة لعمل هذه الرواصد .. هذا إذا استبعدنا المجاز عن المراد بالغرقد ، إذ قد يكون ضرباً من الأجهزة العلمية شبيهاً به لاشتراكهما فى بعض الأشكال والخواص ، وطبيعى أنه لا سبيل إلى القطع بهذه التعليلات لأن الأمر متعلق بغيب لا يحيط به إلا الله ، ولكنها محاولة لتقريب

---

(١) الغرقد ضرب من الشجر الشائك كالعوسج .

المعانى البعيدة ، والذى نريد التنبيه إليه هنا هو ما يحمله الحديث الشريف من إنذار للمسلمين بهذه الملحمة الهائلة ، والملابسات التى تكتنفها ، والنهايات التى ستصير إليها ، ليكونوا على بينة من مسئولياتهم الآتية ، وعلى أهبة لتحقيق واجباتهم بإزائها لكى يستحقوا النصر الموعود .

وبقيت هنالك نقطتان أولاهما : أن مجرد نداء الحجر والشجر بكلمة : (يا مسلم يا عبد الله ..) دليل كاف على أن جنود الإسلام يومئذ سيكونون من النوع الذى يستحق الإضافة إلى الله ، ولن يستحق المحاربون هذا التكريم إلا أن يكونوا مصفّيْنَ من كل عصبية جاهلية .. مخلصين العمل لله وحده ، لا يخالط نفوسهم شائبة من علمانية أو شيوعية أو قومية .. أو نحو ذلك من الدعوات الجاهلية .

أما الثانية فهى أن الخبر النبوى يعرض العدو معرفاً بأل ، وفى هذا التعريف الاستغراقى ما يشد الانتباه ، ويفسح المجال للاحتمال بأنه إشارة إلى تجميع يجعل اليهود صالحين لكسر شوكتهم وتحطيم قوتهم على المستوى العالمى .

وإذا صح هذا التأويل ولا مانع منه ، فلن يكون ثمة تجمع لهذه الشراذم السامة أصلح من تجمعهم القائم فى فلسطين .. وبالتالى لن يكون هناك فرصة للقضاء على شرورهم ، وإنقاذ البشرية من فواجعهم أصلح من هذه المناسبة ، ولا حاجة للظن أن نتيجة الملحمة هى استئصال الجنس اليهودى كلياً ، فإن التعبير بقوله ﷺ (فيقتلهم المسلمون) قد يراد به الاثخان دون الاستئصال .. وذلك كقول عمرو بن سالم الخزاعى لرسول الله :

هم بيتونا بالوتير هجداً   وقتلونا ركعاً وسجداً

ولو كان القتل شاملا لخزاعة لما بقى منهم هذا المخبر ، ولو كانت نهاية الملحمة استئصال اليهود لما أخبر ﷺ فى حديث آخر بأن عشرات الالاف من يهود أصفهان سيتبعون المسيح الدجال يوم يحين موعده .

● أما بعد .. فقد كتبت هذه الخواطر قبل هذه الأيام ولكنها غير بعيدة عن أحداثها التى نتجرع غصصها على أيدى العصائب التى جعلها الله قدر المسلمين فى هذا القرن ، الذى بلغت به فواجعهم أقصى ما عرفوه خلال تاريخهم المشحون بأكداس المحن والعبر ..

وعلى الرغم من الألم الذى يزلزل قلوب المؤمنين بإزاء ما يشهدونه من النكبات يصبها هذا الوحش الشرس وحلفائه على عشرات الآلاف من إخوتهم فى بيروت وجنوبها ، فتحصدهم حصداً بأفتك ما حققته عبقرية أميركة من وسائل القتل والتدمير .. على الرغم من ذلك فإن المفكر المؤمن ليلمح من خلال هذه الفجائع بوارق البشرى تملئه يقيناً بأن وراءها الفجر الذى يشير إليه النبأ النبوى العظيم .

وقد شاء الله أن ندفع ثمنه آلاف الشهداء من الشيوخ والأطفال والنساء ، الذين أحالت همجيةُ اليهود ومن ورائها اميركة منازلهم قبوراً لهم ، فكان ذلك سبباً مباشراً فى إيقاظ ضمائر البشرية على واقع النفسية اليهودية ، التى لا يُرويها شىء مثل الدم تعجن به فطيرها أيام السلم ، وتسقى به الأرض جزافاً فى ظلال الحرب .

وهكذا تتهيأ النفوس فى كل مكان لقبول المصير العادل الذى يعده القدر لهذه الشجرة الخبيثة على أيدى المظلومين من عباده المسلمين .

وشىء آخر لا يقل عن ذلك أهمية هو الإفلاس النهائى الذى انتهت إليه دعوات المضللين من الغافلين عن تدبير الله وحكمته إذ أزالت البقية الباقية من أقنعتهم المزورة ، فلم يعد لمزاعمهم مكان فى عقول الجماهير التى يحكمونها بالحديد والنار وأفانين التضليل .

وإنها لصفقة رابحة أن تتكشف محنة بيروت والجنوب عن كل هذا الخير الذى يبشر باقتراب يوم النصر .

فليفتح الباغون كل جحيمهم ... وليشحنوا بالرعب كل مكان
وعدٌ بنصر الله قد صَدَرَتَ به ... للمؤمنين إرادة الديـــان
أن لَيس للأقصى سواهم منقذ ... ينتاشه من أنْيُبِ الذؤبان
ولقد يؤَخّر بعضَ حين زحفهم ... لكنه رغم العُوائق دانى

ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

* * *

نفحات مباركات

من شهر الهدى والبينات

ما الذى يحسن بى أن أقدمه إلى القارىء وهو يتهيأ لا ستقبال الموسم الذى يقول فيه بارىء الكون : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ ؟

أأحدثه عن عظمة هذا الكتاب الذى كرم الله به الجنس البشرى فعلمه ما لم يكن يعلم ، وأراه ما لم يخطر على قلبه قط ، وأخرج به من الظلمات شعوباً لم تكد تستشرق ضياءه حتى انطلقت فى أكناف الأرض ترد الدنيا إلى نور ربها ! .

أم أحدثه عن فضائل رمضان وكنوزه وبركاته ، التى بها كان مجتمع الفرص الإلهية التى أتاحت للمسلم أن يحقق أعلى ما أُعد له الإنسان من مراتب الكمال على سطح هذا الكوكب .. وناهيك بشهر خصه الله بالليلة التى هى : ﴿ **خيرٌ من ألف شهر ، تَنزلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربِهم من كل أمر ...** ﴾ ؟

إن الكلام عن رمضان كمحاولة الغوص فى خضم لا وصول إلى قراره ، ولو نحن رحنا نجمع ما يدبجه الكتاب ، وما يحبره الخطباء ، وما يصوغه الشعراء فى مزايا هذا الموسم ، وفى الأحداث التى شهدها خلال التاريخ منذ يوم بدر ، الذى شق به الإسلام طريقه نحو القيادة العالمية ، نوراً يبدد الظلام ، وعلماً يحطم الأوهام ، ورحمة ترد للإنسان حريته التى سلبها الحكام ، وكرامته التى امتهنها الظُّلام .

أجل .. لو تيسر لنا الاطلاع على كل ما يتناوله هؤلاء من أحداث هذا الشهر المفضل ، وذكرياته ذات الأثر البعيد فى تاريخ المسلمين الغابر ، وواقعهم الحاضر ، لرأينا ما لا يحصى من الموضوعات ، ولوجدنا ثَمَّةَ متسعاً لروائع لم يشر إليها بعد ، وهى تنتظر من يحسن استكناه أسرارها من فرسان البيان ..

من أجل ذلك رأيت أن أصرف القلم عن معظم الجوانب من أحداث رمضان المبارك ، على الرغم من الحاجة الملحة إلى إحيائها واستيحائها ، لاستخراج العبرة التى تنفعنا من مواجهة وقائع العصر ، لأن ذلك كله مما يقع فى نطاق البحوث التى ستطالع الناس فى هذه المناسبة ، سواء من المساجد أو الأندية أو الصحف ، وسائر وسائل الإعلام الأخري مسموعة ومنظورة .

أما الفكرة التى آثرت الوقوف عندها من موحيات شهر القرآن العظيم ، فمستمدة من حديث شريف ، طالما قلبت النظر فى دلالاته ، وتقصيت ما كتبه أهل العلم عن إشاراته ، ولم يزل فى النفس والعقل منه شئون وتساؤلات ، تلقي فى خلَدى أن ثمة جوانب لا تزال تنتظر البحث والاستنباط .. ومع شعورى العميق بالعجز عن إعطاء الجواب الشافى على هاتيك التساؤلات ، لم أجد مندوحة عن تقديم بعض المحاولات التى إن لم تكف فلا أقل من أن تثير بعض الهمم لاستكمالها .

أخرج البخارى رحمه الله فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤصائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وقد أورد البخارى رحمه الله لهذا الحديث رواية أخرى فيها بعض الاختلاف اللفظى مع الاتفاق التام فى المعنى ، وتكاثرت رواياته من حيث المضمون وأكثر اللفظ فى مختلف كتب الحديث ، حتى يكاد يبلغ منزلة التواتر ، وفى ذلك إحدى الدلالات على أهميته وما ينطوى عليه من كبار الفوائد .

يقول صاحب (فتح البارى) : « وقد اختلف العلماء فى المراد بقوله تعالى : « الصيام لى وأنا أجزى به » على أقوال ، ثم مضى فى عرض هذه الأقوال حتى يبلغ بها العشرة ، فإذا هى متشابهة أو متحدة الدلالة تكاد تتخلص فى قول الإمام ابن الجوزى : « لمعنى ليس لنفس الصائم فيه حظ ، بخلاف غيره – من العبادات – فإن له فيه حظاً لثناء الناس عليه » .

ومع أنى أجد بعض الارتياح لهذا التعليل إلا أنى استشعر فيه بعض القصور عن مدى التعبير النبوى ، فابن الجوزى رحمه الله ينفى أن يكون للصائم حظ من صومه ، ولكنه يثبت توافر هذا الحظ له فى غيره من العبادات ، ويحصر ذلك بثناء الناس على صاحبها ، إذ يجدون فيها دلالة على صلاحه الذى يجلب له الثقة والتقدير ، وبذلك يتحقق له عند الناس نوع من الأجر ، الذى لا ينال الصائم ..

وقد توارد على هذا المعنى غير واحد من شراح الحديث ، ونقل صاحب الفتح عن بعضهم قوله : (لأن الأعمال لا تكون إلا بالحركات إلا الصوم فإنما هو بالنية التي تّخفى عن الناس ومما يقوى هذا الاتجاه ما ورد في الأثر (ليس فى الصيام رياء)[1] فكأن نفى الرياء عن الصوم لخفاء باعثه ، يثبت إمكان وقوعه فى الصلاة أو الحج أو الزكاة مثلا ، لتمثلها فى الظواهر كما تقدم ، فلا قدرة لصاحبها على إخفائها .

أما جانب القصور فى هذا التعليل فعائد فى تقديرى إلى غموض العبارة فى كلام ابن الجوزى إذ هو يطلق لفظ (الحظ) دون تحديد لمراده منه ، فالحظ فى اللغة هو النصيب والقسم ، ولا يبعد عن مفهوم (الفائدة) عند العامة ، فنفى (الحظ) - بهذه المعانى - عن الصائم مناف للواقع لأن حظ الصائم فى الأجر كبير ، كما يفهم من حديث النسائى عن أبى أمامة « عليك بالصوم فإنه لا مثل له »[2] ولا عبرة فى تجريده من حظوظ الدنيا ، فالشهيد يجود بنفسه فى سبيل الله وهو أبعد ما يكون عن التفكير بثناء العباد ، لأنه مشغول القلب عنهم بربهم .. ومع ذلك لا يقال بتجريده من الحظ .

من هنا يقوم فى تصورى أن إضافة الصوم إلى ذات الله تبارك وتعالى أبعد فى الدلالة مما ذهب إليه ابن الجوزى وغيره ممن قرأت شروحهم للحديث .

○ الصلاة عمود الدين ، ومع ذلك فهى تفاعل روحى وجسدى معاً ، فكما ترتفع بالإنسان إلى جِواء الصفاء فتدربه على التسامى حتى يصير له ملكة ، كذلك تمنحه فرصاً رائعة لترويض أعضائه والترويح عن أعصابه ، وبذلك تجتمع للمصلى الخاشع الفائدة والمتعة جميعاً .

---

(١) فتح البارى ج ٤ ص ١٠٧ طبعة السلفية .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٤ .

وهكذا القول فى الحج ، فهو أروع سياحة رياضية يمارسها الحاج ، فتنشط طاقاته الروحية ، إذ تُطِل به على أصناف البشر بمختلف لغاتهم وألوانهم ، وتذكره بالمصير الذى سينتهى إليه لأداء الحساب على ما كسب وقدم .. هذا فضلا عن الامكانات المادية التى تمكن للمسلمين أن يجعلوا من موسم الحج ، إلى جانب العبادة الخالصة ، سوقاً إسلامية تشد من وحدتهم ، وتحقق لهم (المنافع) التى جعلها الله أحد أهداف الحج .

وليست الزكاة دون ذلك مردوداً ، وحسبها ما تشعر به المسلم من فضل الله عليه ، بجعله قادراً على مواساة إخوانه الذين تخلفت بهم قافلة الحياة ، وفى ذلك من الغبطة الروحية والتحاب فى الله ، مايتضاءل بجانبه كل نفقة بالغة ما بلغت .

ولو نحن مضينا فى استحضار سائر ضروب الطاعات ، بدءاً من كلمة التوحيد حتى إماطة الأذى عن الطريق ، لألفينا أنفسنا تلقاء كل متكامل عن التساوق السعيد بين الروح والمادة جميعاً .. وكلها حين تخلص لها النية بالتوجه إلى ابتغاء مرضاة الله ، صالح للتحرر من الرياء الذى يفسد العمل ، وينحط بصاحبه ، عياذاً بالله ، إلى دركات الشرك .

ثم إن الصيام ليس من الخفاء بحيث يتساوى مع أعمال القلب التى لا يعلمها إلا الله .. بل إنه لَيُعرف من آثاره فى مظاهر الصائم ، التى تشمل الملامح كما تشمل الجوارح ، وبذلك تكون مدعاة لثناء الناس كغيرها من العبادات أيضاً ، ولا حرجٍ فى هذا ، فليس مجرد ثناء الناس على العابد مؤثراً فى عمله ، ما دام قلبه سليماً من هذه المؤثرات .

وعلى هذا لابد من البحث عن العلة فى تخصيص الصوم بمزية الإضافة إلى الله فى غير ما وقف عنده أولئك الفضلاء ، وهذا ما حدانى إلى أن أعود إلى تجربتى الشخصية مع الصوم لعلى أعثر هناك على إيضاح لذلك الغامض .

لا أدرىِ إلى أى مدى يشاركنى غيرى من الصُّوام إحساسى بوطأة الصوم ، إنى لأهابه قبل موعده ، فإذا احتوانى ظله غرقت فى بحر من الارهاق لا يسعنى تصويزه ، الفكر ، الوعى ، الأعضاء كلها ، بل كل نسيج فى الجسم منفعل بهذه التجربة ، قد تضعف شهوة الطعام ، وتتلاشى

إلى حد سورة الظمأ ، وبخاصة بعد تتابع أيام الصوم واعتياد واقعها ، بيد أنه يظل عبئاً ضخماً ينوء به جسد ذي القوة ، تَغيم فيه الطاقات النفسية تحت ضغط التغييرات العضوية ، فلا يكاد الصائم يستوعب ما حوله على نحو ما ألف قبله من الوعى .

وليس من شأنى أن أتحدث هنا عن الأثر الصحى للصوم ، فذلك من عمل ذوى الاختصاص من الأطباء وعلماء المخابر ، وقد تباينت آراء هؤلاء فى تقييمه بين مؤيد ومعارض ، ولكن الموضوع يظل فوق التأييد والتنديد .. إنه تكليف إلهى فرضه الحكيم الخبير ، الذى هو أعلم بمصالح عباده وأرحم بهم من أنفسهم ، وحسب المؤمن من الصوم تلك الغبطة الروحية التى يعيشها أثناءها ، إذ يملوءه الشعور بالقرب من عالم القدس ، والارتفاع عن كل عوامل الهبوط ، التى كانت تشغله عنه من قبل ، وذلك حال لا يرقى إليه تفكير خبراء الصحة الجسدية ، ولا يخطر فى أوهام الاقتصاديين ، الذين وقفت عقولهم عند حدود التراب ، فهم ينظرون إلى الصوم من خلال عملية الانتاج ، لأنهم عجزوا عن معرفة أنفسهم ، فلم يتعدوا فى تقييمها نطاق المعدة والشهوة .

والصوم كغيره من العبادات الشرعية تتفاوت آثارها فى القائمين بها ، تبعاً لا ستعداداتهم الروحية ، حيث يكون منهم المصلّى وكأنه لم يصل قط ، والصائم الذى ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ .. وطبيعى أننا إنما نتحدث عن الصوم الذى يتجلى فى قول رسول الله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه[1] ».

فالإيمان هو الشرط الأول فى صلاحية الصوم ، ثم يأتى الاحتساب الذى هو بمثابة السِّياج الذى يصونه من المفسدات ، ويتمثل فى الفقرات ٣ و ٤ و٥ من التوجيه النبوى الذى نحن بصدده .

فصوم المحتسب جُنَّةٌ : والجنة هى الوقاية ، وقاية بالدرجة الأولى من النار ، ثم هى وقاية من كل ما يشين سلوك الصائم ، كالرفث الذى هو كل فاحش من القول لا يليق بأهل الوقار ، وكالصخب الذى يشمل ارتفاع الصوت لغير

---

(١) صحيح البخارى .

الضرورة ، ويتناول التصرفات الحمقاء التى تصدر عن أهل الجهل ، وحتى لو تعرض هذا الصائم لسباب أولئك الحمقى ومشاجرتهم ، فعليه أن يضبط أعصابه ، بالارتفاع عن واقعهم متذكراً الحال التى هو عليها من طاعة الله ، ومذكّراً بها عند الحاجة ، بقوله : (إنى امرؤ صائم) وهى كلمة على صغرها تختصر واقع الصائم الذى ألزم لسانه أدب السماء ، فلا يتجاوز فى نطقه حدود الكلمة الطيبة ، وما أشك فى أن هذا هو أحد المعانى التى تصورها كلمة (خلوف فم الصائم) فى الحديث الشريف ، بل لعله التفسير الأصح من كل ما ذهب إليه المفسرون .

وهكذا يحقق هذا الصائم المثالى بسلوكه النظيف ذلك الأفق الذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين »[1] إذ لا مكان فى مثل هذا الجو النقى للشرور والآثام التى تسوق إلى عذاب الله ، ولا منفذ لشيطان إلى هذه القلوب ، التى حصنتها فضائل الصوم بوجه كل وسواس خناس ، من الجنة والناس .

وإذن فنحن هنا تلقاء إنسان يمارس ضرباً من الحياة الجديدة ، يفطم به نفسه عن كل شائبة تشوه جمال إنسانيته ، ويدربها على التسامى إلى أعلى مما ألفته من السلوك العادى طوال الأحَدَ عشر شهراً ، فلا طعام ، ولا شراب ، ولا لغو ، ولا صخب ، بل التزام تام للطريق الصاعد مهما تكلفه من المشقة .. وقد نصبت على جانبى الطريق الصُوى الهادية ، تذكره كلما قارب حافتيه بوجوب الحذر من السقوط ، والتحفظ من المغويات ، حتى يبلغ نهاية الشوط ظافراً بالأجر الموعود ومستعيناً بلذة النصر المنشود على عوامل الضعف والهبوط .

ومرة أخرى نتذكر أن لكل ضرب من التكاليف الشرعية لوازمه من فُرَص الراحة وعاجل المنفعة ، وليس بينهما واحد يقتضى استمرار المجاهدة أكثر من أوبقات قصيرة ، أو أيام قليلة ، إلا الصوم الذى خص بمعركة الثلاثين يوماً لا فتور فيها ولا هدنة ، بل جهد وتهجد يستغرقان معظم الليل والنهار .

---

(١) للشيخين وغيرهما .

وعلى هذا يتعين الحكم بأن امتياز الصوم يعود إلى خلوه من المصلحة المباشرة للصائم ، ونعنى بـ (المباشرة) المردود الذى يتطلبه وجوده المادى ، وهو منتف بالصوم على وجه القطع ، بما فرضه الصائم على نفسه من الحرمان الشامل لكل متعة ولذة يتعلقان بالحياة الدنيا ، حتى لتصبح لحظة إفطاره آخر النهار مدعاة لفرحة لم يجرب مثلها قط فى غير مناسبات الصيام ، ولا يشبهها إلا فترة الراحة التى تمنح للسجين وهو يغادر قيود المُطبق ، ليشارك الأحياء فى نعمة الهواء والضياء .

فأى عجب بعد ذلك أن يكرم الصوم بالإضافة إلى جناب الحق سبحانه دون غيره من أصناف العبادات !..

ومن هذا المنطلق يفهم السبب الذى من أجله أسند جزاء الصوم إلى الله جلت حكمته ، فكما أن كل عبادة مشروعة من العبد هى فى الأصل لله وحده ، ثم استُثنى منها الصوم لمزية له ، فكذلك الجزاء على العبادة لا يكون إلا من جهته ، وإنما خص جزاء الصوم بذلك التفضيل لبيان أنه غير محدود بالعدد والمقادير ، بل هو تابع لفضله الذى لا حدود له ، وفى قوله سبحانه : ﴿ **إنما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ دلالة وافية على هذا المعنى ، لأن رمضان هو شهر الصبر كما ورد فى الخبر ، لتوافر العديد من الآثار على أن المراد بالصابرين فى هذه الآية هم الصائمون(٥) وما أحسن قول ابن حجر فى (فتح البارى) حول هذه النقطة : (إن الكريم إذا قال : أنا أتولى الإعطاء بنفسى كان فى ذلك إشارة إلى تعظيم ذلك العطاء وتفخيمه)(٢) .

وبعـــد :

إن جوانب الجلال فى شهر القرآن أكبر وأبعد مدى من أن تفيها حقها الأقلام ، ومهما تباينت بإزائها الأفهام فهى متفقة على أن رمضان – إلى جانب مضامينه العظمى – هو فترة التصفية الربانية يسترد بها الإنسان ، الذى أسلم وجهه لله ، ما فقده فى صراع الدنيا من خصائصه العليا ، ليعود بعدها إلى سيرته الأرضية مزوداً بكل الطاقات التى تجعل لوجوده الأرضى معنى أكبر من الأرض .. فإذا وفقه الله لاستكمال مرحلته على هذا النمط من السلوك الأعلى

---

(١)،(٢) فتح البارى ص ١٠٨ ج ٤ .

مدة الشهر المفضل ، خرج منها كالجندى الموهوب حين يخرج من دورة التدريب على مختلف الأسلحة ، مزوداً بالخبرة التامة لمواجهة كل موقف بما يقتضيه ،وإذا قدرنا شمول هذا السلوك لأفراد المجتمع الإسلامى – أو معظمهم – خلال هذه الدورة الإلهية ، أدركنا عظمة المهمة التى رُشِّح لها العالم الإسلامى ، وبخاصة فى هذه الأيام التى طمست بها معالم الحق على البشرية ، فهى تخبط – من غرورها وضياعها – فى ظلمات بعضها فوق بعض .

وأخـــيراً :

تلك لمحات مقصورات على جانب محدود من فضائل رمضان الحبيب ، حاولنا بها المشاركة فى استكشاف بعض الإشارات العليا من مضمون ذلك الحديث القدسى .. فإن نكن قد وفقنا إلى الخير الذى نريد فذلك الفضل من الله ، وإلا فهى محاولة مأجورة بفضله ومنه إن شاء الله .

* * *

السراج الذى أوقده الله

حضرت بالأمس حفلة تقليدية لذكرى المولد النبوى ، واستمعت فيها إلى القصة ، وإلى الأناشيد ، فكان كل ما تجمع لدى من ذلك ألفاظاً شعرية ، تتألف من العطور والزهور ، والأغاريد والطيور ، ثم ذكر النسب الكريم ، وما إلى ذلك من صفات شخصية وجسدية للرسول العظيم ..

وسمعت بعض الإذاعات فى هذه المناسبة المباركة ، فوجدت فيها بعض الجدة ، وهى جدة يمكن تلخيصها بكلمة صغيرة : « إنها عرض لبعض الأمجاد القومية التى نشأت فى إثر الرسالة المحمدية » .

وهأنذا الآن أقف بين النتيجتين متأملاً مفكراً ، فلا أعثر على الصورة الصحيحة ، التى يجب أن يخرج بها الإنسان إثر استحضار هذه الذكرى ! .

فالحفلات التقليدية تدورحول موضوع الذكرى- دون أن تلمس حقيقتها— بالألفاظ الشعرية المنمقة ، وكذلك الأمر فى الحفلات الجديدة ، فهى أيضاً تدور بدورها حول أشياء لا تمس حقيقة الذكرى فى الكثير من أغراضها ، ومرد الأمر فى الحفلات القديمة أنها لا تزال صدى مكروراً لعصور التخلف التى أنست الناس جوهر الرسالة الإسلامية فوقفوا عند قشورها ، وأن الأشخاص المجددين – فى الحفلات الحديثة – ينظرون إلى شخص الرسول من وراء نظارات أجنبية صرفة ، لا ترى من الذكرى غير جانبها المادى وحده ، لذلك تكتفى من الموضوع بالكلام على النواحى القومية ، وما إلى ذلك من ذكريات الأمجاد والفتوح .. وكأنما تريد من ذلك أن تقيم الدليل على (عبقرية الرسول العربى) التى استطاعت أن تضيف إلى التاريخ الإنسانى كل هذه الأحداث ! .

أما مبادىء الرسول ، وأما تعاليم الرسول ، وأما رسالة الرسول ، وما فيها من أسرار السماء والهداية الربانية فذلك بعيد عن تفكير المقلدين والمجددين جميعاً .

وما دام الناس بعيدين عن إدراك هذه الحقيقة ، فسيظلون يدورون فى حلقة مفرغة لا تنتهى إلى خير ...

ومن أجل أن نحيط علماً بهذه الحقيقة علينا أن نحدد مفهومنا العقلى من الرسالة الإسلامية ، ذلك لأن شخصية محمد ﷺ لا تفهم إلا على ضوء هذا التحديد ، ويوم نستطيع أن ندرك هذا الواقع ثم نجهر به للناس ، يومئذ يحق لنا أن نقول : « إننا نحسن الاحتفال بذكرى مولد محمد صلوات الله عليه وسلامه » .

إن شخصية محمد لم تستمد خصائص عظمتها من نسبه ولا بيئته ، ولا من عبقريته الخاصة ، وإن تكن هذه أشياء لا يستغنى عنها الدارس لمهمة الرسول العربى ، ولكن السر الحقيقى فى عظمة هذا الإنسان الممتاز ، هو أن الله اختاره لهداية القطيع الإنسانى الضال عن طريق الحق .. ثم زوده من الصفات العقلية والنفسية بالقدر العظيم الذى يحقق تنفيذ هذه المهمة العظمى .

لقد أغرق الناس فى المادية حتى أوشكوا أن ينسوا حكمة الله فى تكوين هذا الجنس الإنسانى ، الذى اختارته العناية الربانية لعمران الأرض ، واستخدام طاقاتها ، فحسبوا أن العظمة الحقة موقوفة على القدرة الشخصية ، التى بها يستطيع الإنسان أن يقود الجماعات وينشر الحضارات ، وقد فاتهم أن القدرة الشخصية مهما تبلغ من القوة ، تظل عاجزة عن هداية الإنسان إلى الحقيقة التى يجب أن يسخر فى سبيلها كل قوته .. وذلك من أجل أن تأخذ الحياة الإنسانية اتجاهها الأمثل نحو السعادة الشاملة ..

ومثلا واحداً نضربه على ذلك : هو أن فلسفة الإنسان على كثرة مظاهرها ، لم تستطع أن تخط للجماعة الإنسانية مذهباً واحداً ، يمكن أن تجتمع عليه البشرية فى اطمئنان وإيمان على حين نرى النبوات الربانية وحدها هى التى استطاعت أن تسيطر على وجدان الإنسانية فتسوقها إلى غاية موحدة ، راضية مختارة ..

هذه قاعدة اجتماعية لا يؤثر عليها الشذوذ الفردى الذى يتراءى بين الحين والحين ، فى تمرد بعض الأفراد والجماعات على حقيقتها المسلّمة ، عندما يحاولون التنكر للرسالات السماوية ، ليقيموا بديلا منها مبادىء فلسفية من صنع الأرض ..

أجل .. على ضوء هذا القانون الربانى يجب أن ننظر إلى شخصية الرسول

العربى الامى ، وبذلك وحده نتصل مباشرة بالمعنى الأسمى لميلاده .. فنرى أنه ليس ميلاد شخص ولكنه ميلاد دعوة .. ميلاد رسالة .. ميلاد نبوة ..

من العبث أن نتعرف شخصية محمد ﷺ عندما ننظر إليه فى معزل عن صفته النبوية ، إن محمداً لم يقل عن نفسه أنه بطل وعظيم وعبقرى ، ولكنه عرف هذه النفس فى تواضع فقال : « أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .. ثم لخص حقيقة هذه النفس بقوله : « إنى رسول الله إليكم وإلى الناس كافة » وكذلك عرّفه ربه بقوله الحق : ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا** ﴾ .

فمحمد سراج أضاءه الله لهداية الإنسانية كافة ، وجدير بنور هذا السراج أن يخرج القطيع البشرى من الظلام إلى النور ، لأنه ليس من صنع الذكاء الأرضى ، ولكنه شعلة من قبس السماء ..

ولقد أدرك المؤمنون الأولون هذه الحقيقة ، فباعوا أنفسهم لها ، ووقفوا وجودهم عليها ، ثم لم يرضوا أن يحتكروا هذه السعادة لأنفسهم وحدها ، فاندفعوا ينشرونها فى أكناف الأرض ، ومضت الأرض تنطوى تحت أقدامهم فى سرعة معجزة حتى ركزوا ألويتهم فى كل مكان ، وفى أقصر زمان ..

وهاهوذا أحد هؤلاء المؤمنين ، يلخص مفهومه لهذه الرسالة فى كلمات بسيطة يصرخ بها فى سمع (رستم) قائد فارس عندما سأله عن هدف العرب من حروبهم فقال : هدفنا(أن نخرج عباد الله من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ..) فكان فى هذه الكلمات القليلة خلاصة وافية لمعانى الرسالة الإسلامية .. إنها رسالة التحرير للعودة بالإنسانية الحائرة إلى نور ربها وإلى حريتها الأصلية ..

لقد ضل كثير من الناس فزعموا أن الفتح الإسلامى لم يكن إلا نتيجة لعوامل اقتصادية لا غرض لها من دين أو ورع .. ولا نزال مع الأسف نسمع مثل هذا القول ، يتبجح بترديده بعض المقلدين لأعداء الإسلام ، وحسبنا أن نسمع رد المؤمنين الأولين على هذه المزاعم ، لنقف على مفهوم الرسالة الحق فى قلوبهم ..

هاهو ذا عبادة بن الصامت يدخل على المقوقس فى وفد من جيش عمرو

ابن العاص ، فيعرض المقوقس عليهم المال لقاء رجوعهم عن مملكته .. فبماذا يجيب عبادة على هذه الرشوة ؟ إنه يبتسم ضاحكاً من العقلية التى لا تعرف رباً غير المال ، ثم يقول له فى أناة وإيمان : « أبالدنيا تغرينا ؟ .. والله ما خرجنا من بيوتنا إلا ونحن ندعو الله ألاّ يعيدنا إليها وأن يكتب لنا الشهادة فى سبيل دعوته » ..

هكذا فهم المؤمنون الأولون شخصية محمد ورسالة محمد ، فهم إذا وقّروه فإنما يوقرون دعوته ، وإذ يندفعون لنشرها إنما يفعلون ذلك بدافع الإيمان الراسخ بأنهم ينشرون كلمة الله ، ويحملون رسالته ، لتحرير عباد الله من ظلم الطغاة وتعسف البغاة ، الذين اتخذوا عباد الله خولا وأموالهم دولا ..

وبعد فهذا ما أفهمه من ذكرى مولد الرسول ..إنه مولد الدعوة إلى الله من جديد ، إنه مولد الحرية التى قيدها الظالمون .. مولد النور الذى لا يزال ينتظره الحائرون .. ولعل أناساً يحتفلون بهذه الذكرى ، وهم حرب على معانيها ، ومعول لتحطيم مباديها ، وهم بذلك يهدمون أنفسهم وإنسانيتهم وما يشعرون ...

إن عالم اليوم كعالم الأمس ، لا يبرح فى قيود العبودية ، عبودية الشهوات ، وعبودية الطغاة ، وإن اختلفت مظاهر هذه العبودية بين الأمس واليوم .. وهو لذلك أحوج ما يكون إلى الاستضاءة بنور صاحب هذه الذكرى ، فلنحمل إليه من جديد تعاليم محمد ، ولنفهمه فى حكمة رسالة محمد .. وبذلك وحده نعطى هذه الذكرى التقدير الذى تستحقه .

ولعمر الله .. لقد آن للعرب اليوم ، وقد أخفقت تجاربهم النظرية جميعاً ، أن يعلموا أن ليس للعروبة الحقة من رسالة سوى رسالة محمد ، وأنهم حملة هذا المشعل إلى العالم كله ، ألقاه الله فى أيديهم ليكونوا أولياءه على الأرض ، وشهداءه على الناس : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ .

ولئن اقتصر اليوم الاحتفال بمولد الرسول العربى على بعض الإنسانية دون بعض ، لقد يأتى يوم تعرف فيه البشرية كلها حقيقة محمد ، فتجمع على الاحتفال بذكراه كمنقذ للناس جميعاً .. ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها .. ويومئذ يفرح المؤمنون ..

الأسوة الحسنة
وكيف نحققها

كان مما واجهه رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة احتفال الناس هناك يومين فى العام فسأل عنهما فأجيب « أنهم كانوا يلعبون فيهما فى الجاهلية » ، فقال ﷺ:«قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر »[1].

وعنه ﷺ أنه قال : «إن يوم الجمعة يوم عيد وذكر[2] ، وكان ذلك كافياً لإلغاء كل عيد غير هذه الثلاثة التى حددها نبى الله ﷺ ، وبات واضحاً أن كل محاولة لاستحداث عيد آخر ، أو اطلاق اسم العيد على أي مناسبة سواها ، مخالفة صريحة لحكم الشريعة .. فمن أين جاء عيد المولد وعيد رأس السنة .. وعشرات المناسبات التى يسميها الناس وبعض الحكومات أعياداً ؟! .

ولكى نقدم الجواب الصحيح على سؤالنا هذا يجدر بنا أن نلقى نظرة واعية على أعياد الأمم السابقة للبعثة النبوية والتالية لها .. وسنرى أننا عاثرون هناك على الجذور البعيدة لكل ماأحدثه الناس من الأعياد التى لا تكاد تحصى .

١ – ففى تاريخ المجتمع اليونانى أعياد بعدد آلهتهم ، التى اخترعتها أساطيرهم لظواهر الطبيعة ، فجعلت لكل ظاهرة كونية آلهة أو إلهاً .. ولكل واحد من هؤلاء عيده وزمنه واحتفالاته المميزة عن سواها .

وفى حياة الهند الوثنية حتى اليوم أعياد لجموع آلهتها التى تكاد تعجز الحاسب ، ولها احتفالاتها ومواكبها التى يقرها حتى مثقفوهم على أنها من تراث الهند ، الذى يحفظ لها شخصيتها القومية على مدار الزمن ولو هبط بالعقول إلى أدنى الدركات .

وفى سورية – الطبيعية – بقايا آثار عجيبة الألوان من هذه الاحتفالات الوثنية ، تتمثل فى قلعة بعلبك وعشرات الطلول ، التى يحاول الجاهليون الجدد

---

(١) أبو داود والنسائى والترمذى وإسناده على شرط مسلم .
(٢) عن أبى هريرة وإسناده حسن .

إحياءها باسم (الفولوكلور) الشعبى ، الذى لا غرض له فى المفهوم البعيد سوى إضعاف سلطان الإسلام على نفوس الجماهير !..

ولم يكن شأن الجاهلية العربية فى أكناف الجزيرة شاذاً عن هذا الطريق ، وإن كان اهتمامها بآلهتها أقل حجماً ، إذ كانت وثنيتها ضرباً من التقليد السطحى لا يمس ضمير الناس كثيراً ، فلم يكن لها مثل الفلسفة والأساطير التى نسجها خيال اليونان والهنود والمصريين والفينيقيين حول آلهتهم .. ولأن ظروفهم القلقة لم توفر الجواء الصالحة للتوسع فى مثل هذه الاحتفالات .

ولما انكشف الضغط الرومانى عن المسيحية ، وأخذت طريقها إلى العلانية بعد السرية الطويلة ، لم يستطع شعوبها التخلص من آثار وثنيتهم الأولى ، ومال المسئولون عن دعوتها إلى التساهل مع هؤلاء ، فأقروهم على الكثير من تقاليدهم الموروثة ، ثم لم يمض إلا قليل من الزمن حتى تبنت مسيحية بولس الجديدة بعض أعياد الرومان نفسها ، كعيد الفصح الذى يرمز عند الرومان إلى انبثاق الحياة ،وعند اليهود إلى تذكار خروجهم من مصر ، واتخذه النصارى عيداً لفطرهم إذا خرجوا من صومهم وأكلوا اللحم – كذا فى اللسان – وهو عندهم – فى المنجد – عيد تذكار قيامة المسيح من الموت ، وحتى عيد الميلاد لم يوقت بيوم ولادة المسيح ، بل أخذ من أعياد الرومان أيضاً .

وهكذا حلت أعياد القديسين لدى النصارى مكان أعياد الآلهة الرومانية ، حتى لم يبق قديس مشهور بغير عيد ، ثم أفرد لمجموعهم عيد عام أطلق عليه اسم (عيد جميع القديسين) .. حتى إذا وافت العهود الحديثة اتسعت دائرة الأعياد فى العالم المسيحى ، بحيث تجاوزت حدود المناسبات الدينية إلى نطاق الذكريات الخاصة ، فبات مألوفاً ، بل من الأمور الحتمية أن يحتفل كل فرد بعيد ميلاده ، وعيد ميلاد شفيعه من القديسين أيضاً ، وكما يتعاون المجتمع المسيحى على إبراز عيد ميلاد المسيح فى إطار من روائع المظاهر ، هكذا يعنى الفرد المحتفى بميلاد نفسه ، فيحيط تلك المناسبة بأزهى ما يستطيع من الظواهر .

فإذا أطللنا على التاريخ الفرعونى نرى أساطير الأمم الجاهلية كلها تجتمع تحت أسماء محلية ، منها السار الفرح ، والمحزن الترح ، ولعل من أشهر أعياد تلك العهود عيد (أوزريس) الذى يزعمون أنه قدم نفسه قرباناً لتخليص

الخطاة ، على الطريقة التى عرفت لدى الهنود والصينيين من قبل ، واحتلت مركزها الأخير فى عقيدة الفداء لدى النصارى[1] ، ولقد ظلت مصر تحتفل بعيد النيل إلى أيام الفتح الإسلامى ، ثم عادت إلى إحيائه بعد قرون فى ظل الدولة العبيدية ...

وقد كان لهذه الدولة الشيعية أثرها الكبير فى اختراع الأعياد ، ومن ثم فى إذاعة بعضها فى العالم الإسلامى .. فعيد لرأس السنة وآخر ليوم غدير خم[2] ومثله لذكر عاشوراء ، ثم يأتى مولد النبى ﷺ وعلى والحسن والحسين وفاطمة و ... حتى ذكرى خروج يوسف من السجن لم يغفلوها من قائمة مستحدثاتهم ، فجعلوا لها عيداً ، ترفع فيه الزينات ، وتسير المواكب وتعرض فيه التمثيليات الشعبية التى تجبى لها الأموال من التجار تحت سمع الدولة وبصرها وتشجيعها[3] .

ولا جرم أن الذى حمل الفاطميين على استحداث هذه المواسم أمران : أما أحدهما فهو رغبة القوم فى تغيير ملامح المجتمع الذى ما انفك يحمل طوابع الأصول الإسلامية المتحدرة من الصدر الأول ، كما هو الشأن فى كل حركة ثورية تستهدف فرض خصائصها على البيئة التى تتحكم بها .

وأما الحافز الثانى فهو إلهاء الجماهير الخفيفة بالعراضات التى ترافق تلك الاحتفالات ، وبخاصة فى النطاق الرسمى ، حيث كان المكلفون بإعدادها يفتنون فى أن يوفروا لها كل وسائل الإغراء والجاذبية ، فينظمون مواكب الخلافة ومسيرتها ، وطرق استقبالاتها ، ويفرغون على كل ذلك من مظاهر الأبهة والفخامة والترف ما يشعر بالقوة ويوحى بالمهابة ، ويشغل العامة بألوان الملاهى التى تشبع فضولهم ، وتروى أهواءهم ، فتصرفهم عن التفكير بما يراد بهم وبدينهم !.. .

وما أحسب باحثاً فى تاريخ هذه المواسم الفاطمية بمستبعد أثر اليهودية والمجوسية فى التخطيط لها والتركيز عليها ، تحقيقاً لذلك الغرض المنشود ،

---

(١) العقائد الوثنية وأثرها ... لمحمد التنير .

(٢) أول المحتفلين بهذه البدعة هم البويهيون عهد معز الدولة سنة ٣٥٢ وذلك قبل عشر سنوات من ظهورها فى مصر (ظهر الإسلام) ص ١٩٤ .

(٣) (الدولة الفاطمية فى مصر) ص ١٧٢ .

ولا سيما حين يتذكر ما وراء الواجهة العبيدية من التعاليم السرية ، التى نسجت فى ظلمات المؤامرات اليهودية ، ثم فى دهاليز المجوسية الفارسية ، سواء فى جذورها التى وضعت فى السلمية – من سورية – ثم امتدت إلى المغرب فمصر فديار الشام ، أو فى فروعها الأخرى التى رسخت فيها بعد بأيدى اليهودى الأصل (يعقوب بن كلس) وزير العزيز بن المعز ، ثم بأيدى حمزة الزوزنى ،وحسين بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى الذين وفدوا من فارس على الحاكم بأمر الله فأعلنوا الوهيته لأول مرة فى جامع عمرو ، ثم انتقل بعضهم بهذه النحلة المجوسية اليهودية إلى بعض جبال الشام[1] حيث لا تزال قواعدها قائمة حتى الساعة !..

ولا خلاف بين المؤرخين فى كون الفاطميين هم السابقين إلى إحداث عيد المولد النبوى منذ القرن الرابع[2] ومن هناك انتشر تقليد الاحتفال به إلى سائر بقاع المسلمين ، حتى اتخذ فى بعض الدول العربية والإسلامية يوم عطلة رسمية .

وفى علمى أن أول دولة أقرتها حديثاً لبنان ، وكان الباعث لذلك هو التنافس الطائفى ، إذ كان النصارى يحتكرون لأعيادهم معظم العطلات الرسمية وليس للمسلمين سوى اثنين الفطر والأضحى ، ثم رأى المسلمون أن ينافسوا مواطنيهم فى الاحتفالات بذكر المولد النبوى مقابل حفاوة هؤلاء بميلاد المسيح ، فإذا جاء موعده ملؤا الشوارع والأحياء بأنواع الزين وخرجوا فى تظاهرات شعبية لا تخلو من الأغراض السياسية .. ثم ما زالوا حتى ألحقوا تلك المناسبة بالأعياد الرسمية ، وما لبث ذلك التقليد أن سرى إلى الحكومات المجاورة وما وراءها من بلاد المسلمين ...

٢ – والاحتفال بذكرى المولد النبوى لا يزال حتى اليوم موضع أخذ ورد بين المقرين والمتهيبين ، ولكل منهما حجته فى موقفه ، فهؤلاء يرون التزام سبل السلف باجتناب كل حدث لم يقره الصدر الأول ، وأولئك يتذرعون بحاجة المسلمين إلى المنبهات التى تصلهم بحياة نبيهم ﷺ بين الحين والحين ، ليظلوا

---

(١) (الوفيات) ٤٩١/٢ .

(٢) (الدولة الفاطمية ...) ٩٦ و ٩٧ .

على ذكر منها ، دون أن يتقيد ذلك بموعد ثابت وإن كانوا يخصون يوم ولادته بالأكثر والأفخم من مظاهر التكريم .

وإلى هنا والخلاف بين الفريقين ضيق المسافة ، إذ هما متفقان على وجوب التذكير ضمن هذا النطاق ، فما دام رسول الله هو أسوة المؤمنين كان لزاماً عليهم أن لا يقطعوا صلتهم بذكره وسيرته ، ليحققوا ما يمكنهم تحقيقه من معانى هذه الأسوة .. ولكن الاختلاف بينهما إنما ينصب على الوسيلة التى تعتمد لتنفيذ ذلك التذكير ، فبينما يرى الملتزمون لسبيل السلف ، أن الوسيلة المشروعة شرط أساسى فى الوصول إلى الغاية المشروعة ، نرى الآخرين لا يعبئون بمشروعية الوسيلة ، بل يرتضون ، أو يسكتون بالأقل عن كل ظاهرة لا يقرها الشرع ، ولا تنسجم مع روحه ، مما يرافق فى العادة هذه الاحتفالات .. التى تتحكم فيها نزوات العامة والدجالين ، ولا يتاح فيها لمصلح سليم الطوية نظيف الوسيلة أن يتعرض لها بكلمة نقد أو إصلاح !...

صحيح أن الاحتفال بهذه الذكرى ليس سواء فى بلاد المسلمين ، إذ يقتصر فى بعضها على قراءة القصة وإلقاء بعض الخطب النافعة – أحياناً – ثم توزيع الحلوى ، وإقامة الزينات وتعطيل الدوائر .. ولكن منكراته تتجاوز كل تصور فى مواطن أخرى ، حتى لتشكل وصمة عار فى حياة المجتمع الإسلامى وتضع فى يد أعداء الإسلام أمضى سلاح لتشويه وجه المشرق الجميل ، إذ أصبحت الموالد هناك مراتع الفسوق والفجور وأسواقاً تباح فيها الأعراض ، وتنتهك محارم الله تعالى ولا غرابة ، لأن الشأن فى كل بدعة أن تبدأ خطواتها فى وقار الحكماء متظاهرة بكل ما يستهوى ذوى العواطف الساذجة من الخير والاستزادة منه ، حتى إذا اطمأنت إلى الأنصار واستحكم سلطانها فى الصغار والكبار ، خلعت عذارها المستعار ، واندفعت إلى الفساد على رؤوس الأشهاد ، حتى لا يجرؤ على معارضتها ذو رشاد !....

أجل .. إن الاتصال بسيرة رسول الله ﷺ ومعرفة نشأته ، ودعوته وجهاده وأثره فى صحابته ، أحد الأسس التربوية التى لا مندوحة من التشبع

بها والاقتباس من أشعتها لتصحيح المسيرة الإسلامية ، ولتكوين الجيل الصالح لاستئناف دعوته فى المجتمع الإسلامي الحائر ، وفى العالم البشرى الضائع،ولكن الطريق إلى هذا النور لن يكون أبداً فى السير وراء القطيع الضرير من العامة وأشباههم من الطرقيين والمرتزقة .. بل فى إحياء سننه الصحيحة ، ونشر المطوى المجهول من أخلاقه العظيمة ، وتيسير السبل المؤدية إلى تفهم رسالته المحيية بكل الوسائل الممكنة والمشروعة ، ومن أجل ذلك لا مندوحة عن تنظيفِ الوسط الإسلامى من تلك الشنائع التى لا تزال تقترف على مشهد من كبار علماء الإسلام ، ورجال دولـهـم ، باسم الدين ، والحفاوة بميلاد سيد المرسلين .. ولكن هذا الرجاء سيظل حلماً بعيد التحقيق ، ما دام المسئولون من حكام المسلـمين، الذين يشهدونها بأعينهم ، لا يحركون ساكناً فى مكافحتها ، بل ربما استراحوا إلى انشغال الجماهير العمياء بها عن الحقائق التى ضلوا سبيلها ، ولا سيما إذا كان فى استمرارها ما يتوهمونه مصلحة لخزينة الدولة ، ولترويج أسواق المرتزقة فى مواسمها المعتادة !.. وهو المسلك نفسه الذى ورثه هؤلاء عن عهود الاستعمار الذى كان من دأبه تشجيع أمثال هذه الضلالات ، بجانب مطاردته لأهل الحق من كبار الدعاة والهداة .

٣ – لما بعدت الشقة بين عهد النبوة والتابعين فى العصر الأموى ، وزالت النماذج الحية التى كانت تمثل آثار التربية المحمدية فى شخصيات الصحابة رضوان الله عليهم ، وجد المسئولون عن قيادة الأمة لزاماً عليهم أن يعوضوا أجيال المسلمين عن المثل المنظور بالخبر المسموع ، فأقاموا لهم القُصاص ورواة السيرة ، والحافظين لأخبار المغازى النبوية يغذونها بتلك المعانى المحركة للهمم ، والمثيرة لروح الفداء والتضحية ، وكان ذلك أول تنظيم لما يسمونه اليوم بـ (التوجية المعنوى) فى أوساط العسكريين ، وكان له أثره العميق فى تماسك البنيان الإسلامى على الأساس الأول زمناً غير يسير ، حتى ضعف هذا الاتجاه ، وخلف الجيل الذى عرف عن الثقافة الدخيلة أكثر مما علم من شريعته الجليلة .. فإذا الدعائم تهتز ثم تهوى ، لتحل مكانها نزوات الساسة وشهوات القادة ، ومن هنا جاءت الطامةالكبرى، إذ زلزل الكيان الإسلامى ، ثم لم يلبث أن انقض بأجمعه .

ولقد كان المعقول بإزاء هذا التدهور العام أن تنهض البقية من أولى العزم

بعبء الإصلاح على أساس رد القطيع الضائع إلى جادة الإسلام ، والطريق إلى ذلك هو إيقاظ ما همد من روح الإيمان وإبراز ما اندرس من معالم الوحى ، إذ لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .. ولا ننسى أن بعض ذلك قد حدث على أيدى المصلحين ومن تبعهم فى طريقهم السليم .. ولكن المؤسف أن أزمة السواد الأعظم من العامة ظلت فى أيدى الجاهلين والمضللين من أصحاب الأهواء ، الذين زادوا الواقع السىء سوءاً بما وسعوا من ساحة المحدثات على حساب الحقائق .. ثم نبتت من بعدهم خلوف على شاكلتهم لا عمل لهم إلا ترسيخ قواعد الانحراف بما يتولونه من مبتدعات ، يحسبونها خيراً وهى فى منظار الإسلام شر عظيم .

وهكذا وجدنا أنفسنا فيما بعد تلقاء ركام من تلك المواريث المعوقة ، تنهض كجدران السد بين جماهير المسلمين والإسلام الصحيح الذى لا خلاص إلا به .. وليست تلك الاحتفالات الشائهة ، التى تستقبل بها ذكرى المولد النبوى ، والتى يحتشد لها ملايين المسلمين فى بعض أقطارهم ، إلا إحدى تلك المآسى التى يعانيها الإسلام فى ظل هذه الانحرافات .

لقد شوهت هذه (الموالد) فى عقول الجماهير المضللة شخصية صاحب الرسالة ﷺ إذ حجبت عنهم حقيقتها القيادية ، وأثبتت مكانها صورة غريبة لا تمت إلى واقعها العظيم بأية صلة ، وقد زاد المحنة عمقاً تلك الحكايات المختلقة التى يقرؤها بعضهم فى مجالس العامة باسم قصة المولد ، فلا تحمل من سيرته ﷺ إلا طيوفاً غائمة لا تزيد عن كونها تعميقاً لمزاعم خبيثة ، توهم أولئك المساكين بانفصال تلك الشخصية المطهرة عن كل صفات البشر .. ولن أنسى يوماً حضرت فيه تلاوة إحدى هذه القصص فى مسجد سورى ، وكان يقرؤها للناس معمم له بعض المؤلفات فى الحديث ، ومع ذلك لا يستطيع التخلص من مفتريات الدجالين ، فيصرف الوقت كله فى سرد نعوت لرسول الله ﷺ لا يقبلها حتى عقله .. ثم لم يكد يعرض لشىء من أخلاقه ولا جهاده ولا رسالته .. ويتخلل ذلك أناشيد تافهة لا تعدو ذلك النطاق الذى يجعله ﷺ مخلوقاً عجيباً لا يتكون من لحم ودم ، بل من الجواهر والمعادن ، حتى لتحدد نسب كل من هذه العناصر فى تركيب جسده الشريف !!

ولا جرم أن الذين يقرؤون هذه المفتريات من أولى العلم لا يفوتهم

الإحاطة بمصادرها الوثنية ، التى تصور لعامة أتباعها معبوداتهم فى أشكال خارجة عن المألوف .. وفى تكوينات مزدوجة تمتزج فيها الخصائص البشرية 'لمميزات الإلهية على نحو لا يقيم للعقول أى وزن أو اعتبار !.. وهذا ما يسوغ للمفكر المؤمن القطع بأن وراء هذه الأضاليل أيادِىَ شيطانية ، قصدت إلى إفساد التصور الإسلامى فى صدور الكافة عن سابق تصميم وثيق الإحكام ، دقيق التخطيط .

٤ – ونقف هنا قليلا لنتساءل « أليس بالإمكان تعديل بعض هذه الفوضى ، التى تنتظم احتفالات جماهير المسلمين بهذه المناسبة العزيزة ، بحيث تتحول إلى مجهود اجتماعى ذى مردود صالح !..

إن المواسم الروحية فى مثل أمتنا وبإزاء ما تعانية من اضطراب عام ، يجب أن تكون مراكز حساب على ما أسلفنا وما أعددنا ، وانطلاق إلى ما قررنا من هدف نوجه طاقاتنا لتحقيقه فى زحام الأحداث .. وإذا نحن لم نحسن استغلال هذه المواسم لتلك الغاية المزدوجة لم نخرج عن كوننا مجموعة ضخمة من الأطفال الكبار ، كل همها العثور على أية مناسبة للهو والعبث واللغو اللمفرغ من كل مضمون ! ..

ومن فضل الله على هذه الأمة أنها لم تخل قط ، حتى فى أيام انحدارها خلال التاريخ ، من مفكرين جديين ارتفعوا على واقع الغوغاء ، فاتخذوا من مثل هذه المناسبات مواطن يراقبون منها مسيرة أمتهم ، ويدرسون تجاربها ، على ضوء المهمة التى ألقاها القدر على عاتقها ، فينبهون الغافلين ، ويوجهون المخطئين ، ويحذرون الزائغين ، ويضعون فى أيدى الجميع المخطط السليم ، الذى من شأنه أن يصحح مسيرتهم فى الطريق القويم .

وذلك هو المسلك الأمثل الذى لا ينبغى لذى لب وعلم أن يغفله أو يحيد عنه فى كل مناسبة إسلامية ، سواء منها ما كان حقاً بنفسه ، محدداً فى كتاب الله أو سنة نبيه ، كالجمع والعيدين والصوم والحج .. أو ما كان مضافاً إلى الحق ، من عمل المتزيدين الذين ضاقت عقولهم عن إدراك الحكمة فى تحديد الالتزامات الشرعيــة فراحوا يخترعون ما يحسبونه زيادة فى الخير ، واجتهاداً فى القربات !..

ولا ريب أن ذكرى المولد النبوى واحدة من هذه المناسبات التى يمكن الانتفاع بها فى إثارة العزائم وتصحيح الأفهام ، والاتصال بأعماق المشاعر الفطرية فى قلوب الخاصة والعامة من هذه الأمة ...

على أن الوصول إلى هذا الغرض متوقف إلى حد كبير على التزام الوسائل المشروعة فلا نحابى فى الحق ، ولا نراعى فى ذلك مشاعر العامة ، رغبة فى الانتفاع بما تهيئه تلك المحدثات من فرص للتخفيف من فرقة المسلمين ، كما قال لى أحد (كبار المشايخ) وهو يحاورنى فى موضوع بعض البدع ، إذ راح يؤكد لى أنه مقر لإنكارى ، ولكنه يؤثر بقاء المنكر إيثاراً لما يجره من المعروف !.. وقد نسى أصلحه الله ألا معروف فى منكر ، وأن من لا يصلحه الحق لا يجديه كل ما فى الأرض من الباطل .

إن التساهل فى إمرار المحدثات – فى الدين – والسكوت عليها قد أذاب الذاتية الإسلامية لدى السواد الأعظم من المسلمين ، فتهدمت بذلك تحصيناتهم الروحية حتى أصبحوا مرتعاً صالحاً لأى طارىء من التقاليد الداخلية ، وها نحن أولاء نعيش من هذا الانهيار فى بلاء لا نكاد نعرف منه مخرجاً ،فالهيبيـة والخنفسة والوجودية ، إلى جانب الطرقية الزائغة والأفكار الهدامة ، والتقاليع الجائحة .. تفتح كياننا المفتوح لكل غاز .. وقد أعان دعاة هذه المفاسد ما يحسونه من الانفصام الرهيب بين جماهير المسلمين ومنابع دينهم الحق ، حتى بات سوادهم فى معزل شبه تام عن كتاب الله وسنة نبيه ، واستقراء أحكامها فى غير تدبر وتفاعل ، لأنهم استناموا إلى محض التقليد ،وبات معظمهم لا يعدو نطاق القائلين ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ .. وحتى الطبقـة التى تمتاز ببعض الوعى من هؤلاء المسلمين لم يعد لديها من المناعة الخلقية ما يعصمها من الخوض فى وحول التبعية لكل ما يستهويها ببهارجه .. فهي تتقمص راضية أخلاق غير المسلمين ، وتتلبس عاداتهم ..وبدافع من هذا الذوبان الشخصى تحتفل بذكريات ميلادها على الطريقة نفسها التى يسلكونها ، فترى أحدهم يستقبل مهنئيه ، ويوقد الشموع بعدد سنيه ، أو سنى من يحتفل بميلاده من بنيه ، وقد يكون هذا الإنسان قائداً مرموقاً ، يخوض بأمته معركتها الفاصلة ، فلايشغله حرج الموقف فى بلاده عن التفرغ للاحتفال بعيد ميلاده !.. بل ان بعضهم

لينصبون فى بيوتهم شجرة عيد الميلاد ، محاكاة لأولئك .. ولا ينسون حتى البابا نويل وكل ما لا يخطـر بالبال من مبتدعات الخيال ، ومغويات الأطفال ، دون أن يسألوا أنفسهم عن حكم الإسلام فى هذا التقليد الذى يلحقهم وأبناءهم بغير المسلمين ، لأن القاعدة الشرعية أن (من تشبه بقوم فهو منهم) .. ولكنها الببغاوية التى يصورها رسول الله ﷺ إذ يقول فى أمثال هؤلاء :« لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم » ولا عجب ، فإنما يسير هؤلاء القردة على آثار من سبقهم من الغافلين ، الذين ضلوا سبيل الأسوة المحمدية ، فراحوا يتبعون طرائق أهل الكتاب فى الاحتفال بموالد أوليائهم ، ومحاكاة لهم فى الاحتفال بموالد قديسيهم !.. وتقليداً لمن تقدمهم من أمم الوثنية فى المهرجانات التى يقيمونها لموالد آلهتهم .

وها نحن أولاء نشهد سباقاً فى ميدان التقليد لا نعرف له حدوداً يقف عندها ، فعيد للعمال - أول أيار - وعيد للأم ، وآخر للطفل ، ومثله للثورة ، والأسرة ، والشجرة و ... ولو نحن رحنا نستقصى ما كان ويكون من هذه الفنون ، لعجزت عن تصورها الظنون .. ومع ذلك لا تعدم هذه المبتدعات مؤيدين لها باسم الدين أيضاً على أنها مواسم مشروعة للإصلاح أو اللهو المباح !.. وقد نسوا أن الأعياد أعمال شرعية ليس لغير الله ورسوله تعيينها أو إحداثهـا ، وفاتهـم كذلك أن لو كان فى هذا الابتداع من خير ما سكت عنه نبى الله ، الذى حذر أمته أشد الحذر من موافقة غير المسلمين فى أعيادهم ومهارجهم ، صوناً للشخصية الإسلامية من الذوبان فى غيرها ، وبالتالى لو كان فى اتخاذ الأعياد من ذكريات النصر والمجد صلاح لما فات الصحابة وخير القرون الحفاوة بأيام بدر والخندق وخيبر ونهاوند فى تاريخ الإسلام..ولكن..قد يغفل اللبيب،حتى يقع من الهفوات فى العجيب الغريب!..

٥ - وأخيراً رب لاغ بعد هذا يقول : « إن هذا الرجل يريد أن يصرفنا عن الحفاوة بمقدم رسول الله ﷺ وهى مناسبة ، على ما يحف بها وما يعتريها ، خير من إلغائها !..

ولهذا وأمثاله نقول : « إن العناية بذكرى رسول الله ﷺ وسيرته الطاهرة فرض عين على كل مسلم مستطيع ، لأنها الوسيلة إلى دراسة حياته ، التى هى مجال التطبيق الأسمى ، وبدونها لن تتم الأسوة الحسنة ، ولن يعرف المسلم طريقه الحق .. وهى على هذا الأساس عمل مشروع ، عنى به الصحابة والتابعون ، وعنهم وصلنا وفى سلوك منهجهم استمرار لسبيل الخير ، وتثبيت للتراث الإسلامى فى ضمائر الأجيال ، بيد أن الذى نريده، وندعو إليه هو أن نسلك إلى هذه الغاية الكريمة سبيل أولئك الكرام ، الذين لم يعينوا لهذه الذكرى موعداً خاصاً ، بل اعتبروها من أبواب العلم المطلوب فى كل زمان .. ولمجلس علم يدرس فيه شيء من صحيح السيرة النبوية فى تدبر وتفاعل أرجح فى ميزان الخير من ألف موكب وألف سماط ، وألف حلقة ذكر من ذلك الضرب الذى لا يقرب المحتفلين من حقائق الإسلام قيد أنملة ، ولا يزودهم من معانيه العليا بأية عبرة .

ولهذا نهيب بأولى الأمر فى كل بلد إسلامى ممن تهمهم مصالح شعوبهم أن يصادروا كل قصة للمولد كتبها الدجالون أو الجاهلون ، وأن يطهروا مجتمعاتهم الإسلامية من تلك الشنائع التى لا يرضى عنها إلا العابثون والمستغلون ...

ولكن هذه الإهابة ستظل بغير مردود حتى يتحرك لها أولو البصائر من أهل العلم المؤتمنون على دين الله الغُيُر على أمتهم أن يضللها الماكرون من أعداء الله .

ولسوف يسألون عما كانوا يعملون .

* * *

الزحف الأحمر على قواعد الإسلام

من خلال أحداث الأفغان

فى يدى الساعة الجزء الأخير من (النشرة) التي يصدرها (معهد شئون الأقليات المسلمة) فى جامعة الملك عبد العزيز بجدة .. وأحس فى قلبى ، وأنا أنظر إليها ، كأن هاتفاً مجهولا يتساءل : إلى متى يستمر وجود هذه الأقليات مستمسكة بنسبها الإسلامى ؟

ويتجاوب الصدى من وراء هذا الهاتف بذلك التساؤل الآخر : هذه الأعداد الهائلة التى تقدر بمئات الملايين من المسلمين ، وتنتشر فى مختلف البقاع من قارات الأرض ، حيث تشكل الكثرة الكاثرة من السكان ، إلى متى ستستمر محتفظة بمقوماتها الإسلامية ، قبل أن تصبح فى عداد الأقليات ؟..

وتتداعى الصور .. وفيها شعوب من المسلمين كانت فبانت ، وشعوب تتدافع فى الطريق إلى الهاوية التى تفغر فاها بانتظارها ..

وترن فى مسمعى قولة صاحب عُمان لوكالة الأنباء البريطانية قبل أيام : (إذا استمر الزحف الشيوعى فى طريقه المشهود فالنتيجة هى القضاء على الإسلام ، واستيلاء جنود الكفر على منابع النفط) .

وما أحسب إنساناً ذا بقية من العقل وقدرة على الإبصار يجاهل شيئاً من هذه الوقائع أو عاجزاً عن تصور الأحداث المتوقعة من ورائها .

لقد قضت حكمة الله أن تتنزل رسالته الخاتمة على خاتم رسله فى البقعة التى احتلت مركز الكرة الأرضية ، ثم تنتشر انتشار النور فتمتد فى كل اتجاه من حولها ، وبذلك كانت (أم القرى) مع (طيبة) المباركة موضع القلب من جسم العالم الإسلامى ، به تتفاعل ، ومنه تستمد ، وعلى نشاطه وحيويته وسلامته تتركز مسيرته قوة وضعفاً ، ومداً وجزراً ، وقد أدرك ذلك أعداء الحق ، فجعلوا فى تصميمهم تعطيل هذا المحرك الروحى بكل ما أوتوا من

قوة وحيلة ، وهكذا اندفع سيل الكفر فى دفق لم يتوقف منذ أبرهة حتى برجنيف وكارتر وبيجن ، ولكل جانب من هذا السيل طريقته لمعالجة ما يستهدفه من تدمير الحواجز التى تحول دون غايته الجهنمية .

لقد جربت الصليبية طريق القوة ، فتولى أحد طواغيتها (البرنس أرباط) تنفيذ مخططها بتسيير جيش ضخم من الكَرَك باتجاه المدينة لاحتلالها ، ولكن الله رد كيده إلى نحره بجيش صلاح الدين ، الذى أدركه على مشارف تيماء فأفسد خطته ، ودمر قوته ...

واحتجبت الأسرار إلى حين ، حتى أسفرت أخيراً على يد « روزفلت » الذى بلغت به الصفاقة إلى أن يســـاوم الملك عبد العزيز بن سعود - عقب الحرب العالمية الثانية - على عودة اليهود إلى مواطن أسلافهم فى تيماء وخيبر والمدينة مقابل بعض الملايين ، بعد أن طهرها الله من أرجاسهم على يد الراشدين ، فكان الرد السعودى يومئذ كافياً لصرف أميركة ، وربيئة الصليبية وحليفة اليهودية ، عن المساومة إلى المواجهة ، فلم تلبث أن زرعت إسرائيل فى أرض الإسراء ، ثم راحت تمدها بكل ما يمكنها من الطغيان والعدوان ، حتى جعلت منها معسكر الغرب لغزو العالم الإسلامى .

وفى أعقاب الكارثة التى مرغ بها الثوريون وجوه المسلمين فى مستنقعات الهزيمة عام ١٩٦٧م أطلقت اليهودية الحاقدة -عند حائط المبكى فى القدس الجريح - شعاراتها المشحونة بضروب الشتائم الموجهة لرسول الإسلام ، وبرجوم الهتافات الصارخة بالثأر لقريظة والنضير وقينقاع .

وسرعان ما تكشفت الستور فانتشرت بطاقات الأعياد تحمل من الأرض المحتلة خريطة إسرائيل المنشودة ، وفيها مخطط المدينة المنورة على أنها بعض ممتلكاتها !..

ويأبى الوحش الشيوعى أن يُحْرَمَ حظه من الفريسة ، فإذا هو يسابق أميركة على الاعتراف بدولة اللقطاء فى الساعة الأولى من عمرها المشئوم ، ثم يمضى فى المنافسة على التمكين لها فى قلوب الذين زعموا خصومتها من قاعدة المواجهة ، وحتى فى صفوف مقاتليها من أصحاب الدرة المغتصبة أنفسهم .. حتى إذا قيدهم بعجلته عن طريق التلويح بالتسليح ، ثم عن طريق التهديد

بقطعه ، وهم أحوج ما يكونون إليه ، مد سلطانه على أوطانهم ، فاتخذ منها مرتكزاً لغاراته على إخوانهم من شعوب الإسلام ، فمن مطارات القاهرة وعدن انطلقت قلاعه الطائرة تحمل إلى الهند العتاد الذى مزق شمل باكستان ، وفتح فى حصونها الثغرات إلى ألوان الشقاق والهوان .

وها هو ذا الآن ، وقد اطمأن إلى انصياع عملائه لأقصى أهوائه ، يعمد إلى تطويق الإسلام فى عقر داره ، فيحيطه بمستخدميه من أبناء المسلمين ، الذين باعوا أنفسهم وأوطانهم للشيطان ، فمن الجنوب عصائب الماركسيين تسوق المضللين من شباب عدن وحضرموت إلى قتال أبناء العمومة فى الأرض الصومالية المسلمة ، تحت قيادة السفاح الصليبى منجستو ، والمقاتل الدولى كاسترو ، وبتوجيه المركز العالمى للالحاد فى الكرملين .

ويستكمل الطريق الجنوبى الشرقى امتداده ليشمل ، مع الجنوب اليمنى ، امبراطورية هيلا سيلاسى وجمهورية سياد برى ، الذى على الرغم من كل الضربات الشيوعية على رأسه ، لم يزل صنيعتها الوفى ، وعلى أتم الاستعداد لاستئناف المسيرة لتحقيق مخططها الجهنمى فى عملية استئصال الإسلام .

وقبل أن يسترد المسلمون أنفاسهم من أهوال الضربة الشيوعية الأميركية فى الأوغادين ، يستيقظون اليوم على دوى القذائف وأزيز الطوائر الروسية تزلزل أرجاء الأفغان ، وتجعل من شوارع عاصمتها كابول مقبرة لآلاف الضحايا ، ممن يرفضون تسلط عملاء الإلحاد على بلادهم التى ما برحت تفدى إسلامها بسيول الدماء على مر التاريخ .

ولن يكون سقوط الأفغان بين فكى الشيوعية هذه المرة حَدَثاً محلياً ، يهدد بفصلها عن جسم الإسلام ، كما حدث فى ألبانية والقرم والأندلس من قبل ، وعشرات المواطن قديماً وحديثاً .. بل إنه فوق ذلك نذير بكارثة جارفة تهدد باجتياح البقية الباقية من حصون الإسلام وثرواته ، التى تتحلب لها شفاه الطواغيت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .. إنها الحلقة الأولى فى سلسلة الزلازل التى لا تنتهى بغير القضاء على الإسلام ، وفقدان ثرواته البترولية كلها ، إذا لم يتداركنا الله بواحدة من خوارقه التى تقلب ميزان القوى ، وتحول مسيرة التاريخ من حيث لا نحتسب .

إن أرض الأفغان تكاد تكون امتداداً طبيعياً لما يجاورها من أقطار المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ، وعلى هذا فليس ثمة إلا انتظار الفرصة المناسبة ليعلن عملاء برجينيف فى كابول اندماجهم فى (الوطن الأم) روسية ، التى اتسع جوفها لعشرات البقاع والشعوب الإسلامية منذ قيام الثورة البلشفية .

وهذا ما يستدعى التفكير السريع فى مصير إيران وباكستان بوجه خاص ..

أما إيران فهى تخوض بحرانا هائلا من الصراع بين النفوذين العالميين ، وقد أثبتت الأحداث شبه اليومية أن التنظيم اليسارى الثورى فيها لا يقل عن مستوى أشباهه فى إيطالية وألمانية الغربية واليابان ، وكل عدة السلطات الرسمية لمواجهة هذه الثورة الرهيبة ، هو المزيد من الاعتماد على أميركة ، والاستغراق فى دعم صنيعتها إسرائيل ، ولو على حساب المصلحة الإسلامية .. ومن هنا تأتى كل تحركاتها فى منطقة الخليج وفق الإيحاء الأميركى ، حتى احتلال الجزر الثلاث ، وحتى مشاركتها فى الدفاع عن ظفار بوجه الثورة الماركسية ، لم يخرج عن نطاق هذا الإيحاء .. وقد رأينا الناطق الإيرانى يعلن — عقب زيارة سياد برى لطهران — أن إيران لن تقف مكتوفة الأيدى إذا تحركت القوى الكوبية والروسية باتجاه الصومال ، ولكنها لم تلبث أن تحركت وراحت تكتسح الأرض الإسلامية بما فيها وما عليها ، دون أن تحرك إيران ساكناً أو تقدم للصومال أى مساعدة ولو بالكلام ، وطبيعى أن موقفها هذا لم يكن سوى انعكاس عميق لموقف أميركة بإزاء المشكلة ، وهو الموقف الذى برز واضحاً فى تأييد أميركة للزحف الشيوعى من أجل تدمير كل طاقة تحاول تحرير الصومال المسلم من براثن الصليبية الباغية ، ولم تكتف بالإعلان عن ذلك بالقول ، بل أرسلت مبعوثها الخاص لاسترضاء منجستو ، وتزويده بما يعوز ذلك الزحف من آليات ومساعدات ، فضلا عن مشاركتها الفعلية فى قتال الصومال عن طريق صنيعتها إسرائيل التى لم تخف تبجحها بمعاونة منجستو بالسلاح والخبراء .

والحق أن إيران لم تفعل يومئذ أكثر مما فعلت الحكومات العربية فى مأساة الصومال الذى هو عضو فى جامعتها الدولية ، إذ اتخذ بعضها من قضيته فرصة للمساومة والتهديد ، فمصر مثلا صرحت بأنها سترسل قوات لمساعدة الصومال ، وقوات أخرى لمساعدة ما لوم الصليبى على قتال مسلمى تشاد ،

وطبعاً لم ترد مصر بذلك وهذا سوى الكيد للقذافى ، الذى اتخذ الموقف المضاد فى كلا الإقليمين ، فأعان ثوار تشاد لتحقيق ما يريده من كسب فى أراضيها ، وأيد الزحف الشيوعى على مسلمى الصومال نزولا على إرادة الحليف الأحمر فى موسكو ، كشأن حكام عدن الماركسيين ، الذين شاركوا الكوبيين قتال المسلمين فى البر والجو تنفيذاً لأوامر الرفاق التى لا ترد .

ثم كان كل حظ الصومال المظلوم من عطف بعض الإخوة فى جامعة الدول العربية طائفة من التصريحات المبحوحة ، وحفنات محدودة من المال الذى لم يستطع أن ينقذ قرية واحدة من دبابات منجستو التى أتت على كل شىء فى عملية الإبادة المرسومة .

ومن خلال هذا المنظور يتضح لكل ذى وعى أن الوثبة الشيوعية التالية ستكون على حساب إيران - بعد أفغانستان - ويومئذ يستكمل المخطط الروسى عناصر الحصار المقرر ، إذ يصبح كل شىء على أهبة العمل لاطباق الفكين الرهيبين على قلب العالم الإسلامى ، لأن طبيعة العلاقة بين الاتحاد السوفيتى والعراق وسورية[1] كفيلة بتأمين جناحها الغربى من أى ارتباك ، ثم أن من التقديرات البديهية ألا نتوقع من أميركة أى اعتراض ذى بال على هذه الوقائع ، وكل ما يمكن تصوره هو بعض اللغو الدبلوماسى يرسله طواغيت أميركة للتحذير من عواقب اللعبة ، ولتطمين الذين يحسنون الظن بها من العرب إلى أنها لا تزال تدخر فيضاً من الكلام الفارغ .

بعد هذا التقيم الذى تقدمه الأحداث لمختلف التوقعات المتعلقة بإيران وما وراء إيران ، نستطيع القول بأن دور الشيوعية الروسية بالنسبة إلى باكستان فى هذه المرحلة هو مواجهتها بالانقلاب الأفغانى قبل أن تتمكن من السير بعيداً فى تطبيق التشريع الإسلامى ، الذى كان متوقعاً أن تمتد تجربته العملية إلى مناطق عدة من العالم الإسلامى ، وفى طليعتها جارتها - الأفغان - التى لم تتخل قط عن التزام هذا التشريع منذ أطل عليها فجر الإسلام .

ويبقى على المسلمين أن يراقبوا إلى أى مدى سيؤثر (تشييع) الأفغان فى تصميم حكام باكستان على خطتهم ، التى أخذوا بها أنفسهم ، وأعلنوا بشرياتها

(١) هكذا كان الوضع يوم كتب هذا المقال .

للشعوب الإسلامية التى تتلهف لرؤية باكستان ، وقد عادت إلى الغاية التى وجدت من أجلها .

ونعود لنذكر القارئ بالواقع الذى لا يحسن أن يجهله معنًى بشئون السياسة الدولية ، وهو أن أميركة فى موقفها الفاتر من الزحف الأحمر على معاقل الإسلام ، وفى هذه البقعة الغنية بالمقدسات والثروات ، لا تناقض نفسها ولا مصالحها البتة ، فهى بصفتها وريثة الحقد الصليبى لا تجد أخطر من الإسلام على أهدافها فى السيطرة العالمية ، لأنه النظام الوحيد الذى يملك المقومات الصالحة لإبطال التخطيط الاحتكارى الذى تمارسه اليهودية العالمية من خلال التسلط الأميركى .. وليس النظام الشيوعى بنظر السياسة الأميركية - على اختلاف مجالاته التطبيقية - سوى عبث أشقياء يحاولون تدمير المجتمع البشرى بإلغاء خصائصه الفطرية ، واطلاق غرائزه الوحشية .. وهو من أجل ذلك صائر لا محالة إلى تدمير نفسه بنفسه ، فضلا عن ثقة أميركة بأنها تملك القدرة الكافية على تحطيمه حين تقرر ذلك ، سواء عن طريق الحرب العلمية ، أو عن طريق حرمانه من الأمداد الغذائية .

ومن هنا كان تخاذل أميركة عن الوفاء بالتزاماتها لباكستان أثناء تصادمها مع الهند الذى أدى إلى تحويل شطرها الشرقى إلى دولة بنغلاديش ، واحالتها بالتالى ساحة للصراع اللاهب بين مختلف الجماعات ، ومن هنا جاء جمودها بإزاء الزحف الصليبى الشيوعى على الصومال ، فأمسكت عنه كل مدد موعود حتى انتهى إلى المصير المقصود .

ولا مسوغ لهذا وذاك سوى الكيد للإسلام الذى تعتبره الصليبية المتهودة عدوها الأول ، ولعل كثيرين قرؤوا ذات يوم ما كتبته جريدة (النيويورك تايمس) بالمنشيت البارز العريض تحذر الدولتين الجبارتين بمثل هذا التعبير المثير : (الخطر الإسلامى يستأنف الزحف وأنتم مشغولون بالحرب الباردة) .

ونتساءل : هل يعقل أن يصل الخطر على الإسلام إلى هذا الحد من الهول وكأن الأمر لا يعنى المسلمين ــ الذين هم هدف الضربة الأولى - بشىء ؟!..

كل ما فى حياة هؤلاء يؤكد أنهم أبعد البشر عن إدراك الواقع .. فهم لا يبرحون فى أبراجهم الخيالية ، مشغولين بالمتاع الزائل عن الخطر الماثل ،

أشبه بالشاة المكبة على علفها والجزار يشحذ لها السكين ...

ولعل المفكر فى حال القوم لا يُتهم بالغلو حين يقرر أنهم يتجاوزون نطاق الغفلة إلى مجال التعاون مع عدوهم على تحقيق مخططاته وهم لا يعلمون ولا يشعرون ! .

إنها والله لكلمة حق ، تلك التى أعلنها صاحب عُمان حول الزحف الأحمر على هذه المنطقة ، ما كان ينبغى أن تؤخر إلى اليوم ، وإنما دفعه إليها معايشته لطلائع الكارثة التى لم يباشر جحيمها بعدُ أولئك الساكتون الحائرون .

لقد وصلت المؤامرة إلى قمة الوضوح ، ولم يبق من عذر لمرتاب بأن الإسلام هو الهدف الأول ، وأقل ما يوجبه الوعى والحزم فى مثل هذا الموقف هو أن تقوم خطة المجابهة على أساس الإسلام نفسه ، لأن كل إهمال لجانبه فى هذه المعركة إضعاف لطاقة الدفاع ، وإعطاء العدو فرصة للنيل من إمكاناته الفعالة .

ولسنا بصدد التفصيل للجزئيات فى ما يجب عمله للاستفادة من قدرة الإسلام فى هذه المعركة الحاسمة .. ولكن لا مندوحة من التذكير أن فى مقدمة ذلك تزويد الجيل المسلم بالوعى الدقيق لحقائق دينه ، وإغلاق المنافذ بوجه السموم الوافدة عليه من مصانع الكفر ، التى توشك أن تقضى على البقية الباقية من مقوماته الدفاعية ..

إن المنطق الأساسى لهذا التوجيه الجديد يجب أن يستمد من قوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ... ﴾ فلا مكان إذن للميوعة ، ولا مجال للضرب وراء الفنون الهابطة ، ولا منفذ لمفسد هدام إلى وسائل الإعلام .. وفى هذا الجو ستتحول المدارس ، التى هى اليوم ، إلا ما رحم الله ، مجرد أندية لتقطيع الوقت ، ومعابر للحصول على الوظائف والمرتبات ، مخابر لتدريب المواهب ، ومعسكرات لتنظيم الطاقات ، وحقولا لبذور القوة ، واستنبات الرجولة ، وتغذيتها بالقيم العليا .

ولن يكون ذلك ممكناً إلا فى ظل نظام إسلامى يُحكّم فيه شرع الله وحده ، فلا ينازعه على المجتمع منازع من دستور دخيل ، أو قانون مستورد قد فُصِل لغير المؤمنين .

إن حاجتنا إلى السلاح هى التى مكنت للشرق والغرب من رقابنا وثرواتنا وسياساتنا ، ولو توافر لقيادتنا من وضوح الرؤية ما يكفى لاستشفاف النتائج البعيدة لم يدعوا أمر التسليح لمزاج تجار يساومونهم به على قضايا المصير ، حتى يبلغوا بهم حد التراجع عن كل مقرراتهم التى التزموا بها لشعوبهم على مشهد ومسمع من الدنيا ، فكان حصاد ذلك ما يعانونه من ضياع لا يعرفون منه مخرجاً ، وما كان لذلك الضياع من مكان لو تذكروا أنهم يملكون القوة التى تمكنهم من استخدام أرقى المواهب البشرية لإقامة المصانع التى تغنيهم عن التسكع على أبواب الأقوياء من الذين يتربصون بهم الدوائر ، فلا يبيعونهم القذيفة إلا بعد تجريدهم من الكرامة .

على أن المشكلة لم تعد موقوفة على موضوع السلاح ، بل هى بالدرجة الأولى مشكلة التخلف العام الذى يجعل اقتصاد المسلمين مقيداً بعجلة أعدائهم حتى فى اللقمة اليومية ، بحيث لو أغلقت بوجوههم سبل الاستيراد من أسواقهم لوجدوا أنفسهم فجأة فى مخالب المجاعة والحرمان .. ومع ذلك فهم لا ينفكون من مؤتمر إلى مؤتمر ، ومن ندوة دولية إلى أخرى ، دون محصول سوى أكداس المقررات التى لا تعدو نطاق الأمنيات ، بل الألْهيات!.. ويحدث هذا كله فى حين يمضى مليونا اليهود بإسرائيل فى طريق البناء الصامت ، حتى لتستحيل بقعتهم الفقيرة المحدودة مركزاً للتصدير العالمى ، يبدأ بالحمضيات ولا يقف عند حدود الطائرات والدبابات .

وأخيراً : هل كتب على المفكر المسلم أن يستهلك عمره فى تعداد الرزايا النازلة بأمته ، دون أن يجد من يصغى إليه سوى المساكين الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لأمتهم ضراً ولا نفعاً .

ولكن .. لا بأس .. فإنها الأمانة تؤدى حقها لله .. ومن أجلها نهيب بالغافلين التائهين صائحين :

أيها الناس .. أيها القادة .. أيها العلماء .. لقد بلغ السيل الزبى ، وأحاط الكفر بقواعد الإسلام .. فتحركوا للدفاع عن أنفسكم على الأقل .. وتداركوا بقية الطاقة فى شعوبكم ، قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون .

ألا .. هل بلغت ؟ .. اللهم فاشهد .

إيـران العزيـزة .. إلى أيـن ؟!

قبل تسعة أشهر نشرت لى بعض الصحف خطاباً مفتوحاً إلى العلامة آية الله شريعتمدارى عرضت فيه لتصريحه المشكور حول أوضاع الأقليات الإسلامية ، ودعوته حكومات المسلمين إلى مقاطعة الطواغيت من الحكام الذين يضطهدون الشعوب الإسلامية .. وكان لروسية الشيوعية عدوة الإسلام والأديان نصيب موفور فى ذلك التصريح ، إذ ندد باستعمارها لديار الإسلام وحملاتها الشرسة المستعمرة على دين الله وأهاب بها لترفع كابوسها عن صدور أولئك الإخوة الذين لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله .

وفى ذلك الخطاب ذكّرت سماحتَه بجانب ثنائى القلبى على موقفه النبيل بالاتفاق الذى كان قد تم آنئذ بين حكومة الثورة الإيرانية وطاغية الفلبين ماركوس ، على أن تزوده إيران المسلمة بعشرين فى المائة من حاجة الفلبين إلى البترول .. وبتعبير آخر على أن تزود جيشُ ذلك الطاغية بالطاقة التى تمكن آلياته وطائراته ومدافعه من تقتيل الشباب المؤمن ، الذى يلجأ إلى غابات الفلبين للدفاع عن حريته ودين بلاده السلبية .

ولقد شاء الله أن يوفق زعماء الثورة الإسلامية فى إيران الشقيقة إلى إلغاء ذلك الاتفاق فى ما بعدُ معلّلين إلغاءه بأنه انتصار لأخوة الإسلام التى تربط الشعب الإيرانى بمسلمى الفلبين .

وإنى لانتهز الفرصة لأزجى أعمق الشكر والتقدير لذلك القرار سواء جاء استجابة لخطابى أو جرياً مع المبادىء التى أعلن الإمام الخمينى التزام الثورة بها منذ اللحظات الأولى .

وتتالت الأحداث التى اجتذبت قلوب الملايين من مسلمىء العالم لتأييد تلك الوثبة التى بهرت الدنيا ، بما أنعشت الآمال بانتصار أهل الحق مهما بلغ بهم الضعف المادى – على أهل الباطل ولو ملكوا كل وسائل الفتك والتدمير .

لقد كان فى تقويض المستضعفين لبنيان الطغاة ، المحمِى بأمريكا وإسرائيل

والحلف الأطلسى كله .. ما يكفى لإلهاب مشاعر الفرح فى الشعوب الإسلامية التى بلغ بها البلاء أشده فى جحيم هؤلاء الطواغيت ، فكيف وقد استتبعت تلك الوثبة الباهرة عدداً من الإصلاحات التى طالما تخيلها المؤمنون ، وتطلعوا إلى أطيافها من خلال الآلام والأحلام .

فالعملاق الذى كان حتى أمس القريب ينوء تحت أثقال الصهيونية الضاربة قد تمطّى فجأة فقذف بذلك الطفيلى بعيداً بعيداً ، ولم يكتف بذلك حتى أحل مكانه ممثلى فلسطين العزيزة الطريدة .. وأعلن فى الوقت نفسه تحول إيران من بلد تابع يدور فى فلك الأعداء إلى حصن الإسلام ، ويشارك فى مسئولية المجابهة لأولئك الذين طالما ائتمروا به وتآمروا عليه .

ثم جاءت المبشرات تترى .. فالحدود الشرعية تقام علناً على القتلة والفجرة والسرَقة ، ولغة القرآن تسترد مكانتها ، التى كان الحكم البهائى الشاهنشاهى يدأب على خلخلتها تمهيداً لإزالتها وحروفها نهائياً من الجامعات والمعاهد والألسنة ، أسوة بطاغية تركية الدونمي ، وبجناية هولندة الصليبية على الرسم القرآنى فى أندونيسية المظلومة .

حتى الخليج ، الذى أرادته العصبيات العرقية وسيلة لتشاحن الأشقاء ، لم تلبث الأصوات الإسلامية الجديدة فى إيران أن راحت تنادى بأسلمته فلا هو بالعربى ، ولا هو بالفارسى – كما يريد دعاة الفرقة من الفريقين – بل هو الخليج الإسلامى .. الإسلامى فحسب ، وحتى الجزر الثلاث التى احتلتها العصبية الفارسية بالتواطؤ مع انكلترة سمعنا من أولئك الرواد الإسلاميين من يعلن عزم بلاده على إعادتها لأصحابها .

ولا أحدثك عن تأييد الثورة لكل تحرك إسلامى فى العالم يستهدف استرداد الحقوق المغصوبة والكرامة المسلوبة .. وتنديدها الجرىء بأعداء الإسلام ، شيوعين وصليبيين وامبرياليين وصهيونيين ، وأصناف المفسدين فى الأرض .

ولا ننسى تلك الصيحة المدوية التى أعلن بها إمام إيران تخليص الثقافة الإسلامية من سموم الغرب ، وإنقاذ البرامج التعليمية من توافه اللغو واللهو ، اللذين حلاّ المكان الأول ، بل المكان المقدس فى حياة الطلاب ، لا فى إيران

وجدها بل فى معظم ديار المسلمين ، ولقد سبق هذا كله ذلك الانفتاح الرائع الذى بدأ به قائد الثورة معركته الإسلامية أثناء وجوده فى باريس ، بل منذ أعلن حركة الجهاد فى وجه الطغيان الشاهنشاهى ، وذلك بالخروج من التَقِيَّة التقليدية إلى الصراحة البطولية ، حيث حدد منطلقاته وأهدافه بأنها الإسلام أولا وأخيراً ، فلا مساومة ولا مهادنة ، بل الكفاح المتصل حتى يقضى الله بأمره ، فيسقط العرش الداريوسى ، الذى يريد العودة بإيران إلى جاهلية زرادشت ومانى وإباحية مزدك ، بعد سلخها من حقيقتها الإسلامية التى غالبت عليها القرون .

وبهذه الصراحة الفائقة استجاب الشعب المؤمن لنداء إيمانه ، ومضى يقدم الشهداء موكباً إثر موكب ، حتى حقق الله ما أراد من الظفر المؤزر ، الذى حطم قلاع الاستبداد ، وزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين الغافلين عن قوانين الله .

ولعل إحياء الثورة لسنة الجمعة ، التى طال هجر مسلمى الشيعة لها ، عملا بالاجتهاد القائل بتجميد الجماعة الجامعة حتى يعود الإمام .. لعل هذه البادرة كانت واحدة من أبرز معالم الانفتاح الجديد ، الذى يبشر بالتقارب العملى بين طوائف أهل الإيمان ، فلا يقل أهمية عن الانتصارات الكبرى التى تحققت للثورة حتى الآن .

ولعمر الله لو ظلت الأمور فى طريقها المألوف ضمن حدود التقية وانتظار عودة قائم الزمان ، لما وردت الثورة فى خاطر ، فضلاً عن التغير الكبير الذى وفقت إليه .

وأى حاج إلى بيت الله العتيق ، وأى زائر لمدينة رسول الله ﷺ خلال الموسم الأخير ، لم يلمس تلك الظاهرة السارة فى سلوك إخوانه الإيرانيين أثناء الصلوات ، حيث جعلوا يندمجون معهم فى الصفوف بمنتهى الخشوع والهدوء ، وقد ضاعف سرورهم ذاك ما علموه من أن هؤلاء الإخوة إنما ينفذون وصية الإمام الخمينى ، الذى أكد عليهم أن يحافظوا على وحدة المظهر مع بقية المسلمين ، فلا يرفعوا أصواتهم فى الحرمين المباركين أثناء الصلاة ، ولا يتخلفوا عن أدائها خلف إمام الجماعة ، وعليهم أن يسحبوا من الاستعمال تلك القطع الفخارية ، التى اعتادوا السجود عليها ، فكانت لهم مَعْلَماً يفصلهم عن سائر أهل القبلة ..

● وأنا إذ أعرض لهذه المكاسب الإسلامية التى تمت فى إيران الشقيقة حتى الآن لا أقصد إلى الحصر ، فهى أكثر من أن تحصر ، ولكنها نماذج من الحسنات التى شدت قلوب مئات الملايين من مسلمى العالم إليها ، فباتوا يدعون لحماتها بمزيد من التوفيقات ، ومزيد من الانتصارات ، ثقة منهم بأن كل خير تحرزه إنما هو مكسب للإسلام ، ولبنة فى بناء المستقبل السعيد لسائر شعوب الإسلام .

● أجل .. ذلك هو بعض ملامح الوجه المشرق فى مسيرة الثورة الإسلامية الإيرانية ، ولكن الصورة لن تكون كاملة حتى نستطلع الوجه الآخر من الصحيفة .. فماذا نرى هناك ؟ .

مجموعة عجيبة من التناقضات المتلاحقة لا تكاد تنفد أو تتوقف ، فأول هذه المفارقات ذلك الصوت الأخير ، الذى بدأ عملية النسخ فى نطاق التصريحات الإسلامية المبكرة ، إذ انطلق يرد على الصوت الهاتف بأسلمة الخليج ، فيزعم أن الخليج فارسى أزلاً وأبداً ، فلا مجال لتغيير لافتته على الدهر ! .

وطبيعى أن الخليج لم تتغير خارطته ولا مكانه تحت أى الأسماء ، ولكن العنصرية العمياء أبت إلا أن تقذف بسهمها فى وجه الاتجاه الإسلامى لتقطع الطريق على أصحابه .

ومثل ذلك حدث بشأن الجزر الثلاث إذ سرعان ما انطلق ذلك (الصوت الآخر) يرد على دعوة الخير بالتأكيد على أن الجزر فارسية لحماً ودماً وهواء .. وغرق الجو فى غمرات الصمت .

ثم جاءت الأصوات الناشزة تعلن فارسية البحرين وتنذر باحتلالها ، وأدرك المسئولون فى إيران خطر ذلك التهويش ولمسوا آثاره فى ما حولهم ، وهنا فقط ارتفع صوت العقل يفند هذه الدعوى البغيضة ، ليؤكد على لسان سفير إيران فى الكويت أن ذلك الزاعم لا يمثل شيئاً وبالتالى لا يزن كلامه هباءة !!

وتتبع المسلمون فى لهفة أنباء الدستور الإسلامى المنتظر ، وفى أحلام الملايين من مفكريهم أنه سيكون هو الأنموذج المرموق للدستور الصالح لكل

بلد إسلامى ، وبخاصة بعد الذى اشتهر من العلاقة الوثقى بين المغفور له أبى الأعلى المودودى والإمام الخمينى وبعض الجماعات الإسلامية ، وكلهم ذو تجربة موفقة فى موضوع الصياغة الدستورية على ضوء الكتاب والسنة وتقريرات الأئمة .

وأطل الدستور المرتقب فإذا هو دستور طائفة لا أمة ، وقانون بلد محدود لا يستوعب الحاجة التى يتفاعل بها العالم الإسلامى .

لا شك أن فى ذلك الدستور بوادر رائعة ، ولكن الذين أقروا صياغته نسوا أن الجعفرية ليست هى الإسلام كله - على أحسن الفروض - والأصل فى القانون الأساسى لدولة إسلامية أن يقرر هويتها الدينية ، وأن يؤكد على اعتبار شريعة الإسلام هى المصدر الوحيد لسائر تنظيماتها وأحكامها ، بيد أن مؤلفى دستور إيران غفلوا عن هذه الحقيقة الكبرى ، وأقاموا أصوله على أساس النظرية الشيعية بما فيها من انتظار للإمام الغائب !.. وكان الصواب المقبول فى كل العقول أن يقيدوا أصوله بالإسلام ثم يؤكدوا حق كل طائفة بالتحاكم إلى مذهبها فى أحوالها الخاصة .

ثم يأتى موضوع الأقليات القومية ، وهى من أبرز معالم التركيبة الإيرانية ، ويعلم مصنفو الدستور شدة تشبث أصحابها بمقوماتهم الذاتية ، التى لا يصح إغفالها ، فقد كان من الحكمة أن ينص فى الدستور على احترام هذا الواقع وإعطائهم فرصة تنمية وجودهم فى نطاق الوحدة الشاملة للكيان الإيرانى ، ولو هم فعلوا ذلك لتفادوا هذه النكسات التى تتفجر اليوم فى كل جانب فتهز الكيان الجديد كله ، وتهز صورة إيران فى أنحاء العالم .

وننتقل إلى ورطة إيران الصغيرة الكبيرة التى باتت اليوم مشغلة الدنيا بأسرها..هذا الاحتلال الذى أقدم عليه بعض الطلاب للسفارة الأميركية فى طهران منذ سبعين يوماً .. هل أُخِذَ به رأى الإسلام وهو الذى ينبغى أن يكون الحكم الأوحد فى إيران الثورة ؟!

ذات يوم وفد على رسول الله ﷺ رجلان بكتاب من مسيلمة الكذاب ، فسألهما الرسول عن معتقدهما فأعلنا أنهما يقولان بما يقول الكذاب ، فقال ﷺ لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وعلى هذا السَّنَن درج خلفاء الإسلام ومضت سنة المسلمين ، فلم نسمع أن رسولا أو سفيراً تعرض لأذى فى دار الإسلام ، ولم يرو قط أن سفارة أجنبية اقتحمها مسلمون واحتجزوا موظفيها وهددوا بمحاكمتهم .

نحن لا ننكر حق إيران باستعادة طاغيتها المخلوع ، واسترداد ما سرقه من أموالها ، بل نؤيده ونعتبره حقاً يجب على المحافل الدولية أن تعيده إلى حكومة بلده ، أو تقوم هى بمحاكمته ليكون عبرة لكل باغ فى العالم .

إلا أننا ننكر على إيران أن يحدث فيها مثل هذا الانحراف عن حكم الإسلام فى معاملة أجانب لهم حقوق الضيوف على أهل البلاد ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فمن المسئول عن هذه اللعبة المشوهة لسمعة الإسلام ؟

وهؤلاء الطلاب .. أحقاً هم من السائرين على منهج الإمام الخمينى – كما تصفهم إذاعة طهران يومياً – أم هم خارجون عليه وعلى منهجه ؟! .

أما أنا – وكثيرون مثلى – فلا نستطيع التصديق بأن قائداً كبيراً واسع العلم على مستوى الإمام الخمينى يمكن أن يرضى بمثل هذا التصرف الأحمق .. والأقرب للمنطق أن يكون هؤلاء الفتيان من أعداء الثورة الإسلامية ، أقحموا اسم الإمام فوضعوه تلقاء واقع يتعذر عليه تجاوزه ، فهو من ناحية يخشى مجابهتهم بما يكرهون ، فيقدمون على قتل أسراهم ، ومن ناحية أخرى لا يرى من مصلحة البلد أن يعلن خروجهم عليه فيكون ذلك مدعاة لإضعاف الثقة بالنظام .

ومما يرجح هذا التصور ذلك التناقض القائم بين هؤلاء الفتية وبين حكومة الإمام ، فبينما نسمع تصريحات المسئولين فى هذه الحكومة بقرب الإفراج إذا بنا نفاجأ بنفى هؤلاء ورفضهم لكل تسوية .

وقد صور فالدهايم هذا الواقع أدق تصوير حين أعلن أن إيران اليوم كالحمام الذى ضاعت طاسه ، فلا تعرف الحاكم فيه من المحكوم ، ولم ينس أن يعبر عن فرحته الكبرى بعودته سالماً من ذلك الجو المحموم .

ولقد كان من بديهيات السياسة لثورة حملت راية الإسلام وسجلت

خوارق الانتصارات ودفعت ثمن ذلك عشرات الآلاف من الشهداء والمشوهين ، أن تنقل خطاها على حذر بالغ سواء فى الداخل أو الخارج ، ولن نتحدث عن البلابل الداخلية ، فذلك ما تغنى عن تفصيله إذاعة طهران نفسها ، وثم وكالات العالم التى استغنت عن تضخيم الأحداث بتصوير الواقع كما هو على الطبيعة ، ونكتفى بالقليل عن تحركها الخارجى ، بل ونقتصر من هذا الجانب على موقفها من جيرانها وذوى قرابتها .

لقد ضاق صدر المسئولين فى إيران أن يسمعوا بعض ما لا يسرهم من بعض الأقطار العربية ، وبدلاً من أن يقابلوا ذلك الشطط بالتوجيه الربانى : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينَه عداوة كأنه ولىّ حميم** ﴾ (فصلت : ٣٤) عمدوا إلى أقصى التطرفات فراحوا يهددون بتصدير الثورة إلى تلك الربوع ، وأقحموا أنفسهم فى أتّون الخلافات المحلية ، كما فعلوا فى نقمتهم من المغرب ، إذ وقفوا بجانب أحد الفريقين ، مؤيدين بالحق وبالباطل ، وكموقفهم من الخلاف بين العراق والشام ، إذ ألقوا بثقلهم مع أحد الفريقين دون مسوغ سوى مجرد النكاية ! ..

ولو أنهم استجابوا لنداء الإسلام بشأن هذه الخصومات الجانبية لكان لهم موقف المصلح ، الذى يقرب بين الأخوين فيعمل على إطفاء النار بدلاً من مضاعفة وقيدها ، ولو هم قد فعلوا لاستحقوا تقدير الجميع وحبهم ، ولحققوا بذلك لثورتهم نصراً جديداً مجيداً .

وأخيراً لا آخراً .. هل سمعت أيها القارىء بمؤتمر حركات التحرير (العالمية) التى تحتل مكانها اليوم ضيفاً كريماً فى فندق القدس بطهران ؟!!.

لقد نسيت إيران العزيزة أعباءها المرهقة كلها ، من حصار عسكرى اقتصادى وانفجارات ثورية لا تكاد تخمد ، وطوت كشحاً عن حملات الإرهاب التى ذهبت حتى اليوم بعدد من خيرة قادتها بأيدى مَنْ لا يتورعون عن إحراق إيران كلها إذا وجدوا الفرصة المواتية .

أجل .. لقد نسى قادة إيران الثورة كلّ هذه المتواليات الهدامة ، وانصرفوا إلى معالجة فتوق الآخرين ، بل افتعال المناسبات لإثارة الغبار فى وجوه إخوتهم الأقربين ، فراحوا يشحنون الفضاء تنديداً بهم وتحريضاً عليهم ، كأنهم

سامحهم الله وهداهم – قد فرغوا من مشكلاتهم الخاصة ، فلم يبق عليهم إلا أن يعكروا على هؤلاء الإخوة نعمة الأمن ، ليستجروهم إلى مثل البلبلة التى يعانونها فى محنتهم الكبيرة ! .

على أن من غرائب التناقضات فى هذه المناسبات أن يرفع الطلاب الداعون إلى ذلك المؤتمر لافتة التضامن مع المعتدين على حرمات البيت العتيق المطهر .. وقد نسى أصحاب اللافتة أنهم بمزاعمهم الوهمية إنما يكذبون حكومتهم التى كانت فى مقدمة المستنكرين لتلك الجريمة ، ويؤكدون فى الوقت نفسه أنهم يطبقون بهذا السلوك المعوج المبدأ الماركسى القائل : (اكذب واكذب واكذب حتى تجد من يصدقك) والحق يقال إن هؤلاء قد تجاوزوا حتى طرائق الماركسيين بما تبنوه من أضاليل السامعين فى أنحاء العالم .

وإنى لأكتب هذه الأسطر وفى سمعى أثر من صراخ ذلك المهرج ، الذى قدمته إذاعة طهران مساء الجمعة ١٤٠٠/٢/٢٣هـ ليقول : إن زحفاً ضم عشرة آلاف من سكان جدة قد خرجوا فى مظاهرة ضد الحكم السعودى ! .

وطبيعى أن الذى جرأ هذا المهذار على قذف أكذوبته هذه يقينه أن أحداً لن يرد عليه .. بيد أن المؤسف حقاً هو أن إفساح المجال لمثل هذا الدجل فى إذاعة ، طالما سمعنا منها الكلام الطيب ، قد شوه سمعتها إلى حد بعيد جداً .

فلحساب من ليت شعرى تحاك هذه الدسائس ؟!

وهل يتفق هذا مع أخوة الإسلام التى يستظلون بشعاراتها !! .

● لعل ثلاث سنوات أو أكثر قد مررن حتى الآن على كتابة هذه الصفحات ونشرها فى بعض الصحف ، ولما أخذت فى إعداد هذه الخواطر للنشر فى كتاب مستقل وجدت فيها قصوراً عن استيعاب الأحداث ، التى تلت المآخذ التى سجلتها على رجال الثورة وطلابها .

فنحن الآن تلقاء حرب فاجعة بين العراق وإيران دخلت عامها الثالث[1] وقد تركت فى قلوب المسلمين ندوباً لا تكف عن النزيف .. وفى كل صباح ومساء تفاجئهم بنبأ عشرات ومئات وأحياناً آلاف الضحايا ، يسقطون صرعى من الجانبين ، والغانم فى كل هذه النكبات هم تجار السلاح من ملاحدة الشيوعية وطواغيت الصهيونية والصليبية .. وسماسرتهم .

(١) وشاء الله ألا ينشر هذا الكتاب إلا بعد أن ضربت هذه الحرب فى عامها الثامن .

ولا أريد الخوض فى حديث هذه الحرب التى كانت ولا تزال منذ يومها الأول مُبَهجةً للشيطان مسخطة للرحمن ، لم يرد بها إلا أن تكون كمسجد الضرار إرصاداً لمن حارب الله ورسوله .

ولكننى أرى الوقوف قليلا على واحد من أحداث ما بعد المقال هو – على صغره – كبير الدلالة على انحراف الثورة الإيرانية عن مسارها العقلانى .

إنه ذلك (الحج) الغوغائى الذى شهده الحرمان خلال العام الفائت والسابق .. حيث حاول أتباع الثورة المنحرفة الخروج فى تظاهرات تصرف الحجيج عن مشاغلهم الروحية بالهتاف بحياة فلان وبسقوط فلان وعلان ..

وأنت لا يسعك أن تتصور المخاطر التى كانت متوقعة الحدوثِ لو ترِك لهؤلاء الإخوة الغافلين أن ينطلقوا وراء الخطة التى يرمى إليها محركوهم وموجهوهم .

أجل والله إنها لفتنة خطيرة لو أهمِلت لآتت من العواقب الوخيمة ما لم يجر فى حسبان ، ولكان بعض هذه العواقب تخريب مقاصد الحج ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ، يخلون به إلى مناجاة ربهم ، ويتطهرون من ذنوبهم حتى يعود كل منهم كما ولدته أمه (١) .

ليت قادة هذا التخطيط أنعموا الفكر فى قول ربهم تبارك اسمه : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج** ... ﴾ وأى جدال أسوأ من أن تشهد الآلاف من هؤلاء يتجمعون على أنفسهم ليملئوا الفضاء صراخاً بسب هذا ومدح ذاك وتسفيه ذلك ، فيبلبلون على المستغرقين فى الضراعة إلى مولاهم نواياهم ، ويشتتون من خواطرهم ما تكلفوا أكبر المشاق ، وبذلوا نفائس الأموال فى سبيل تركيزه .. وقد نسوا – أذكرهم الله – أن من أوليات آداب الإسلام توقير هدوء العابد ، فلا تشوش عليه عبادته ، لئلا تنقطع صلته بالمعانى التى يجب أن يفرغ لها .

ولعمر الحق لقد أساء هؤلاء الإخوة إلى حقائق الإسلام ، بتصرفاتهم الشاذة هذه ، وقبل ذلك شوهوا وجهه الجميل بأعاصير الفوضى ، التى جللوا بها وطنهم المتعطش للنظام والاطمئنان ، فشحنوه بالفتك والتقاتل ،وأغرقوه

---

(١) وتأبى حماقة الغوغاء إلا بأن تحقق ما توقعناه من تخريبها لمعاني الحج بما اقترفته من الجرائم في مكة المكرمة أثناء الموسم الماضي ١٤٠٧ هـ .

بدماء عشرات الآلاف من ضحايا الفوضى فى الداخل وبإعلان الحرب على سائر دول العالم المتمرن فى الخارج ، بما أحدثوه من بدع العدوان على موظفين أجانب كفلت لهم شرائع السماء والأرض حق الحماية والأمن ، فأبوا إلا تجريدهم من كل أثر للحماية والأمن .. فأعطوا بذلك أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين والمتعصبين سلاحاً جديداً لإقناع المغفلين بأن نظام الحكم الإسلامى لا يختلف فى شىء عن هذه الفجائع التى تعانيها إيران فى ظل مشايخها الثوريين !...

ولعلى لا أبالغ إذا زعمت أن ما يقاسيه شباب الإسلام هذه الأيام فى ظل طواغيت الحكام من تعذيب وتقتيل وتشريد ، وقذف بأنواع التهم المنفّرة ، متأثر إلى حد بعيد بموحيات الثورة الإيرانية ، إذ أصبح هؤلاء المتسلطون على قناعة بأن الدعوة إلى تطبيق شريعة الله فى بلادهم إنما هى دعوة لذلك الضرب من التعصب ، الذى تعيشه اليوم شعوب إيران على اختلاف أوضاعها ومشاربها .

وهكذا انتهت أساليب الحكم التىأعقبت خلعَ الشاه أخيراً إلى أن تصبح خطراً على الإسلام نفسه ، فى حين أن أصحابها لا يفتئون ينسبون كل خطيئاتهم إلى نظام الإسلام !..

° ° °

وبعد فإنى والله لأكتب هذه الأسطر وفى قلبى لاذع الأسى على أولئك الإخوة الذين شرعوا يتخبطون فى مجاهل توشك أن تقصيهم عن المنطلق المشرق الذى بدؤوه أول مرة .

وإنه لمن حق إيران العزيزة على كل مسلم سبق أن هتف لها من كل قلبه ، وتضرع بالدعاء لقائدها بكل جوارحه ، أن يقف اليوم ليتساءل فى غصة محرقة : إلى أين يا إيران العزيزة..إلى أين ؟ .

أقال الله عثرتك ، وسدد خطاك إلى سواء السبيل ، وأسبغ عليك من نعمة الأمن والعافية والاستقرار مثل الذى ننعم به نحن فى هذه الديار .

إنه سبحانه خير مسئول وهو حسبنا ونعم الوكيل ...

حقوق الإنسان في الإسلام

بين مزاعم الحكام وشريعة القرآن

بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الإعلان الدولى لحقوق الإنسان تحدث الرئيس الأميركى عن موقف بلاده من هذه القضية مؤكداً أن (حقوق الإنسان) تؤلف جوهر السياسة الأميركية الخارجية ، وقد أعادت إذاعة (صوت أميركة) وغيرها هذه الفقرة من خطاب الرئيس أكثر من مرة فى أكثر من فترة إذاعية ، ومثل هذه الفقرة ينطلق بها رئيس أميركى من حقها أن تستوقف كل مفكر يعنى بأحداث العالم ، ويتابع مواقف الدول والشعوب ، ومجارى السياسة العالمية ، وإذا كان هذا شأن المفكر أياً كانت هويته ، فهو أكثر إثارة للمفكر المسلم . لما يرى من المفارقات العجيبة بين الكلام عن حقوق الإنسان وبين الواقع الذى يعانيه الإنسان من أصحاب هذا الكلام .

لقد مرت البشرية خلال التاريخ بالكثير من أحقاب الشقاء ، فقد الإنسان أثناءها قدرة الرؤية ، فراحت تتخبط فى ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ قضى عليها أن تمارس لعبة الموت ويسير بعضها على أشلاء بعض ، دون أن يكون لها فى ذلك أى مصلحة أو رأى ، ولكنها إرادة الطواغيت الذين استحوذوا على أزمتها ، فلم يدعوا لها فترة للتنفس ، بل مضوا يستاقونها بالسياط إلى خيث تبنى لهم جماجمها أقواس النصر منقوشة بأزاميل المعذّبين وتماثيل المجد الكاذب منحوتة بأضافر المستعبدين المذللين.

ويتخايل إلىّ وأنا فى غمار هذه الصورة الدامية من ماضى الإنسان ، أنها لا تزال هى التى تتحكم فى حياته ، وإن اختلفت ألقاب السفاحين الذين ينيخون على صدره فى كل مكان .

إن مجرد (إعلان حقوق الإنسان) فى العصر الحديث شاهد صارخ على أن هذه الحقوق لم تكن شيئاً مذكوراً عند طواغيته ، فهم يريدون استحداثها للتخفيف أو لإيهام التخفيف من أعباء الشقاء الذى تعانيه الإنسانية تحت

كوابيسهم .. وقد فاتهم أن حقوق الإنسان أكبر من أن تكون منحة يتصدق بها (الطغاة) بل هى قيمة أساسية خلقت معه منذ أن أخرجه الله من عالم العدم إلى نطاق الوجود ، ثم لم يهبطه إلى هذا الكوكب إلا بعد أن أسجد له ملائكته ، تكريماً لنوعه ، وتفضيلا له على سائر مخلوقاته الأرضية .. ولو استقام هذا الإنسان فى الطريق الذى خطّه له خالقه لما وجد إنسان نفسه فى حاجة إلى من يلوّح له بهذا الحق ، ولكن الشيطان الذى أعلن منذ ذلك اليوم ملاحقة الجنس البشرى بالإفساد والتضليل ، قد استطاع أن يضرب بين الإخوة فإذا هم بين ظالم ومظلوم ، وقاتل ومقتول .. وهكذا استحالت الحياة التى ينبغى أن تكون جنة من المودة والرحمة ، حلبة صراع لا يثبت فيها إلا المتفوق فى القوة والمكر وفنون التخريب ، ثم استحالت اللغة نفسها على ألسنة البغاة أداة للتزوير ، فهم بها يسمون الأشياء بأضدادها ، فالعبودية التى يفرضونها على الشعوب هى هى الحرية المفضّلة ، والتعاون بينهم على استنزاف طاقات محكوميهم هى هى الحقوق التى يجب أن يصفقوا لها ، ويقيموا الحفلات لذكراها .. ولو هم صدقوا العمل ، وآمنوا بخالق الإنسان الذى سواه وعدله وكرّمه ، لوسعهم أن يعيدوا إليه الكثير من حقيقته التى سلبها الطواغيت ، ومسختها المناهج المفسدة التى يسوسون بها الشعوب ، وإذن لاسترد هذا الإنسان إيمانه بخالقه ، ومن ثم إيمانه بنفسه وبرسالته التى هى تحقيق ملكوت الله فى الكون .. ليس فقط فى نطاق السيادة على عالم المادة بل على نطاق الحياة بأكملها ، بكل ما فى الحياة من حاجة إلى البر والعدالة والأخوَّة ، حتى يكون (المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام) .

● ولنعد إلى مناقشة الرئيس الأميركى فى زعمه الكبير بأن توكيد حقوق الإنسان هو جوهر السياسة الأميركية .. وحبذا لو أتيح لنا أن نصل إلى سمعه لنقول له : فى وسع كل رئيس أن يردد مثل هذا القول ، ولكنه قول سيظل يعوزه التجسيد حتى يحققه العمل ، وما دام عمله يباين ادعاءه ، فلن يجد من يصدقه ، بل ان سامعه سيزداد شكاً فى جدية هذا الضرب من التصريحات التى لا تغير من الواقع شيئاً .

لقد خاضت أميركتكم يا سيادة الرئيس عدداً من الحروب خلال هذا القرن ، وفى كل حرب كان هذا الزعم الكبير هو الشعار الذهبى الذى ترفعه

جيوشها ، حتى إذا انجلت الحرب لمصلحتها نسيت ما كانت تزعمه ، واكتفت بمحاولة توجيه المسيرة البشرية فى خدمتها وحدها ، ولو هلك العالم كله ، وهل أنا بحاجة إلى تذكيركم بهيروشيما وناجاساكى ، اللتين جعلتم منهما مخبراً فنياً لتجارب علمائكم فى مدى قدرتهم على التدمير .. فكانت حصيلة التجربة مئات ألوف الضحايا ممن لا ناقة له ولا جمل فى ميادين القتال .. ومع ذلك فلم تسمع البشرية كلمة تعزية من أى رئيس أميركى فى هذه الكارثة العالمية .. فليت شعرى .. أين كانت حقوق الإنسان من سياسة أميركة يومئذ ...؟ أم أنكم لا تعتبرون المخلوق إنساناً إن لم يكن أميركياً أو يهودياً ؟!..

ثم جاءت مجازر كمبودية وفايتنام ولاوس وأخواتها اللاتى أحلتم بهن الأرض بحاراً من الدماء .. ولما رأيتم مصلحة أميركة فى مغادرتها تركتم شعوبها للجزارين الحمر يصفوّنها على الطريقة الماركسية ، التى تعتبر الرحمة أبشع ألوان الضعف ، دون أن تعتذروا ولو بكلمة واحدة لهذه الملايين من القرابين .. فأين كانت مبادىء أميركة فى احترام حقوق الإنسان ؟ .. أم أن هؤلاء بنظر السياسة الأميركية من غير نوع الإنسان الذى يستحق الاحترام أو الإحسان ؟..

ويا سيادة الرئيس .. لعلكم لم تنسوا بعد جريمة أميركة التاريخية فى اقتلاع ملايين العرب من الأرض التى جبل ترابها من أشلاء آبائهم وأجدادهم . منذ عهود العرب الكنعانيين قبل آلاف السنين .. لتزرعوا مكانهم عصائب الشذاذ ، الذين ضاقت بمفاسدهم أكناف الأرض ، ثم ما زلتم بهذه العصائب تسميناً وتعزيزاً وإغراء حتى جعلتم منها غابة من الضوارى ، لا يشبع نهَمَها شيء مثل البغى والعدوان على حقوق الإنسان .. فقل لى بالله كيف غابت عن أميركة يومئذ فكرة الإنسانية ..؟ فوقفت بجانب الغاصبين ، ولم تكتف حتى نصبت منهم دولة تهدد الأمن وتروع الآمنين .. ثم مضت تستغل كل مناسبة لتضخيمها بآلاف الملايين ، ولتسليحها بأحدث ما اكتشفه الفكر الإبليسى من وسائل التدمير والتتبير والتمكين .. حتى هذه الصرخات الجديدة التى تواجهون بها العالم فى المؤتمرات الدولية ، والمناسبات القومية حول (حقوق الإنسان) لا تكاد تسمع إلا حين يكون الأمر متعلقاً باليهود ، فأنتم من أجلهم تساومون روسية حتى على الحنطة وتحديد الأسلحة ، فلا تجيبون لها مطلبـاً إلا بمقدار ما تفتح لهم من أبواب الهجرة لتكثير سواد القتلة فى فلسطين السليبة .

ثم ها أنتم هؤلاء تشهدون اليوم عدوان صنيعتكم هذه على بقية أهلها بالقتل والتشريد ، واجتياح المقدسات ، واغتصاب الأرض ، لإقامة المستوطنات المنذرة بزوال الجنس العربى من فلسطين .. حتى إذا تحرك الضمير البشرى باستنكار هاتيك الجرائم فى مجلس الأمن لجأتم إلى قذائف النقض – الفيتو – فأبطلتم مفعول الإستنكار ، دون أن تأخذكم هزة الحياء ، إذ تقفون وحدكم إلى جانب المعتدين بوجه العالم كله .. وقد نسيتم شعاراتكم التى تتبجحون بها فى كل مناسبة تستدعى الكلام عن حقوق الإنسان !..

وها هى ذى بورمة البوذية الشيوعية تجتاح ديار المسلمين ، وتفتك بجموعهم لتقذف ببقاياهم إلى بنغلادش المختنقة بسكانها ...

وغير بعيد من بورمة مذابح المسلمين فى جزر الفيلبين ، حيث تغتال العصبية الصليبية حشودهم فى بيوت الله ، وتجليهم عن منازلهم وأراضيهم ، دونما ذنب سوى تشبثهم بهويتهم الإسلامية ...

ولطالما لقى إخوانهم مسلمو الهند من أمثال تلك المجازر بأيدى عتاة الهندوس ، حيث تحرق المئات من قراهم ، ويباد الألوف من أبريائهم حتى الأطفال والنساء ، وما أحسبك بناس بعد مذابح الأوغادين ، التى دفعتهم بها لقمة سائغة لدبابات منغستو تسحق العزل من سكانها المسلمين ، فتطمس معالم الديار ، وتمزق أشلاء الكبار والصغار .. إلى جانب مذابحه الأخرى فى ربوع الأرتيرية حيث تزحف قوى الشيوعية الدولية لتدمر فيها بقايا الحياة .

وكل ذلك على مرأى ومسمع من أهل الأرض .. ومع ذلك لا يذكر أحد أن رئيساً أو كبيراً فى أميركة رفع صوتاً ، أو أطلق كلمة فى الاحتجاج على الظالمين أو الانتصار للمظلومين ...

فأين كانت رحمة أميركة بالإنسان ؟.. أم أن هؤلاء وأولئك من غير الجنس الذى تطلقون عليه اسم الإنسان ؟!..

وهل أنا بحاجة إلى تذكيركم يا سيادة الرئيس بذلك البلد العربى العريق ، الذى صبت عليه صواعق المهلكات من الجو والبر فأحالته مقبرة كبيرة ينطوى تحت أنقاضه الآلاف من الرجال والنساء والأطفال .. وذلك على مسمع من الدنيا كلها ، وعلى مشهد من أجهزتكم الفضائية ، التى بلغت من الدقة أن (تصور كرة لا يتجاوز قطرها أربعة سنتيمترات عن ارتفاع ستة عشر ألف متر) ومع ذلك لم تجدوا فى هذه المأساة العالمية ما يستحق منكم كلمة

إشفاق ، أنتم الذين أقمتم الدنيا ولم تقعدوها انتصاراً للكلبة (لايكا) أن تنتهك الحكومة السوفياتية حقوقها بإرسالها إلى الفضاء فى تجربة علمية !..

أفكانت دماء آلاف المسلمين أرخص فى معياركم (البراغمى) من انزعاج كلبة ؟ .. أم هو المنطق الخاص الذى يسقط من حقوق الإنسان كل آدمى ينتمى إلى عالم الإسلام !!..

الحق يا سيادة الرئيس أنى عاجز عن ملاحقة مواقفكم المتضاربة فى هذا الموضوع ، الذى أطلتم وأطنبتم فى الحديث عنه ، لتوهموا العالم أن أميركة هى الحامية لكرامة الإنسان دون منازع .. فى حين تكشف الصحف الأميركية عن ضروب المؤامرات الأميركية على حقوق الشعوب ، سواء عن طريق الرشاوى التى تشترى بها الحكام ، أو عن طريق المخابرات المركزية التى تقف وراء كل انقلاب يراد به فرض العملاء البغاة على الشعوب التى تتطلع إلى الحرية والحياة .. وماذا أقول يا سيادة الرئيس عن (المعونات) التى (تتبرعون) بها سنوياً لغوث البلاد المتخلفة .. بعد أن أعلنت مراكز القوى فى أمريكة أنها ليست سوى (طعوم) لاصطياد المحتاجين ، فليس لمعارض سيادتكم الدولية واليهودية حظ فى أى شىء منها .

لقد ظل هدف هذه (المعونات) سراً مستوراً حتى كشفه الكونغرس الذى قرر أن ليس لحكومة أى نصيب فيها إن لم تدفع ثمنها من كرامتها وحقوق رعاياها !.. وهكذا اتضح لكل ذى عينين أن معونتكم ليست سوى وسيلة لإخضاع الدول التى قُضى عليها أن تكون فى صفوف المتخلفين .

وما أظنكم تنسون موقف مندوب (تاهيتى) فى هيئة الأمم عام ١٩٤٨ يوم حشدتم العملاء لتقرير التقسيم الظالم ،فأبى عليه ضميره أن يشارك حكومة (ترومان) فى هذه الجريمة ، وأعلن موقفه بجانب الحق العربى ، إلا أن عاتق (تاهيتى) الضعيف لم يستطع الصمود أمام الضغط الأميركى أو الإغراء الأميركى ، فأصدرت أمرها إلى مندوبها بوجوب التصويت لصالح الغاصبين ، فلم يسعه إلا الخضوع وأدلى بصوته فى طاعة أميركة وهو يعلن احتجاجه عليها بدموعه النبيلة ...

يا سيادة الرئيس : من حقك أن ترد على هذه التساؤلات بحجة أنك

لم تشارك عملياً فى معظم هذه الجرائم ، لأن أكثرها إما سابق على عهدك ، أو مفروض عليك بقوة الاستمرار ، ولكن ما تعليلك لموقفك الراهن من موضوع القنبلة النيوترونية ، التى يعتبر تبنيك لها من ثمار رئاستك وحدها فى هذه الأيام ...؟ .

لقد أعلنت دوائركم فى مختلف المناسبات أن قنبلتكم هذه فاقت كل ما تقدمها من أدوات الفتك .. وأن أبرز مميزاتها كونها تقتل الأحياء وحدهم دون أن تمس الأبنية بأى سوء ..

فأى قيمة بعد هذا لكل ادعاء يريد أن يوهم الأغبياء بأنكم تقيمون أى وزن للإنسان !. إنها لمعادلة تفوق كل عجائب العقلية (البراغماتيزمية) إذ تجعل الحجَر أحق بالرحمة من البشرية !.. ولعمر الحق .. لقد بات أفضل من ادعائكم الانتصار لحقوق الإنسان أن ترفعوا شعاراً جديداً آخر أليق بعصر النيوترون ، هو : (المادة أولاً وآخراً) .. وألاّ حق فى البقاء لإنسان إلا إذا كان من اليهود أو الأميركان ! .

يا سيادة الرئيس : لقد أفسدت المكيافيلية الغربية عقلية البشر حتى استساغت تسمية الأشياء بأضدادها ، وحتى بات مثل هذا النقاش الذى أواجهك به من غرائب الوقائع فى مقاييسها الزائغة ، ولكن استغرابك قمين بأن يزول عندما تعلم أننى أناقشك بمنطق الإسلام الذى استعصى على ميكافيلية الغرب وشيوعية الشرق جميعاً ، فبضوئه نرى ، وبمعاييره نحكم ، وبذلك نرتفع على التضليل الذى يفرض نفسه اليوم عل معظم البشر ، فنقرر أنكم ومن وراءكم من ورثاء الميكيافيلية والماركسية إنما تهزءون بعقول الناس حين تنسبون إلى أنفسكم وأممكم فضيلة الإيمان بكرامة الإنسان . ذلك لأننا نحن المسلمين الأمة الوحيدة التى حملت ولا تزال تحمل للبشرية دعوة السماء إلى احترام الإنسان انطلاقاً من إيماننا الراسخ بقول خالق الإنسان : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ .

فقضية (حقوق الإنسان) التى ترتبط عندكم بالمصلحة المتقلبة ، هى بالنسبة إلينا نحن المسلمين قضية لا تقبل التغير ولا التبديل ، وأمامكم شواهد

التاريخ فاستنطقوها تؤكد لكم أننا لم نعرف على مر القرون مثل الاستعمار الذى لوثتم به ضمائر البشرية ، ولا مثل التمييز العنصرى الذى مزقتم به أرحام الإنسانية ...

ولا جرم ولا غرابة .. فأنتم تنظرون بعين المادة الصماء إلى كل شيء من هذه الحياة ، ونحن ننظر إلى الكون كله بنور الله .. وشتان بين النظرتين .

ولعلك أخيراً يا سيادة الرئيس قد قرأت شيئاً عن أسلاف المسلمين وأصغيت ذات يوم لتلك الصيحة العمرية التى لا تبرح تُدوى فى مسامع العالمين : (متى استعبدتم الناس .. وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟).

تذييـــــل :

ولقد شاء الله جلت حكمته أن يتأخر موعد هذا العدد من (مجلة الجامعة الإسلامية) حتى نشهد هجمة العدوان الجديد ، الذى سجلت به لقيطتكم – إسرائيل – قمة الهمجية التى توشك أن تمحو من ذاكرة التاريخ أسماء جنكيز وهولاكو وتيمورلنك ، وأشباههم من أعداء الإنسانية فى القديم والحديث .

وإنى لأكتب هذا التذييل العجلان فى غمرة من أنباء التدمير المبير ، الذى تنشره أسلحتكم الشيطانية على امتداد لبنان بعامة ، وفى أحياء المسلمين من بيروت الغربية بخاصة ، حيث يدكُّ المجرمون من حلفائكم عديد المستشفيات على أجساد نزلائها من المرضى والأطباء وآلاف المنازل الآمنة على رؤوس المئات من ضحاياها البرآء .. وقد قطعوا الماء وموارد الغذاء والضياء عن كل مكان من ذلك البلد المنكوب ، كى لا يدعوا لأهله موضعاً للأمل بالبقاء .. وكل ذلك على مرأى ومسمع منكم يا سيادة الرئيس ، دون أن يحرك فيكم ساكناً ، أو يطلق لسانكم بكلمة حاسمة تقف وحوش الغاب عن اندفاعها المجنون .. هذا مع يقينكم التام بأن أولئك السفاحين ما كانوا ليقدموا على جرائمهم الجهنمية لولا ثقتهم بتأييدكم المطلق ، سواء فى مجلس الأمن ، الذى تنسفون كل مقرراته المنصفة بقذائف النقض ، أو فى فنون الهلاك من المبيدات العنقودية والانشطارية والفوسفورية والفراغية ، التى تمدون بها أولئك السفاكين للإجهاز على بقية الأبرياء والمساكين ...

ولم كل هذا الإجرام بحق الإنسانية ، التى تنادون بوجوب الحفاظ على حقوقها ؟!

ستقولون حتماً : إنه حق إسرائيل فى الأمن على حدودها من غارات الفلسطينيين ...

ولكن .. هل بلغ تحجر الضمير الأميركى إلى حد أن يتناسى حق هؤلاء المشردين فى الدفاع عن وجودهم ؟! .

هل بلغ الفساد فى ذلك الضمير إلى حد ألاّ يفرق بين ظالم زحف بقضه وقضيضه من مختلف أرجاء العالم ، يقتلع شعباً من وطن ورثه عن عشرات الأجيال من آبائه ، وبين هذا الشعب المظلوم الذى اغتصب القتلة وأنصارهم أرضه ودياره ، فبات شريداً فى المجاهل ، حتى لم يجد مناصاً من اللجوء إلى السلاح للدفاع عن حقه فى الحياة ؟!! .

وليت أصحاب هذا الضمير المتحجر قد اكتفوا بالسكوت عن الظالم ، والتصامّ عن المظلوم ، فلم يزودوا القاتل الغاصب بالعون على ضحيته ، ولكنهم أبوا إلا أن يرفدوه بكل أسباب القوة ، التى تمكنه من القضاء عليها ، ولو أدى ذلك إلى تحويل معالم الحضارة إلى مقابر يُغَيَّب تحت أنقاضها آلاف الأبرياء من الشيوخ والأطفال والنساء .

فيالها محنة جنيتم بها على ثقة الإنسان بنوعه !..
ولكن .. رب محنة أعقبتها منحة ...

وحسب هذه المحنة العالمية أنها حرَّكت مشاعر الغافلين المأخوذين بمدَّعياتكم نحو حقوق الإنسان ، فإذا هم يشهدون ما وراءها من مخاز تشمئز من فظائعها حتى أنفس الحيوان ! .

ولاجرم سيكون لذلك أثره البعيد فى تاريخ أميركة كله ، وفى موقف الضمير الإنسانى المستيقظ من صنيعتها ، التى أزالت بوحشيتها الضارية آخر الستور عن وجهها الكالح الكريه .

﴿ وإن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

* * *

لا نصر ولا سلام إلا تحت راية الإسلام

١ – فى الأسبوع الفائت سجل التاريخ حدثين على جانب من الأهمية وعلى الرغم من انتقاء الصلة بينهما ، فإن المفكر المتأمل فى خلفياتهم لابد أن يلحظ بعض التشابه بينهما ولو من بعيد .

أما أول الحدثين فالانتخابات البرلمانية التى جرت فى روديسية ، فكانت – على اختلاف الآراء فيها – واحدة من الظواهر الحاسمة فى حياة الاستعمار الغربى ، إذ اضطر إلى تصفية وجوده نهائياً ، فأقلع عن تشبثه بأسطورة التفوق العنصرى ، ورضى أن يسلم زمام السلطة إلى أصحابها الشرعيين من الأفارقة ، الذين طال تنكيله بهم ، وإزدراؤه لِلَونِهم ، فهو بدأ من ظهور نتائج الانتخابات قد خلع عن نفسه بزة الغازى المنتهب ، ليعيش مع القوم بصورة أقلية تسهم فى بناء البلاد ، وتتمتع بأصول الحقوق الإنسانية التى طالما ناضل لحرمان أهلها منها .

وأما ثانى الحدثين فيبرز على استحياء فى تبادل نسخ المعاهدة المعقودة باسم السلام ، بين حكام مصر ورؤوس العصائب الصهيونية التى فرضت أميركة سلطانها على مسرى رسول الله ﷺ .

إن القدر المشترك بين الحَدَثين هو القصد إلى التسوية السلمية فى ظاهر الأمر ، فعن طريق هذه الانتخابات ضمن زعيم البيض لقومه حق المواطنة فى روديسية ولو من الدرجة الثانية ، وبموجب تلك المعاهدة أحرزت إسرائيل اعتراف أكبر دولة عربية فى محيط الوطن الإسلامى بحقها فى البقاء وإسباغ الشرعية على جريمتها فى اغتصاب الأرض المباركة بصفتها ملكاً ثابتاً لها إلى الأبد ، وليس هذا قط بل أعطتها حق الانتشار فى وادى النيل وما جاوره وضلع معه فى تثبيت هذه الصفقة ، لتثبيت مخالبها فى اقتصاده ، وتدمير ما استبقاه الإسلام فى شعوبه من حصانة خلقية حفظت له حتى اليوم هويته الإسلامية فى وجه السيول الدافقة من الفتن والمحن .. هذا فضلاً عن الأمن الذى

جاءها عفواً بتعطيل العسكرية المصرية التى تحسب لها ألف حساب ، وبذلك أطلقت يد إسرائيل فى الجيوب المتبقية من القوى المعادية لها ، سواء فى المقاومة الفلسطينية أو فى مناطق المواجهة .

أما الجانب المشارك فى المعاهدة فحسبه من فوائد الصفقة تلك الوعود الأمريكية المعسولة ، التى وقفت عند حدود المعونة بالمال ، الذى سيحيل تراب مصر ذهباً ، ومياهها عسلا ، وبالسلاح الذى يمكنها من القيام بدور الحارس الأمين لمصالح أمريكة وصنيعتها فى أرجاء ما يسمونه بالشرق الأوسط ! .

٢ - قلت ان القدر المشترك بين الحدثين هو القصد إلى التسوية السلمية ، وهى التى حققتها مساعى ايان سميث بنجاح عن طريق الخضوع لحكم الأكثرية .. فلنتساءل الآن : إلى أى مدى حققت المعاهدة أو اقتربت من نطاق التسوية المنشودة ؟!

وقبل الجواب لابد من تحديد مفهوم التسوية السلمية ، التى يتحدث عنها طرفا العقد ..

إن البحث عن مثل هذه التسوية يعنى أن ثمة خلافاً يهدد باندفاع الحرب بين الفريقين ، فيكون اللجوء إلى التسوية من العلاج الصحيح ، وفى أحداث التاريخ قديماً وحديثاً ما يؤكد أن كل تسوية لا ترد الحق إلى صاحبه لن تكون إلا هدنة على دخن ، سرعان ما تنقض عند أول احتكاك .

وقد رأينا تسوية الخلاف فى روديسية قد انطلقت فى طريقها الصحيح ، فردت الحق المغصوب إلى أهله ، ورضيت بالتراجع إلى المحل الذى قرره ممثلو الأكثرية .. وهو وضع لا خلاف عليه أصلاً بين المتنازعين من أصحاب الحق .. ولا غرابة أن يستمر ما التزمت الأقلية البيضاء سبيل التعاون المخلص لمصلحة البلاد .

أما تسوية السادات بيجن فلا تعدو أن تكون إقراراً للص بامتلاك المنزل المغتصَب ، ولو أن مثل هذا الوضع المقلوب قد حدث فى روديسية مثلا لما كان له أن يقيد أحداً سوى الموقعين على التسوية ، ولكان من حقه أن يصعّد من حركة النضال ضد الخائنين والغاصبين ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

والعجيب أن يجد مثل هذا المنطق المنكوس أنصاراً له فى مصر وخارجها ، فتسمعهم يجادلونك به فى مثل قولهم : « أليس الله هو الذى يقول : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ... ﴾ ! .. ولو اقتصر هذا الحجاج على الجهلاء لأمكن تجاهله ، ولكن الغريب أن يجرى على ألسنة بعض الشيوخ الذين يدرّسون الحلال والحرام من الأزهريين ، وقد نسوا أو تناسوا أن جنوح الظالم إلى السلم يقتضى رَدَّ المظلمة إلى أهلها أولاً .. أما مع الإصرار على الظلم فذلك شأن المجرم الذى يخطف ولديك بقوة السلاح ، ثم يقول لك : لقد غفرت لك معارضتك لى ، فلنقتسم الولدين ، ولنكن أصدقاء !!! .

على أن أعجب من هذا وذاك أن يتطور مفهوم (التسوية العادلة) حتى يقف اليوم - على ألسنة الكثرة من الحكام - عند حدود استرجاع القدس الشرقية والتخلى عن الأراضى العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، وكأنهم قد ألفوا الواقع المُذِل حتى أنساهم الحقيقة الكبيرة ، وهى أن فلسطين أرض الإسلام لا ملك الحكام ، فليس لواحد أياً كان شأنه أن يساوم على ذرة من ترابها ، فإن لم يجدوا فى أنفسهم القدرة على استخلاصها فلا أقل من أن يرفضوا الخضوع للأمر الواقع ، وليصبروا وليصابروا حتى يأتى الله بالفتح أو بأمر من عنده .

٣ - إن فى معضلة فلسطين خطيئتين كبيرتين ، كبيرتين إلى حد أن لا يعذر من يجهلهما من أولى البصائر أياً كان دينه ومذهبه الفكرى، ومع ذلك ترى أكبر الجاهلين بهما أكثر الناس انغماساً فيهما .. ويستوى فى ذلك زعماء الصهيونية ، على ما بينهم من وحدة المنطق والهدف ، وقادة الشعوب العربية ، على ما بينهم من تفاوت فى النظر والتصور ..

ولنتأمل فى خطيئة كل من الجانبين على حدة ..

أما طواغيت الصهيونية من أيام هرتزل حتى الساعة فقد حصروا أبصارهم فى حلقة واحدة من التاريخ لا يتعدونها فى كل تصرفاتهم إذ ينظرون إلى قضية فلسطين من خلال الواقع المشاهَد للعرب والمسلمين ، فلا يرون فيهم - على كثرتهم وإمكاناتهم - أكثر من غثاء ينتظر دفعة من السيل تحمله فتبعثره .. وقد مكّن لهذا الظن فى نفوسهم تحكمهم فى ميزان السياسة الأمريكية ، حتى لا تستطيع الانفكاك عن طاعتهم .. وقد فاتهم ، وهم فى سكرة الغرور هذه ، أن يلتفتوا إلى أحداث الماضى ليقيسوا عليه الحاضر ،

ثم لينفذوا من ورائهما إلى النتائج التى ستكوّن وقائع المستقبل .. ولو هم فعلوا ذلك لعلموا يقيناً أنهم باندفاعهم الأحمق هذا إنما يسعون بملايينهم العشرين إلى الهاوية التى ستبتلعهم جميعاً .

أجل .. لقد أنساهم الغرور أن إسرائيل التى أقاموها على جماجم المسلمين فى فلسطين ، بتأييد الصليبية العالمية ، والماركسية الأممية ، ليست – مهما كبرت وتكبرت – سوى جزيرة صغيرة مصطنعة فى خضم العالم الإسلامى ، الذى لن يلبث – مهما طال زمن جزره – أن يستعيد حركة المد ، التى ستجرف كل وضع فيه غير طبيعى .. ويومئذ لن ينقذها من المصير الحتم سلاح يُصنع فى أمريكة ، ولا مقومات تتدفق عليها من روسية ، لأن أمريكة وروسية نفسهما لن يجدا من يضمن استمرارهما إلى الأبد فى خريطة العالم ، على النحو الذى يشهده عالم اليوم ، وليس مصير بريطانية العظمى وتقلصها إلى حجمها الصغير الضعيف ، ببعيد عن بصائر الناس وأبصارهم .. ذلك لأن عجلة القدر ماضية فى حركتها ، وليس من قوانينها أن تدع باغياً فى مركز القوة يهدد أمن البشرية دون رادع ..

٤ – ولِمَ نُبعِدُ فى التمثيل ، وأمامنا العبرة الكافية من تاريخ اليهود أنفسهم فى جزيرة العرب ؟.

لقد هاجر رسول الله ﷺ والمؤمنون إلى المدينة ليقيموا مجتمع الإسلام ، الذى قد غاب عن واقع البشرية ، بسبب انصراف أهل الكتاب عن هداية الله ، إلى أهواء الأحبار والرهبان والمتسلطين من الحكام ، وكانت قبائل اليهود منتشرة فى وسط المدينة وحولها ، وفى أرجاء أخرى من الحجاز .. وقد رأى رسول الله أن يُشعر هذه القبائل بحسن نواياه نحوهم ، فكان من أوائل أعماله تنظيم العلائق الداخلية بين المسلمين ويهود ، فعقد مع ممثليهم تلك المعاهدة التى تعتبر أول وثيقة دستورية فى تاريخ العالم ، حدد بها واجبات كل من الفريقين ، وسوى فيها بين الجميع فى الحقوق والكرامة وحرية العقيدة ، وكان المأمول أن ينتظم أمر المجتمع الجديد على غاية من الوفاق والانسجام فى ظل هذه الوثيقة الكريمة ، لولا أن العقيدة اليهودية قد أبت على أهلها سوى الانحراف إلى شنشنتهم من الغدر والتآمر مع أعداء الإسلام ، فكان ما لا مندوحة عنه من تحصين الدولة ضد مفاسدهم ومؤامراتهم .. وهكذا لقى كل فريق من المتآمرين جزاءه العادل وفق جريمته ، ثم طُهِّرتْ أرض الجزيرة من وجودهم ..

﴿ **وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

لقد أعطوا عهد الله أن يلتزموا الوفاء بكل ما عاهدوا عليه ، ولمسوا بأيديهم مدى وفاء المسلمين بذلك ، ولكن النفس التى تشربت بغض الإنسانية ، حتى لم تتورع عن قتل الأنبياء ، سرعان ما سقطت فى الامتحان ، إذ عدوا على أعراض المسلمين ، وحاولوا اغتيال الرسول ، وألبوا على الدولة الربانية أعداء الله من الوثنيين ، ثم أعلنوا نقضهم العهد فى أحرج الظروف التى أحاطت بالمسلمين يوم الأحزاب .

والعجب العجاب فى هذه النفس التلمودية أنها لم تتزحزح قيد شعرة عن طريقها الذى سلكته وراء قريظة والنضير وقينقاع .. فهى تخطط للعودة إلى منازلهم فى المدينة وما حولها .. وفى كل مناسبة تتنسم فيها ريح الانتصار العابر تهتف بأعلى صوتها : « يا لثارات قريظة والنضير وقينقاع » !.. كما فعلت عام ١٩٦٧ يوم تجمعت جماهير اليهود المنتشية بخمرة النصر عند حائط المبكى ، لتمجد رب إسرائيل الذى نصرها على أمة محمد !..

ولعمر الله لو أن هذه النفس استطاعت التحرر من عقدة الكره للبشر ، لعلمت علم اليقين أن أفضل ما تقدمه لجنسها من خير ينقذها من شقاء الأبد هو الخروج من (زنزانة) الاحقاد اليهودية إلى واحة الإنسانية ، التى تهيب بهم للتخلى عن فكرة الدولة الى الالتحاق بمجتمع مسلم يهب لهم كل ما منحته العهدة النبوية قبائل يهود من كرامة وإحسان .. ولكن .. هيهات .. إن ذلك يكلفهم الانسلاخ من مواريث الفساد الذى سمم وجودهم ، وعطل إحساسهم ، فجعلهم مثلا فى الغباء الذى يسجله عليهم رب العزة فى قوله الخالد : ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أجل .. لا يعقلون ، ولو كان لديهم مسكة من عقل سليم لا نتفعوا بعبرة التاريخ ؛ ولأخذوا بمثل الحل الذى تقدمه إليهم تجربة روديسية ، تلك التى أمنت للعنصر الأبيض حق المشاركة فى حياة مطمئنة ، بدلا من استهلاك الطاقات فى حرب خاسرة لا مردود لها سوى تراكم الأضغان، ومضاعفة الشقاء ، ثم القضاء التام فى النهاية على أهل الباطل والعدوان .

٥ - تلك صورة مركزة عن خطيئة آل صهيون ، وقد بقيت الصورة الأخرى لخطيئة أصحاب الحق المهزوم .

أبرز مظاهر الخطأ فى موقف العرب من هذه القضية ، خلال أعوامها الثلاثين ، هو تضييقهم دائرة النظر فى حدود الأرض دون الاهتمام بمقدماتها التاريخية والدينية .

لقد أبصروا ولمسوا فى مختلف المناسبات أن المحرك الأساسى لعدوهم - وأعوانه - هو الوقود الروحى الذى تلهبه فى صدورهم تعاليم التلمود ورموز التوراة ، ولم يأنِ لنا بعد أن ننسى يوم وصلت آلياتهم أرض سيناء ، وقد نُشِرت على مقدماتها صحف العهد القديم التى تحرضها على احتلالها ، فما ان وطئتها حتى ترجلوا ليمرغوا جباههم فى ترابها تمجيداً لرب الجنود ، الذى صَدَقَهم الوعد وحقق لهم الموعود .

ويوم توقيع معاهدة الاستسلام فى منتجع كارتر .. ألم يَر كُلُّ ذى بصر من العرب والمسلمين ، وعلى بلورة التلفاز الإرهابى العريق بيجن وهو يتمتم بالعبرية صلاة الشكر لربه ، الذى أخضع له رئيس أكبر فريق من أعداء إسرائيل ! .

ولن أزيد على هذين المثَلَين ، ففيهما ما يفى ويكفى ويشفى من الدلالة على ما وراء مواقف يهود من حوافز الدين ، الذى يحدد لهم مجال الرؤية ، فإذا هم يسخرون كل مواردهم وخبراتهم وإمكاناتهم للوصول إليه ..

ولقد مرت المقاومة العربية - خلال هذه السنين - بمراحل متباينة ، كان المطبوع منها بروح الدين أقصرها عمراً ولكنه أبعدها أثراً .. وقد بدأ ذلك على أيدى مجاهدى الأرض المباركة ، الذين قدموا السيول من الدماء والأفواج من الشهداء ، طوال سنى الاحتلال البريطانى ، ثم أقبلت كتائب الإخوان عن طريق مصر والأردن وسورية ، لتسهم فى استبقاء الشعلة على أشد ما تكون من التوهج ، فزلزلت الأرض بالمعتدين ، حتى إذا دنت قطوف النصر ، تحركت القوى الخفية ، لتنقل زمام القضية من أيدى المجاهدين إلى أيدى العابثين ، الذين نجحوا فى تنفيذ التقسيم الذى قررته أمريكة وروسية وحلفاؤهما فى هيئة الأمم ! .

٦ - منذ ذلك العهد استُبعد الإسلام عن ساحة المعركة ، إذ أخذت السبُل على المحاربين لإعلاء كلمة الله ، فملئت بهم السجون ، وسُلط عليهم الاغتيال والتهم الكاذبة وأنواع التعذيب .. ثم لم يُترك لهم منفذ للعودة إلى

المعركة .. ومنذ تلك الأيام مضت القضية تتخبط فى تيه من الضياع الرهيب ، ومع أن النضال من أجلها وباسمها لم يتوقف قط ، إلا أن أسلوب العمل لم يكن على مستوى المسئولية ، فليس ثمة منهج موحد بين العاملين .. بل إن المقاومة الفلسطينية نفسها ، التى بلغت قمة الروعة على أيدى الحُسينيين وإخوانهم ، قد اختلطت عليها السبل ، فشرّقت وغرّبت وتكاد تجمع على استبقاء الروح الإسلامى معزولا عن الحلبة ، فهى تقاتل تحت مختلف الرايات ، وفى ظلال العديد من الشعارات ، إلا راية محمد وشعار (لا إله إلا الله) ! .

حتى الزحف المظفر الذى اقتحم خط بارليف ببركة (الله أكبر) سرعان ماتوقف بأمر (نيكسون) ثم تحول من جهاد فى سبيل الله إلى محاورات ومداروات انتهت بعد ست سنوات إلى شر هزيمة منيت بها القضية فى تاريخها كله ، على أن من الحقائق التى لا ينكرها منصف أن هذه الهزيمة لم تفاجىء مفكراً يحسن تتبع الأحداث ، لأن الوقائع المتلاحقة قد أكدت لكل ذى وعى أن أعداء القضية قد سجلوا أكبر نجاحاتهم منذ استطاعوا تحويلها عن الخط الإسلامى ، فأضاعوا على المَعْنيين بها وضوح الرؤية ، حتى جاء اليوم الذى اضطروا فيه إلى إعلان عجزهم عن استيعابها ، ومن ثم إلى تجزئتها حيث انكمشت مطالبهم من تحرير فلسطين كاملة إلى الوقوف عند حدود القدس الشرقية مع الضفة والقطاع ، لا يكاد يشذ عن ذلك واحد منهم ! .

ولقد كانت هذه النهاية هى الخاتمة الطبيعية لتميُّع الهدف ولتباين الأساليب إذ أصبح كل فريق ينظر إلى القضية من خلال طاقته المحدودة بإزاء العدو ، المزود بخبرات وجبروت أمريكة والصليبية العالمية ، ثم الكوابح الشيوعية التى لا تنفك تشدّ على خناق العرب لتشعرهم بالمبدأ المشترك بين الجميع وهو « إن إسرائيل وجدت لتبقى .. » .

٧ - ولا جرم أن علة العلل فى كل هذا الاخفاق عائدة إلى تفريغ الجهد العربى من روح الجهاد الإسلامى ، الذى لا يستطيع عزل فلسطين عن تاريخ الصراع بين الإسلام واليهودية ، فإذا كان تلاميذ التلمود يقاتلون بروح الثأر لقينقاع وإخوانهم من أحفاد القِرَدة ، فمن العبث مواجهتهم بحوافز الوطنية والقومية والاشتراكية والماركسية ،وهى كلها من صنع أيديهم ، وهم بمقاتلها أعلم ..

ولقد جرب قومنا ضروب الأسلحة بعد إقصاء الإسلام عن الميدان ، فلم يرجعوا بغير الخسار والعار ، بعد فقدان الذمار والديار .. فمتى يتبينون خطأهم الكبير ، فيفسحوا السبيل لفقهاء الإسلام وخبرائه لتنظيم طاقات الأمة وفق حاجة المعركة ، ولجنود الإيمان ليقارعوا أباطيل التلمود بحقائق القرآن ! .

إن كل مبدأ قابل للتبديل والتعديل ، جرياً مع منطق الأحداث ، فكلما ضاقت الحيل تقلص الأمل ، حتى يكون اليأس فالاستسلام .

بيد أن دين الله هو وحده الثابت أبداً ، المتعالى أبداً على منطق الضعف والضرورات ، فكل نكسة يصطدم بها المؤمن حافزة له على إعادة النظر فى وسائله حتى تنتهى إلى الانسجام التام مع قوانين الإسلام ، فلا يكون بعد ذلك خذلان ولا نكوص ، ومن هنا كان احتفاظه بالعزة فى سائر أحواله ، تحقيقاً لأمر الله الذى يقول للمؤمنين : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ...** ﴾ .

وكيف يهن المؤمنون ويدعون إلى السلم المَهين ، وقد علموا أنهم على موعدة مع النصر الذى يبشرهم به الصادق الأمين فى حديثه الصحيح المبين : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ... » .

ومن يكن الله معه ومحمد قائده لا يعرف الهوان إلى نفسه سبيلا ..

* * *

مأساة الإسلام في الهند (*)

بعد مرور ثمانية قرون على استقرار الإسلام فى الأندلس استطاع التعصب الصليبى الذى لم يخمد قط ، أن يزلزل الأرض بملايين المسلمين ، ثم يقضى على وجودهم كلياً فيوزعهم ما بين محرَّق بالنار ومرتد عن دين الله ومشرَّد فى متاهات الدنيا .

ونعيد النظر اليوم فى واقع المسلمين فنرى أن مأساة الأندلس لمَّا تنته بعد ، فالتعصب الذى طوى بالأمس أنصع صفحة للحضارة فى أوروبة لا يزال يتابع طريقه فى مطاردة الإسلام ، يريد أن يعيد التجربة نفسها فى مختلف الأقطار من أوطانه ، ففى رحاب المسجد الأقصى يُقتلَع شعب من جذوره ليحول إلى مجموعات من اللاجئين لا تلبث أن تلاحِقهم خطط الدمار بكل وسائل الهلاك فتقتلهم زرافات ووحداناً على مشهد ومسمع من كل ذى سمع وبصر فى العالم كله دون أن تجد استغاثاتهم أى صدى حتى عند عشائرهم الأقربين .

وفى الفلبين تجتاح الزعازع الصليبية ألوف المسلمين بمجازر يومية مدروسة ، دون أن تثير أى مردود عملى لدى مئات الملايين من إخوانهم المنتشرين فى كل مكان .. اللهم إلا بعض رشَّات من الكلام تنطلق لنصرتهم بين الحين والحين .

وكذلك القول فى الكثير من أقطار المسلمين التى أوقعتها الغفلة فى براثن الحاقدين والمرتدين من أعدائها وأبنائها على السواء ، حيث تهدد الكوارث وجود الإسلام نفسه بالزوال إذا استمر الجلادون آمنين من ردود الفعل ، وما دام القادرون من المسلمين على نجدتهم مشغولين عن واجبهم بشهواتهم .

(*) لا تزال المأساة قائمة وإن تغيرت الوجهة السياسية بسحب نظام الطوارىء ، ويبقى أن المأساة ليست مقصورة على الهند ، بل هى مأساة الإسلام فى كل مكان .

ولا جرم أن محنة الإسلام فى الهند ، وفى ظل النظام البوليسى القامع لكل ضروب التعبير ، تكاد تفوق كل محنة تعرض لها بعد مأســاة الأندلس .. ذلك لأن التعصب الوثنى لا يزال أشد شراسة من التعصب الصليبى نفسه ، وقد قرنه الله بالحقد اليهودى فى محكم كتابه حيث يقول سبحانه : ﴿ **لَتجدنّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا** ... ﴾ فكلتا النحلتين تجردان المتصفَ بهما من كل مميزات الرحمة لأنهما صادرتان فى الأصل عن النزعات العنصرية فلا تقيمان وزناً للأخلاق والفضائل التى تحترم حقوق الإنسان ، ولو هما شاءتا الالتفات لهذه الحقوق لما وجدتا إلى ذلك سبيلا ، لسبب واحد هو وقوعهما تحت سلطان الكهنة الذين يحلون ويحرمون كما يشاؤون ، دون اهتمام بأى رادع أو واعظ من وحيٍ أو عقل .

عشرات المذابح خاض غمارها مسلمو الهند منذ غادرها الاستعمار .. وآلاف القرى قد هدمت على رؤوسهم دون سبب سوى ذلك الحقد الطاغى الذى تغلى به صدور الهندوس والسيك على أهل الإسلام .

وحتى الآن وعلى الرغم من كل هذه الفتن العمياء لم يسجل على المسلمين عدوان واحد على مواطنيهم من الوثنيين ، اللهم إلا أن يكون إقدامهم على ذبح بقرة هم يرونها حقاً أباحه لهم الله ، ويراه أولئك المضلّلون اعتداء صارخاً على آلهتهم التى يعبدون .

وكل هذه المذابح الوحشية واقعة أبداً فى رائعة النهار وعلى مشهد من رجال الأمن الهندوسى ، بل تحت إشرافهم وحمايتهم ، وقد بات مستحيلا إنكار شيء منها بعد أن أعلن تفاصيل بعضها وزراء هنود فى البرلمان الهندى نفسه بصورة لا تكاد يصدقها سامع لولا أن المصرح بها شاهد من هذا الوزن .

أجل .. كان ذلك من الأحداث اليومية أو الموسمية وفى ظل الحكم البرلمانى الذى يمكّن المظلومين من رفع شكاتهم بألسن ممثليهم وعلى صفحات جرائدهم .. أما اليوم وقد حل البوليس محل البرلمان ، واستحال أعضاؤه أدوات لا عمل لها سوى تصديق المقررات التى يفرضها الإرهاب ، فقد أصبحت الفرصة مواتية لتحويل العدوان الغوغائى إلى عملية اجتياح رسمى باسم القانون .

قبل نظام الطوارئ تحركت السلطة الهندوكية لانتزاع جامعة عليكره الإسلامية من أيدى المسلمين تمهيداً للتسلل إلى بقية المؤسسات الثقافية الإسلامية فى مرحلة تالية ، وقد نسيت هذه السلطة أو تناست فضل الثقافة الإسلامية على أمم الهند كلها التى كانت - باعتراف جواهر لال نهرو - غارقة فى ظلمات الجهالة حتى انطلقت أشعة الحضارة الإسلامية لتنقذها من ضياعها ولتضعها فى طريق النور ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يتنادوا للدفاع عن حقهم فى الجامعة وأن يعلنوا معارضتهم للمحاولة غير الدستورية التى تلجأ إليها السلطة فى هذا الصدد ..

أما اليوم وفى عتمات الإرهاب فما يدرى أحد شيئاً عن مصير هذه الجامعة لأن أحداً لا يملك القدرة على الكلام فى وجه الحسام .

وقبل نظام الطوارئ حاولت السلطات العلمانية التدخل فى أخص شئون المسلمين من نظام الأحوال الشخصية لتفتح الثغرات التى تمكنها من تذويب شخصيتهم ، إلا أنها سرعان ما وجدت نفسها تلقاء سد منيع من تعاون الطوائف الإسلامية جميعاً ضد تلك المحاولة مما اضطرها إلى التريث فى تنفيذ خطتها إلى حين .. أما الآن وفى ظل الطغيان فقد بات بقاء الصفة الإسلامية للمسلمين أمراً معرضاً لأنواع من الامتحان .

وقبل نظام الطوارئ .. كان للمسلمين صحافتهم ووسائلهم المشروعة لعرض دينهم وقضاياهم والدفاع عن حقوقهم وكيانهم .. أما فى ظل الواقع الخانق فقد حُجِب الكثير من هذه الصحف وضُرب الحظر على الجماعة الإسلامية ، التى لم تقم بأى نشاط خارج حدود التوعية الدينية فى أوساط المسلمين ، وصودرت حرية قادتها الذين لم يقترفوا أى ذنب يسئ إلى النظام العام .

وقبل العهد العرفى الراهن كان موضوع تحديد النسل قائماً على الحوار والاقناع فلا تجرى عملية التعقيم الجراحى لاحد إلا بموافقته واختياره ، أما بعد زوال الحريات فقد حل الإكراه محل الاختيار ، فلا علاوة ولا راتب ولا علاج ولا تموين ولا تعليم لأولاد موظف لا يخضع لهذه العملية ، والأمر مع العامة أكبر وأهول إذ تسوقهم الشرطة بالقوة إلى مراكز التعقيم ، وقد يحدث أن

يكون المسوق عزباً أو عريساً فيقطعوا صلته بالحياة عن طريق التعقيم ، كما حدث فى إحدى المدن ، حيث عقم عريس مسلم فثار أهله وهاجموا مركز الشرطة الذى جنى عليه ، فما كان من الحكومة إلا أن دفعت بالجرارات لدَكّ الحيِ كله دكاً ، وفى هذه الحادثة استشهد إمام أحد المساجد وهو قائم يصلى .

ومما يضاعف الأسى بإزاء هذا العدوان الرهيب أن يجد من كبار الموظفين المسلمين من يتطوعون للدفاع عنه ، زاعمين أنهم لا يجدون فى كتاب الله ما يعارض التعقيم ومحتجين لدعواهم بإقدام بعض حكام المسلمين فى البلاد العربية وغيرها على تحديد النسل ، وقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا أن أجرأ الناس على الفتوى أجرؤهم على النار ، وأن عمل المستبدين والطواغيت لن يلغي أبداً حكم الله الذى اعتبر الوأد الفردى من أكبر جرائم الجاهلية ، فكيف بالتعقيم ، وليس هو فى أبعاده الخطيرة سوى ضرب من الوأد الجماعى الذى يهدد بانقراض الشعوب ويعبر عن فقدان الثقة برحمة الله ! .

وقد أعلنت حكومة أنديرا غاندى أن التعقيم من أهدافها الأساسية ، وتعامل كل معارض له بمثابة الخائن للدولة .. ومن هنا جاء الصمت الذى فسح المجال لكل هذه الفظائع ترتكب من أجل تنفيذه .. وبخاصة فى أوساط المسلمين الذين يعتبر التعقيم هو الفرصة المفضلة للتقليل من أعدادهم ، وهكذا يواجه مسلمو الهند فى هذه المناسبة الرهيبة لوناً آخر من العدوان على وجودهم يوشك أن ينسينا مذابحهم على أيدى السيك ومتعصبة الهندوك .

إن عذر القائمين بهذا التعقيم فى شبه القارة الهندية عائد إلى ما يرونه من زيادة الحجم السكانى على مستوى الموارد التى تملكها الهند ، وهو فى ظاهره حجة مقبولة عند الذين لا يفقهون الحياة إلا نوعاً من الأرقام الرياضية والنِسب العددية ، بيد أنها حجة لا تلبث أن تنهار أمام منطق الواقع الذى تعيشه أمم هى أكثر تضخماً من أمم الهند دون أن تضطر إلى وقف نموها البشرى ، وأقرب مثال على ذلك جارتها الصين التى تضم ربع سكان العالم ولا تفضلها من حيث الموارد الطبيعية ، ومع ذلك لم تدخل فى حسابها اللجوء إلى مثل هذه الجريمة الرهيبة حتى الآن ، ذلك لأن فى وسع الذكاء البشرى تكييف الوقائع على الوجه الذى يضمن التوازن اللازم بين ما كان وما ينبغى أن يكون .. وهذه الجزر البريطانية ما كان لارضها أن تكفى أهلها لو قنعت بالبقاء على ما توارثته

من وسائل العيش ، ومثلها جزر اليابان التى بلغت من التقدم التكنولوجى مستوى مكنها من غزو أوربا وأمريكا بمصنوعاتها التى أصبحت تهدد اقتصاد القارتين بالانهيار ، وليست أرض الهند دون هذه ولا تلك عطاء لو توجهت عناية المسئولين فيها إلى إحكام الاستغلال للطاقات والمواهب على الصورة التى تقتضيها أوضاع الهند .

إن أزمة الهند - فى نطاق المعيشة - تنطلق من مصدرين لا سبيل إلى تجاهلهما عند أى محاولة للإصلاح الصحيح .

أما الأول: فعائد إلى وثنيتها القائمة على تقديس البقر والقردة ، وكل ذى حياة من الحيوان والحشرات ، على اعتبار أولاها آلهة تقتضيها العبادةَ والخنوعَ وتركَها تعيش على هواها فى الزروع ، فبدلا من أن تكون أحد مواردها الكبرى ، تزودها باللحوم وتعود عليها بالوفير الكثير من النقد النادر ، تستحيل أداة تدمير لاقتصادها وبلاء على وجودها .. وهكذا القول فى القرود التى تقتحم منازل الهنود للاستيلاء على طعامهم دون أن يمدوا لردها يداً .. لأنها فى حكم عقيدتهم الوثنية أرواح الآباء والأجداد التى تقمصت هذه الأجساد ! .

وأما المصدر الثانى : لأزمة الهند فإصرار حكامها على أن يكون لها مقعدها الضخم فى النادى الذرى ، حيث تتمكن من المشاركة فى تقرير مصاير البشرية على ظهر هذا الكوكب ، وبخاصة باكستان التى لم تكتف بتمزيقها إلى دولتين ، بل هى تعد كل الوسائل الكفيلة - فى ظن أولئك الحكام - بإزالتهما جميعاً من الأطلس الدولى لتعودَ جزءاً لا يتجزأ من الأم التى لا تتورع عن التهام أولادها ! .

أجل .. تلك هى حقيقة الأزمة التى تعانيها الهند ، فلا تعقيم السكان ولا تعطيل الحريات ولا شحن السجون بالأبرياء بمجد عليها شيئاً ، إذا هى لم تعمد إلى هذا الواقع ، فتبدأ علاجه من الجذور ، وما دام التعصب القومى الوثني هو الذي يقود خطوات قادتها فستظل تدور فى حلقتها المفرغة لا تخرج من متاهة إلا لتقع فى الأخرى ، ولا تخلص من مرحلة لنظام الطوارىء حتى تسلمها إلى مرحلة تالية .. إلى غير نهاية .

* * *

بقيت كلمة صغيرة لا مندوحة من توجيهها إلى حكومات العالم الإسلامى وإلى دوله ذات الموارد العالمية والثقل الدولى :

إن هؤلاء المعذبين من إخوانكم فى الهند يتطلعون بلهفة إلى ما أنتم فاعلون من أجلهم ..

لقد علمتم ما تقوم به الولايات المتحدة من ضغط على روسية لتخفيف قبضتها عن أعناق اليهود ولمراعاة رغباتهم فى مغادرة الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل، إنها لتستغل كل مناسبة فى سبيل ذلك حتى المفاوضات على تحديد السلاح ، وحتى المساومة على شحنات الغذاء .. وليست دول أوروبة أقل اهتماماً بهذا الأمر من أميركة .. وقد رأيتم آثار هذا الضغط جلية فى تحقيق الكثير من مصالح اليهود الروس .

كذلك رأيتم مواقف الحلف الأطلسى من استبداد العسكرية اليونانية إذ مازال يضيق عليها الخناق حتى تخلت عن الحكم وردت للشعب اليونانى حريته فى اختيار ممثليه .

فما الذى يمنعكم أن تسلكوا سبيل أميركة وأوروبة فى الدفاع عن حق هؤلاء المعذبين فى رد اعتبارهم الإنسانى ؟! .

لقد وضع الله فى أيديكم من القوة ما تستطيعون به الكثير من العمل لانصاف المظلومين من مسلمى الهند وغيرها من الأقطار التى تستباح بها حرمتهم ويهدّد فيها وجودهم فحتام السكوت عن هذه المآسى وأنتم تشهدون .. وإلام التصامّ عن صراخ استغاثاتهم وأنتم تسمعون ؟! .

إن تهاونكم بحق هؤلاء الإخوة لن يكسبكم مرضاة جلاديهم ، بل إن هذا التهاون إذا استمر فى سبيله فسيطمع بكم كل ذى ناب من أولئك الذئاب ، ثم يأتى يوم تندمون فيه ولات حين مندم ..

تذكروا أيها السادة أن مسلمى الهند لم يدخروا وسعاً لنصرة قضايا العرب قط .. تذكروا فضلهم فى رعَاية لغة القرآن وسهرهم على حراسة الإسلام الذى به دخل العرب التاريخ من أوسع الأبواب ، ثم قولوا لمضطهديهم فى غير تحفظ : حسبكم بغياً .. فقد بلغ السيل الزبى ، وتجاوز الحزام الطبيين ..

ان نفطنا وأموالنا وكل ما ملكت أيماننا حرام عليكم حتى تردوا لإخواننا حقوقهم كاملة فى أحوالهم الشخصية ، وفى مؤسساتهم الثقافية ، وفى وسائلهم الإعلامية . وأخيراً فى كرامتهم الإنسانية التى لا بقاء لها إلا باحترام حقهم فى التناسل والبقاء ..

اقذفوا هذه الصيحة الأبية فى وجوه المعتدين مرة واحدة ترضوا بها ربكم وتنقذوا إخوانكم وترهبوا عدو الله وعدوكم .

إن غفلة الآباء عن كوارث الأندلس قد انتهت بهم إلى مغادرتها إلى غير عودة .. وإن تشاغل الأبناء عن حماية بيت المقدس قد أحال أحفاد الفاتحين إلى مشردين ، وهاهم أولاء مسلمو الهند تقف بهم الأقدار على مفترق الطرق ، فلا تكرروا مأساة الأمس بالغفلة والتشاغل لئلا تفاجئوا بتكرار النوازل ، فترددوا مع الشاعر المفئود فى رثاء الفردوس المفقود :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان فى القلب إسلام وإيمان

* * *

دفاعاً عن الحق ..
لا عن ضياء الحق

منذ صدر حكم القضاء الباكستانى بإعدام بهوتو تحركت أسلاك البرق تنقل من كبار الحكام إلى الرئيس ضياء الحق شفاعاتهم به ، وتستصرخه للعفو عنه .. فلما نفذ الرئيس حكم القضاء بالجانى استأنفت الأسلاك العالمية اهتزازتها تحمل الأسف ، والاحتجاج ، وتعلن الاستنكار لما وصفه بعضهم بكونه عملا خارجاً عن حدود الأخلاق والإنسانية ..

وتتحرك مواكب الهتافين فى بعض المناطق إظهاراً لنقمتها من إقدام حاكم على احترام قرار أصدره قضاء ، أعاد النظر فى تحقيقات القضية عدداً من المرات ، ثم استقر على الإجماع بإدانة المحكوم فى قتل رجل برىء دون مسوغ ، سوى أنه صرخ فى وجه القاتل على أعين الملأ بكلمة (لا) التى لا يطيق سماعها مستبد من طغاة الحكام ..

ويقف الملايين من البسطاء أمثالى متسائلين فى حيرة : أطبيعى هذا التلاقى من قبل أولئك المستنفعين أولا ، والمحتجين أخيراً ، على نصرة الجانى الذى أدانه القضاء ، أم أن ثمة تدبيراً مركزياً هو الذى يوجه القوم إلى اطلاق هاتيك الصرخات على هذا النحو من التوقيت والتشهير ؟.. ولماذا ؟..

وليس فى وسع البسطاء على كثرتهم تعمق الخلفيات الكامنة وراء هذه الظواهر ، ولذلك يجدون أنفسهم مضطرين للاقتناع بأن الهدف الأقصى منها لا يعدو إثارة الغبار فى طريق المسيرة الإسلامية التى يقودها رئيس باكستان وحكومته ، تأليباً للغوغاء ، وتشجيعا لقادة الفتنة على الاستمرار فى الطريق المناوىء لهذا الاتجاه .

وطبيعى أن أحكام البسطاء فى هذه الظواهر مقصورة عليهم ، لأنهم لا يجدون سبيلا إلى إعلانها عن طريق الإذاعات العالمية ، فتظل أصوات

المستنفعين أولا والمحتجين ثانياً ، هى المسيطرة وحدها على أسماع الناس ، دون أن يقعوا لها على تفسير يخالف ما يريده هؤلاء الكبراء ومن وراءهم .

على أن هذا الحصار لا يسوغ لنا نحن البسطاء أن نسكت على مزاعم لا سند لها من الواقع إلا كونها صادرة عمن بيدهم القدرة على فرض أهوائهم ، وإذا لم نستطع مواجهتها بمثل قدرتها فلا أقل من أن نبرىء ذمتنا أمام الحقيقة ، حتى لا يسجل التاريخ أن أهل الحق كانوا أبداً فى صفوف الشياطين الخرس ، وقديماً قيل : « ما لا يدرك كله لا يترك جله » .

وبمنتهى الاحترام والتقدير نتناول مدَّعيات كل من هؤلاء بكلمة يسيرة .

١ – يقول كالاهان رئيس الحكومة البريطانية : من المؤسف أن يرفض رئيس باكستان كل الشفاعات الواردة إليه من رؤساء العالم فى بهوتو ..

ومع أن الزعيم البريطانى وقف عند حدود الأسف بإزاء بهوتو ، فمن حقنا وغيرنا عليه أن نسأله : فى العام ١٩٣٤ حكمتم بالموت على ثلاثة من شباب فلسطين ، لغير ما ذنب جنوه سوى الدفاع عن حق شعبهم فى أرض أجداده التى وهبتموها لشذاذ الآفاق ، وتهاوت عليكم البرقيات من ملوك العرب ورؤسائهم مستصرخين بأولئك الأبرياء ، ولكنكم تصاممتم ونفذتم بالثلاثة حكم الإعدام .

فأين كانت إنسانيتكم يومئذ ؟.. ولم ضربتم بكل تلك الشفاعات عرض الحائط ؟..

٢ – وتتجاوز أنديرا حدود اللياقة فتصف التنفيذ بأبشع ما تيسر لها من التعابير .. فلتسمح لنا بالتعقيب على تعقيبها بهذه الكلمات المتواضعة :

لقد أغرقت الهند بسيول الدماء فى سبيل تثبيت حكمك عليها ، وأبحت لنفسك تعقيم الملايين من الهنود بالإكراه ، ولم تبالى من أجل ذلك أن يسقط عشرات الضحايا الأبرياء ، وأن تهدمى على المعارضين لهذه المحنة بيوتهم ومساجدهم .

فأين كانت غيرتك على العدالة .. وأين كانت رحمتك بالإنسان يومئذ ؟..

أفإعدام قاتل تنفيذاً لأحكام القضاء تصرف وحشى ، وتعقيم أمة ، والقضاء على الجموع الرافضة هذا العدوان ، عمل إنسانى ؟..

قتل القضاء مجرماً　　جنايـة لا تغتفــر
وقتل شعب كامل　　مسألة فيها نظر ؟!

٣ – ويدعو زعيم عربى كبير بالويل والثبور استنكاراً لتنفيذ الإعدام ، وراح يصف ذلك التنفيذ بأنه تحد للأخلاقيات الإسلامية ..

فنستميح هذا الزعيم الكبير العذر إذا نحن ذكرناه بما لا يسـعه أن ينساه من إقدامه ورهطه الحاكم على سوق الأفواج من دعاة الإسلام إلى المشانق ، وقتلهم دون محاكمة باطلاق النيران عليهم من وراء أبواب السجن ..

ولهذا السيد الكبير ، الذى يعلن فى كل مناسبة أنه مشارك فى كل قرار اتخذ فى ذلك العهد ، نوجه هذا السؤال : أكان تصرفكم ذلك يا سيادة الرئيس متفقاً مع أخلاقيات الإسلام يومئذ ؟..

٤ – ويعمد زعيم عربى ثان إلى القرآن الكريم يذكر الرئيس الباكستانى بآياته الحاثة على الرحمة والعفو .. ولا أدرى كيف نسى سيادته – هداه الله – هذه الآيات الكريمات يوم بعث بجنوده المسلمين لقتال إخوانهم مسلمى الصومال تحت راية السفاح الصليبى الماركسى منجستو ! .

وليته تذكر بهذه المناسبة على الأقل قول الشاعر الحكيم :

يا أيها الرجل المعلم غيره　　هلا لنـفسك كان ذا التعـليم !

ولا حاجة لتذكيره بقول رسول الله ﷺ لحبيبه أسامة بن زيد ابن حارثة : « أتشفع فى حد من حدود الله ! والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يَدها » لأن سيادته قد أعلن رفضه لكل قول ينسب إلى رسول الله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

٥ – ويرتفع من الشمال صوت عربى ثالث ليعلن عميق أسفه لإعدام صاحبه .. وكل مسوّغاتِه لهذا الأسف هو أن بهوتو كان فى مقدمة الساعين للتسوية السلمية مع إسرائيل ! .

ولعمر الله إنها لفضيحة جديدة يكشفها هذا التصريح ، فيضيفها إلى

سجل بهوتو غير الطيب .. وأيّ جريمة تعدل الاعتراف بواقع إسرائيل ، وحقها فى كل ما اقترفته من اغتصاب لوطننا ، وتشريد لشعبنا ، وإهراق لدمائنا !..

وأنا لا أدرى وربى أيريد ذلك الحاكم العربى، بتصريحه هذا،مدح بهوتو أم يريد تشويهه .. على طريقة بشار فى الخياط الاعور الذى يقول فيه :

خاط لى زيد قباء ليت عينيه سواء

٦ - ثم يأتى السيد ايجاويد رئيس حكومة تركية ، التى ثقف متفرجة على دماء شعبها تهرق فى بلدها دون أن تقوم بأى جهد رادع للأشقياء ، يأتى هذا الرئيس ليعرب عن استنكاره لمثل هذا الضرب من العقاب يصير إليه رجال السياسة ...

كأن من حق رجل السياسة أن يقتل الناس ، وأن يبغى فى الأرض بغير الحق ، وأن يهلك الحـرث والنسـل ، دون أن يتوقع على طغيانه عقوبة ، أو يستشعر مسئولية .. والمؤسف حقاً هو أن تغلب مكيافيلية العصر على عقول الساسة المسلمين حتى تُنسيهم المبدأ الأول فى السياسة الإسلامية ، وهو أن وظيفـة الحاكم فى الإسلام لا تتجاوز حدود الخدمة العامة ، التى تجعل منه أباً لكل فرد من الأمة ، يقف حياته كلهـا لحمايتها من الفساد ، ويقودها أبداً فى سبيل الرشاد ، لا رئيس حزبٍ كل همه ترسيخ قدمه فى مجال السلطان ، ولو كلفه ذلك ضرب الأمة بعضها ببعض ، وإغراقها أخيراً فى مستنقعات الهوان والخذلان ..

والعجب العجاب ، من مدبرى هذه الحملة الظالمة على رئيس باكستان ، أنهم على الرغم من تباكيهم لمصير صاحبهم ، لم يستطيعوا أن يمنعوا عملاءهم فى الإذاعات العالمية من الاعتراف ببعض جرائر بهوتو على شعبه ، إذ أطبق هؤلاء كلهم على القول بأنه المخلوق الذى تجرد عن الرحمة ، ولم يكن ليردعه شيء عن تنفيذ كل ما يراه مساعداً على استبقاء سلطانه مهما اقتضاه ذلك من أكداس الضحايا ..

وقد صرح أحدهم ، وهو يذيع أخبار الاحتجاج المفتعل ، بقوله : ولكن لم يكن ثمة من أمل بنجاة بهوتو من الموت ، لأن ثمانى عشرة جريمة أخرى كانت

تنتظر محاكمته ، وكل منها كاف للقضاء بإعدامه ...

على أن الأعجب من ذلك كله أن هؤلاء المتباكين لم يسبق لهم أن أبدوا أى عطف على الملايين الذين صب عليهم بهوتو سياط العذاب ، حتى إذا جاء دور العدالة للاقتصاص من الظالم تفجروا بكل النقمات العارمات ، دون أن ينبسوا بكلمة أسف على شركائه الذين لقوا معه نفس المصير .

ولقد آن أن نلفت أنظار أولئك المتباكين على بهوتو إلى حقيقة كبيرة لم تخطر على مخيلاتهم قط .. لأنها من غير المألوف فى أنظمتهم الحاكمة ..

إن الحاكم الأعلى فى الأنظمة الوضعية جميعاً ، سواء شرقت أو غربت ، هو امرؤ فوق القانون ، وله من الصلاحيات المطلقة ما يسوغ له مخالفة القضاء فى كل أحكامه ، فيعفو عمن يشاء ، ويخفف عمن يشاء ،وقد حدث أن محكمة شرعية أصدرت قرارها بإعدام عدد من البهائيين لثبوت ارتدادهم عن الإسلام ، وبدلا من أن يأخذوا طريقهم إلى حبل المشنقة ، ليكونوا عبرة لأمثالهم من عملاء اليهودية العالمية ، صدر قرار الحاكم الأعلى بتعطيل قضاء الشريعة ، وإخراجهم من السجن ليستأنفوا مسيرتهم فى تضليل الجاهلين .

هذا الضرب من الفوضى ، المهددة لأحكام القوانين ، لا وجود لها فى نظام الإسلام ، الذى دخلت باكستان أبوابه على يد رئيسها المؤمن الشجاع الفريق ضياء الحق ، إذ المعلوم عند أهل العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن الجناية تظل قابلة للتسوية بين أهل الجانى وأهل المجنى عليه حتى أثناء عرضها على القضاء ، فإذا أخفقت جهود الإصلاح حتى صدر حكم الشريعة فى القضية أعطى الفريقان فرصة جديدة للتصالح بعد أن تكون الدماء قد بردت ، وتهيأت النفوس لقبول الحل المعقول ، فإما أن يتم الخير بعفو أولياء الدم ، أو يصر هؤلاء على القصاص ، فيتولى ولى الأمر تنفيذ الحكم على الوجه الذى قرره القضاء دون أى حيف أو تهاون ..

ومعنى ذلك بإيجاز أن ليس لولى الأمر فى الإسلام حق العفو أو تخفيف الحكم ، بل ينحصر عمله فقط ضمن حدود التنفيذ الحرفى للحد الشرعى .

وعلى ضوء هذه الحقيقة العالية يجب أن يفهم المستشفعون والمستنكرون موقف الفريق ضياء الحق بإزاء الحكم الصادر بحق بهوتو .. إذ كان مستحيلا

عليه أن يسلك فى قضية الرجل غير السبيل الذى سلكه ، ولو هو قد تدخل فى موضوع الحكم فأحدث فيه أى تبديل أو تعديل لاعتبر خائناً للشريعة التى أعلن إقامتها فى باكستان المسلمة ، وأنها لإحدى مميزات النظام الإسلامى الذى يبلغ فيه استقلال القضاء حداً تتقاصر دونه سلطة الساسة ، بل تخضع له رقابهم ، حتى ليحاكمون أمام ممثليه من خصومهم أياً كان هؤلاء الخصوم ..

وفى يقينى أن هؤلاء المستشفعين أولا ، والمستنكرين ثانياً ، لو أدركوا هذه الحقيقة وحدها لأراحوا أنفسهم من عناء الاستشفاع والاستنكار ، ولحنوا جباههم للشريعة التى ارتفعت فوق كل زعيم ، ولو نطح السماء بروقيه ، وسوت بعدالتها المطلقة بين الناس جميعاً لا فرق بين الحاكم والمحكوم .

فهنيئاً لأهل الإيمان بالشريعة التى لا سبيل غيرها لتأمين المظلوم من عدوان الظالم ..

ومرحى لضياء الحق الذى لم تأخذه فى الحق لومة لائم ..

* * *

الظاهرة الأولى

فى أحداث القرن الخامس عشر

إن الله جلت حكمته الذى يقول فى كتابه الكريم : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ هو الذى قدر لمكة المكرمة مقامها المنفرد فى عالم الإنسان ، فهى أم القرى ، والقرى ، بخلاف مفهوم العامة ، هى الحواضر التى ترتبط بها مصالح الناس على هذه الأرض ، ومعنى ذلك أن مكة المكرمة هى المركز الذى يستقطب الحواضر كلها ، على اختلاف مواقعها ومصالحها وأجناس سكانها ..

ومن هذا المنطلق ينبغى أن ينظر إلى الكشف الحديث الذى سجله مؤخراً أحد كبار ذوى الاختصاص من الإخوة المصريين حول موقع البلد الحرام ، إذ ثبت له وللدراسين أنه يشكل نقطة الارتكاز فى وسط الكرة الأرضية ..

وقد اختار الخالق عزَّ اسمه هذه البقعة المطهرة على هذا الوضع المحكم لسرٍّ يسَّر لناعِلمَ بعضه ، ولا نزال نتطلع إلى المزيد من خفاياه ، فمنذ اليوم الأول لتعيين مكان البيت ، سواء كان ذلك قبل الطوفان – على رأى – أو بعده حين بوأه الله لخليله إبراهيم – عليه السلام – على رأى آخر – قد حدّد سبحانه مهمته فى حياة عباده ، إذ جعله مثابة للناس وأمناً ، يفيئون إليه كلما دهمتهم أعباء الدنيا ، فيستردون فى ظلاله هُوِيتهم التى طمستها الأهواء ، ووحدتهم الآدمية التى مزقتها الأرزاء .. ثم أتم نعمته على الإنسانية ببعثه خاتم رسله محمد ابن عبد الله ﷺ الذى جمع الراشدين من خلفه على وحدة الاتجاه فى صلواتهم ، فأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى ، وأن يُولّوا وجوههم شطره أينما كانوا على سطح هذه البسيطة ..

ومع أن أهل هذه القبلة المقدّسة قد فقدوا خلال سيرتهم التاريخية ، وتحت مطارق الأحداث ، الكثير من معانى الوحدة التى منَّ الله بها على الصدر الأول من سلفهم الصالح ، فى قوله الحكيم : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم**

أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ... ﴾ مع ذلك فهم لا يبرحون أوفر أهل الأرض وشائج قربى، وأكثرهم شعوراً بالتلاحم، وذلك بما تلقيه فى أخلادهم وحدة الالتفاف حول هذا البيت من مركزية التصور، وتناسب الأفكار وترسيخ الفضائل .. فإذا رأيت التيارات العاصفة تجرف أشتات الشعوب من حولهم حتى ليطأ بعضهم بعضاً، ويتهادى بعضهم على أشلاء بعض ...

إذا رأيت هاتيك الشعوب كذلك والغة فى دمائها، على طريقة الذباب حين يتهافت على جثث أخواته المصرَّعات دونما رحمة، إذ يجد فيها فرصة تغريه لملء جوفه بأجزائها، رأيت أهل هذه القبلة كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضهُ اشتكى كله .. فما من نكبة تحل فى جانب هذه الأمة فى أدنى الأرض، إلا اهتزت لها جوانبها الأخرى فى أقاصيها ...

تلك حقيقة ماثلة لكل ذى عينين، لا يحجبها شذوذ بعض المتسلطين على بعض الجماعات الإسلامية، حين يسوقونها بسياط البغى إلى قتال إخوان لها تحت رايات غير رايات الإسلام، وفى ظل شعارات لا أبغض منها على أسماع المؤمنين، ولو أتيحت لها فرصة التعبير عن ضميرها الذى ألجمته قيود الإرهاب لتعالى صراخها فى وجوه أولئك البغاة : « أن أرفعوا أيديكم فلستم منى ولا أنا منكم فى شىء .. » ذلك لأن الأمة التى ألّف الإسلام بين قلوبها، وجمعها البيت الحرام فى مكة المكرمة على وحدة الاتجاه والهدف والتصور، لا تجد أمنها الروحى إلا فى ظل التعاون على طاعة الله، الذى حدد هوية المؤمنين فى قوله الخالد الحكيم : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ...** ﴾ .

أجل والله .. إن من فضل الله على هذه الأمة أن وحدتها أقوى من كل عوامل الفرقة التى يزرعها الطواغيت فى طريقها، وكل ما ينقصها هو أن يرتفع السادرون من قادتها إلى مستوى واقعها الروحى، ولن يتوافر لهم ذلك حتى يثوبوا إلى ظل هذا الإسلام الذى حيل بينهم وبين حقائقه، وصُرفت بصائرهم عن ضيائه، فراحوا يخبطون فى ظلمات من مذاهب ونظريات صنعها أناس عجزوا عن إدراك أنفسهم، واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ..

ويوم يتاح لأولئك التائهين أن يعودوا إلى ساحة النور ، ويعرفوا حق شعوبهم عليهم فى معزل عن التأثير بإيحاءات أعدائهم ، إذ ذاك لن يقبلوا أن يحكموا هذه الشعوب المظلومة بغير الشريعة التى ارتضاها الله لعباده ، ولن يسمحوا لأنفسهم بإكراهها على أى نظام يخالف عن أمر الله ، ويومئذ فقط يتم الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، ويحين الموعد الذى تترقبه هذه الأمة لاستعادة مكانها من العزة والقوة ، والقيادة العالمية .

● وبعد فإن من حق أم القرى على مؤتمر القمة الإسلامى الذى ينعقد اليوم على مقربة من حرمها الآمن أن يكون لمعانيها السماوية الأثر الأكبر فى مقرراته العديدة ، فلا يرتفع صوت بالانحياز إلى يمين أو يسار ، بل يلتزم جميعها المنهج المتميز الذى يفرضه الإسلام على كل تصرفات المؤمنين .

إن الظروف التى تحيط بواقع المسلمين ، وفى جوها يتم هذا التجمع المرموق ، تستدعى التحرر التام من كل فكرة مفارقة للخط الإسلامى ، وتتطلب من المؤتمرين رؤية جديدة إلى مشكلات العالم الإسلامى، تحيط بواقعه على اعتباره جسداً واحداً لا يستكمل صحته الإسلامة أجزائه جميعاً ، فإذا كانت فلسطين والقدس قلب هذا العالم ، فالأفغان عينيه ، وباكستان يمينه ، وإيران يسراه ، وتركية والفلبين وإندونيسية وتشاد والأريترية أجنحته التى بها يحلق وعليها يعتمد بعد الله .. ولا جرمَ أن كل إغفال لواحدة من مشكلات هذا العالم الواحد جناية عليه كله ..

إن الأرواح الكريمة التى تتخطفها قذائف الوحش الشيوعى فى مدن الأفغان وقراها وجبالها إنما هى قرابين يقدمها أولئك الإخوة المؤمنون دفاعاً عن الإسلام فى كل مكان ، تماماً كما يفعل شباب الإسلام فى فلسطين والفلبين وتشاد وعشرات الأماكن الأخرى من ديار الإسلام .. فكل هؤلاء مجاهدون لاستبقاء شعلة هذا الدين حية متوهجة على الرغم من كل أعدائه وعملائهم خارج هذا الوطن وداخله ..ولن يجحد هذه الحقيقة قلب وعى تاريخ هذا الدين ومواقف خصومه الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم وبكل ما يملكون من وسائل التدمير والتشوية ...

وإنى لاكتب هذه الكلمات وفي ذاكرتى صور لا تمحى من أحاسيس

حملتها من رحلتى الأخيرة إلى بعض أجزاء الهند ، فبعثتنى على اليقين بأن كل شيء فى مسيرتها الرسمية يعمل لإعداد جولة خطيرة وهائلة مع باكستان .. وليس من قبيل المصادفة أن يشير الرئيس ضياء الحق إلى هذه التوقعات فى تصريحه الذى أفضى به يوم أمس إلى بعض وكالات الأنباء فى منطقة الخليج .. ولم يعد سرًّا كذلك أن لزيارة برجنيف إلى الهند أخيراً أثرها المباشر فى إيقاد هذه النار ، التى تريد موسكو أن تمكّن لها فى الأفغان ثم تشق لها الطريق إلى إيران ، بعد القضاء على قدرة باكستان العسكرية ، وحتى لا يبقى أمام مجاهدى الأفغان من مجال أو ملاذ سوى الاستسلام للوحش الشيوعى أو الموت الكاسح ... وهذا الهدف الذى تتطلع إليه موسكو منذ قيام باكستان الكبرى ، وحتى بعد تمزيقها إلى دوليتن بمعونتها الحربية ، ومساعدة عملائها من حكام العرب ، لم تزل تواصل طريقها للإجهاز عليها نهائياً ، وهذا ما صرح به أثناء وجود برجينبف فى دلهى رئيس وزراء الهند السابق .. الذى أعلن للملأ أن المساعى التى يبذلها برجينيف اليوم للتحريض على باكستان قد درستها روسية معه قبل ذلك ، بزعم أن باكستان تستعد لغزو الهند ، ولابد من ردعها ، وكسر شوكتها .. ولكن الرجل أكد لروسية يقينه بأن لا أصل لهاتيك المزاعم ، وبالتالى فلا مطمع بجر الهند إلى حرب جديدة مع جارتها ما دام هو على رأس الحكم ..

ومن حقنا ونحن فى غمرة هذا الصراع ، وبإزاء تلك الدسائس التى يراد بها تحطيم الملجأ الوحيد لمجاهدى أفغانستان ، ومن ثم استكمال الطوق الشيوعى حول الجزيرة العربية ، مركز الثقل فى حياة العرب ، ومهوى قلوب المئات من ملايين المسلمين .. من حقنا أن نتساءل : عن المصير الذى سينتهى إليه أمر فلسطين والقدس والخليج وسائر مناطق الوطن الإسلامى وثرواته ، التى هى مطمع الشرق والغرب جميعاً ، إذا ظلّ العرب والمسلمون على فرقتهم التى دمَّرت قوتهم ، وضلّلت خطاهم ، ومكّنت لأعدائهم من طاقاتهم وإرادتهم ، فكانوا دائماً هم الآخرين ، وكان أعداؤهم شرقيين وغربيين هم وحدهم الرابحين الناجحين .. ولو أنهم عرفوا طريقهم الحق ، وأحسنوا استثمار طاقاتهم فى سبيل مصالحهم على الصورة التى يحبها الله ، لأنقذوا أنفسهم والبشرية كلها من واقعها الرهيب المهين ..

● وأخيراً .. إن مؤتمر القمة الإسلامى ،الذى يُعقد هذه الأيام فى ظلال الحرم المطهر هو الظاهرة التاريخية الأولى فى أحداث القرن الخامس عشر الذى يتطلع مئات ملايين المسلمين من خلاله إلى التغيير الجديد ، الذى يرد إليهم الأمن الذى سلِبوه ، والعز الذى فقدوه منذ انصرف قادتهم عن المنهج الربانى الذى وضع فى أيدى سلفهم الصالح مفاتيح الأرض ،وأزمّة الإنسانية ، التى لم تعرف طريقها إلى العدالة ولم تسمع بشىء اسمه حقوق الإنسان إلا فى ظل الإسلام ، رسالتهم الإلٓهية إلى أهل الأرض كافة .. فليكن هذا الحدث المرموق نقطة الانطلاق إلى وحدة المسلمين ، وإلى تعاونهم على البر والتقوى ، حتى يعودوا كما يحب لهم الله ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ... ﴾ تحمل لإخوانها فى الإنسانية نور الله ﴿... **كمشكاة فى مصباح، المصباحُ فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكبٌ درِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية** ... ﴾ .

والله وحده الموفق والمستعـــان .

* * *

مقدمة كتاب

الاقتصاد العالمي بين الإشتراكية والإسلام

بعض هذه الفصول طالعتها إبان صدورها فى مجلة البعث الإسلامى ،وكنت أتشوق لمتابعتها وقراءتها مجتمعة ثم شاء الله أن أكتب مقدمتها – فى الترجمة العربية – فتفرغت للاطلاع عليها جميعاً ، وكانت فرصة ماتعة للاحاطة بمبادئها وغاياتها وهى متصلة الحلقات ، يوضح بعضها بعضاً ، ويمهد بعضها لبعض ...

وعلى الرغم من أنها كتبت قبل الكثير من التطورات الأخيرة التى انتابت الأوضاع الدولية ، والأفكار العالمية ، والتنبهات الإسلامية فى أوساط المثقفين وأولى العلم ، فقد اشتملت على الكثير من الحقائق الأساسية الكشافة لحقيقة الفروق القائمة بين الإسلام والاشتراكية .. وإنما نظمت هذه البحوث – فيما يبدو لى – لمناقشة المخدوعين بأضاليل الاشتراكية من أبناء المسلمين ، الذين أُخذوا ببريقها الخادع ودعاياتها النفسية المركزة ، وبخاصة فى شبه الجزيرة الهندية ، وهم كما يستخلص من إشارات الكتاب ، لم يقبلوا على هذه المذاهب الدخيلة كفراً بدينهم أو إيثاراً لها عليه – فى بادىء الأمر – بل كانوا مدفوعين إلى ذلك بباعث الجهل لحقيقة الإسلام أولا ، ثم امتلاء الذهن بالأحلام الزائفة التى صورت لهم تلك النحل الشيطانية فى قمة الحلول العادلة لمشكلات البشرية .. ولهذا عنى المؤلف المؤمن – رحمه الله – بعقد المقارنات الدقيقة بين واقع الاشتراكية – على اختلاف ألبستها – ومثاليات الإسلام الذى يهدى دائماً وأبداً للتى هى أقوم .. وليست هذه القضية فى تقويمها الحق سوى ظاهرة رائعة من النشاط الفكرى الحى ، الذى ينهض به العقل الإسلامى فى تلك الربوع ممثلا فى التراث الواسع الذى يكتبه علماء الإسلام هناك ، فلا يلبث أن ينتشر فى جوانب العالم الإسلامى كلها كأشعة الشمس ، تشرق على جانب من الأرض ، ثم تمضى فى طريقها لتعمها جميعاً ...

(٢)

لقد دُسَّت الدعوة الاشتراكية على المسلمين ، وهم يتخبطون فى أشراك الاستعمار الذى حطم طاقاتهم ، وسدّ فى وجوههم سبل الحياة الكريمة ، وغشّى أعينهم بطلاء حضارته المشككة فى كل فضائل الوحى .. وكان حملة هذه الدعوة الدخيلة شديدى الحرص على عرضها فى صورة القوة المنقذة من أغلال الذل والتخلف ، إلى جانب حذقهم فى التركيز على النفوس الخاوية من حصانة المعرفة الصحيحة لحقائق الإسلام ، فكان طبيعياً أن يكثر ضحاياها فى أوساط الجاهلين وأشباه المتعلمين ، ولا سيما أولئك الذين تأثروا بأساليب التفكير الغربى الذى لا يتجاوز نطاق المادة .. ومن هنا فتحت الثغور فى صفوف المسلمين لهذه السموم ، حتى بات من غير المستغرب أن تجد إنساناً يجمع فى قلبه بين النقيضين ، فيزعم أنه مسلم وماركسى معاً .. بل بات مألوفاً أن تقرأ وتسمع بذلك الشيء الطريف العجيب الذى يسمونه (اشتراكية الإسلام) فتؤلف فيه الكتب ، وتذاع فيه الأحاديث ، وتلقى حوله المحاضرات والمناقشات .. وفى بعض هذه البحوث علم وفقه ودين ، وبين مؤلفى هـذا الضرب من المصنفات رجال لم تشب أخلاقهم للإسلام شائبة فيما نعلم .. فهم لم يريدوا بما كتبوه نصرة الماركسية وفراخها الإبليسية ، معاذ الله ، ولكنهم رأوا انخداع الشباب حولهم بما نسب إليها من صفات العدالة والانصاف ، فسارعوا إلى عرض عدالة الإسلام العليا تحت الاسم الذى فتنوا به ، ليقرعوا أبواب قلوبهم بحقائق الشريعة الغراء ، ولكنهم مع ذلك مؤاخذون بخطأ التسمية ، لأن شياطين الماركسية ، المزودين بكل وسائل الخداع والاستغلال والتضليل قد عرفوا كيف يستفيدون من هذه العنوانات ، فيوهموا أولئك السذج بأن اشتراكيتهم هى غاية الإسلام ، لأنها السبيل الوحيد لبناء (مجتمع الكفاية والعدل) و(الديمقراطية الاجتماعية) ... ولا يزال كثيرون من الناس يتذكرون تلك الدعاية المركزة التى استمرت على بثها لمدة طويلة إذاعة إحدى الحكومات العربية التى أوقعتها الديكتاتورية فى حبائل الماركسية باسم (الاشتراكية العلمية) مستغلة اسم أحد هذه المؤلفات وشهرة مصنفه الإسلامية ، فراحت تقتطع منه نصاً من هنا ونتفة من هناك ، وعبارة من

هنالك لتعمق فى صدور المضللين من مستمعيها شعور التصديق بهذه الانحرافات الخبيثة ، ولم يمنعها من ذلك احتجاج المؤلف — غفر الله له — يومئذ وتسفيه تصرفها غير الشريف على صفحات الصحف ! ..

(٣)

ولقد كان الجهل بحقيقة الاشتراكية ولا يزال من أكبر المساعدات على انتشارها فى غمار العامة وأشباههم .. إذ كان كل ما يعرفونه من أمرها أنها تنظيم اقتصادى بحت ، يصون للعمال والفقراء حقوقهم فى الحياة وفى ثمرات كدهم من عبث الظالمين من ملاك المال ووسائل الإنتاج .. لا يتجاوز ذلك إلى أى شيء من مقدسات الناس وكرامتهم الإنسانية وتطلعاتهم الروحية .. ولكنهم ما إن أسلموها ثقتهم حتى وجدوا أنفسهم مقطورين بعجلتها إلى أعماق الظلمات ، وإذا هم أخيراً فى أقصى القاع ، لا يملكون قدرة حتى على رفع أبصارهم إلى ما فوق مواقع أقدامهم ، وهناك فقط علموا أن الاشتراكية ليست تنظيماً اقتصادياً صرفاً كما أوهموا من قبل ، ولكنها (دين شيطانى) يريد أن يفرض نفسه على كل مقدرات الإنسانية خلقاً وفلسفة وفناً وأدباً وعلماً وسلوكاً .. ثم يحبسها ضمن أغلال المادة فلا يسمح لها بالتفكير فى ما وراء هذه القضبان من روحانية وألوهية وحشر وحساب .. ثم كان عاقبة ذلك ما نراه من إقدام هؤلاء المضللين على تخريب الحياة كلها بإغراقها فى سيل من الكوارث لا يكاد يتصورها الخيال ، لولا بروزها فى كل مكان تغلغلت إليه سموم هذه الدعوة اليهودية المدمرة ..

ولا جرم أن المؤلف رحمه الله لو امتدت به السن إلى اليوم ، وأتيح له أن يشهد ما شهدنا وتسامعنا به من جنون هذه النحلة الشيطانية وزوابعها المتبرة فى الصين ، حيث قامت زخوف الثورة الثقافية بما عجزت عنه كل الثعابين والجرذان والسباع الضوارى فى سائر أنحاء العالم ، إلى جانب عملها فى المجر حيث سحقت أربعة عشر ألف دبابة روسية أجساد مئات الألوف من الناس الذين جرؤوا على المطالبة بحقوقهم الإنسانية ، ثم فى تشيكوسلوفاكية ، حيث

اقتحمت مئات ألوف الجنود الحمر بآلياتهم الجهنمية أنحاء البلاد ، التى حاولت تحرير نفسها من بعض قيود التبعية الشيوعية ، وفى مصر حيث علق كبار علماء الإسلام ورجاله على المشانق ، لأن الطغمة الماركسية قد أبت إلا إغراق الكنانة كلها فى بحران من الإرهاب لا يتيح لفرد منها أن يحرك لسانه إلا بالهتاف المزور لصانعى الذل[1] .. وفى الشام الجريح حيث دفعت المصفحات – المشتراة بأموال المسلمين لقتال عدو الإسلام – إلى حرم المسجد الأموى تحصد بالرصاص الأحمر القائمين والراكعين والقارئين ، وإلى قلب مسجد سلطان – بحماة – فتهدمهُ على رؤوس العشرات من المصلين العزل إلا من إيمانهم بهذا الإسلام[1] ، وفى العراق من قبُل ومن بعد حيث سُجن الأبرياء ، وأعدم بمحاكم هزلية عشرات الشرفاء ، ودفن فى الرماد أكداس الأحياء ، وأخيراً ما صرنا إليه من هزائم حزيران التى توجت بها الاشتراكية المذلة جرائمها فى تحطيم الطاقات الإسلامية ، والحيلولة بينها وبين الدفاع عن بقية الوطن الإسلامى فى قلب الديار العربية ، ثم ما تواجهك اليوم من عدوان صارخ تجتاح به الوثنية – ومن ورائها أعوانها الطغاة من موسكو وواشنطن وتل أبيب – حرمات الأرض الطاهرة – باكستان – التى أقامها الإسلام لتكون مجال التطبيق العملى لنظامه الأمثل فى العالم الضائع ، فأبى حكامها الزائفون إلا أن يجردوها من كل المقومات الإسلامية ، حتى فتحوا حصونها للاشتراكية الهدامة ، فإذا هى تقتحم القلوب الفارغة من معانيه العليا ، ليكونوا الأدوات المنقذة لأهداف الوثنية الهندية والبلشفية الصينية والروسية ، فيعملوا فى أمتهم من ألوان الفتك مالم يخطر حتى فى تصورات الوحوش الضواري .

أجل .. لو أتيح له أن يرى ذلك وأشباهه من مذابح ومحارق الاشتراكية فى قلب الوطن الإسلامى وما حوله .. لما اكتفى بصفحاته هذه ، ولوجد المجال متسعاً لأضعاف ما كتب ولإيراد أضعاف ما عرض من شواهد ، بل فضائح هذه النحلة الشيطانية ، التى لم يعرف التاريخ قط وسيلة أنجع منها فى الهبوط بمكانة الإنسان إلى أدنى دركات الحيوان ..

---

(١) من عجائب قدر الله أن معظم الذين تولوا هذه الكبائر قد انتهوا إلى مصايرهم العادلة ، فهم بين صريع برصاص غدره ومحكوم بتهمة الخيانة العظمى **﴿ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾** .

(٤)

ومن مقتضيات المقارنة بين الإسلام والاشتراكية أنها تسوق إلى الكلام عن الجانب الآخر من الجاهلية العالمية الجديدة ، وكذلك فعل المؤلف إذ تناول بالنقد العلمى نفسه معايب الرأسمالية وعواقب بغيها الرهيب وأبرز بإنصاف العالم الدقيق دورها فى التمهيد لذلك الطغيان ، الذى هدم السدود الخلقية ، التى أقامها الوحى والحضارة وتجارب عشرات الأجيال من حكماء البشر فى وجه الغرائز المنحطة ، التى فجرتها التحريضات الاشتراكية فى صدور الطبقة العاملة ، فجعلت منها ألغاماً تنسف كل ما بنته الإنسانية من مشاعر الاستقرار والمودة والخير .. وبذلك كشف الستار الموهوم عن مدى القرابة بين الاشتراكية وأختها الفوضوية من جانب ، وبين الرأسمالية الباغية المستهترة من جانب اخر ، إذ تبدو الرأسمالية على حقيقتها الأم الوالدة سفاحاً لكل المذاهب الاشتراكية ، إذ كانت كلها بمثابة ردود فعل لقسود النظام الرأسمالى الذى سيطر على كل شىء ، وأحال المجتمع العامل إلى أرقاء محرومين من كل وسائل الكرامة والعدالة ، فكان لابد لمثل هذا الطغيان المدمر من أن يحرك أولى الفكر للبحث عن أسباب الوقاية من ذلك الوباء الكاسح .. فكانت هذه المذاهب التى أتمت دور الرأسمالية الغربية فى تخريب الحياة البشرية .. لأن من طبيعة الوباء أن يوقظ أقصى طاقات الجسم الموباء ، فيكون رد الفعل لكل صدمة متناسباً مع ثقلها ..

وهكذا قوبل نزوع الرأسمالية إلى التهام كل شىء بالاشتراكية التى تستهدف تجريد الإنسان من كل الوسائل التى تمكنه من السيطرة على أى شىء !..

وبإزاء هذا النقد الموضوعى الرصين المنصف لكلا النظامين الهدامين، يأتى مجهود المؤلف الموفق فى عرض عظمة الإسلام واحتوائه كل الأسباب التى من شأنها حماية الجنس البشرى من الانحرافات المهددة لأمنه .. فبينما تعطى الرأسمالية الفرد كل الحرية فى تسخير القوى الإنسانية لمصلحته بكل الوسائل الممكنة حتى القانون والاحتكار والاستعمار .. والتحكم فى مختلف المرافق الحيوية دون تحديد .. وبينما تقيد الاشتراكية حريته حتى تمسخ إنسانيته ،

وتلغى فطرته ، لتجعل منه أداة إنتاج لمصلحة الطبقة الحاكمة وحدها .. بينما يحدث ذلك يتقدم الإسلام بحلوله العملية المبرأة من كل نقيصة ، إذ يقيم كيان الإنسان على أساس الإيمان بالله رب كل شيء وخالق كل شيء ، فيجمع بذلك أفراد المجتمع البشرى على دستور الأخوة ، الذى يحدد للفرد مجاله الحيوى ضمن مصلحة الجنس كله ، فالفرد فى ظل هذا النظام الربانى مطلق الطاقات ، يضرب فى مناكب الأرض للحصول على الثروة ، ولكنه ملزم الوقوف عند حدود مصادرها المشروعة التى لا ضرر فيها ، ولا ضرار ، وملزم المشاركة فى تأمين كيان الجماعة بأداء حقها من جهده ، ثم بترك ثمار مساعيه أخيراً لتأخذ طريقها إلى التوزع ، فلا تجتمع فى يد واحدة على حكم القانون الانجليزى أو الوثنى .. ولا توقف على الكلاب والقطط على طريقة الحماقة الأميركية .. وفى أثناء ذلك يحرم عليه استغلال درهم واحد من ماله فى امتصاص جهود الآخرين عن طريق استخدامهم لإنماء ثروته بالربا الذى لا يشارك فى أى جهد ، كما يحرم عليه احتكار ضروريات الحياة للحصول على المزيد من الربح ، ويعتبر مجرد كنز المال ، بعزلة عن مجال النشاط ، المساعد على توسيع دائرة النفع العام ، جريمة تستحق العقاب الأليم .. إلى آخر ما هنالك من عوامل التضامن الأخوى ، الذى يضع الثروة على اختلاف صورها فى مكانها الطبيعى ، وسيلة للسعادة التى يستأهلها المخلوق ،الذى أكرمه الله فأسجد له ملائكته ، ونفخ فيه من روحه .

وبمثل هذه الموازنة الرائعة يزيف المؤلف ادعاء أولئك المخدوعين والخادعين الذين يزعمون أن الإسلام هو الاشتراكية ، أو أن فى الإسلام شيئاً من هذه الاشتراكيات التى تدمر هناءة الشعوب ...

* * *

وأخيراً ... إن المدقق فى تضاعيف هذا الكتيب ليقدر للمؤلف المؤمن – رحمه الله – جهده المشكور فى خدمة الحقيقة ، ويتوقع مخلصاً أن يكون عمله هذا أحد المبرات الثلاث التى إذا مات المؤمن انقطع عمله إلا منها – كما ورد فى الحديث الصحيح –.

وأما بالنسبة إلى مترجمه فإلى جانب مشاركته فى الأجر الذى نرجوه له من الله على نقل هذا البحث النافع إلى قراء العربية ، لا يسعنا إلا أن نستشعر الكثير من الغبطة إذ نعتبر عمله هذا إحدى ثمرات الجامعة الإسلامية التى نتوقع لها إخوات وراء أخوات بفضله تعالى ومنه ، إنه نعم الموفق والمستعان ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على مصطفاه الأمين للناس أجمعين .

***

متى يدرك المسلمون أنهم المسئولون ؟

«بالأمس أصدرت محكمتنا العليا قراراً يعتبر عملا غير دستورى كل تعليم دينى يقدم للأطفال فى مدارسنا .. وأن مما يناقض روح الدستور الأمريكى أن ندمج فى برامج التعليم أية معرفة عن الله .. وإنك لترى اليوم خمسة وثمانين مليون أمريكى أى ٦٣٪ من السكان لا ينتمون لأى كنيسة .

وبالأمس كذلك أصدرت إحدى الولايات قراراً حرمت به إعطاء موانع الحمل للفتيات غير المتزوجات وطالبات الجامعة وعلى أثر ذلك ، انعقدت المحكمة العليا بالولاية وأصدرت حكماً بعدم شرعية هذا الحكم ومخالفته لروح الدستور .. »

هذه الفقرات ليست من بنات الخيال ، ولكنها جزء من خبر طويل أثبتته مجلة (دعوة الحق) المغربية فى نهاية صفحاتها التى تنشرها عادة تحت عنوان (من أنباء العالم الإسلامى) .. وذلك فى عدد ربيع الآخر[1] من عام ١٣٩٢هـ ، وقد نقلته بدورها من تقرير (نشرته إحدى المجلات المسيحية على لسان طبيب أمريكى) وكان الأحوط أن تقصيه وأشباهه عن ذلك الجانب الذى يتوقع القارىء أن يكون خاصاً بالعالم الإسلامى – كعنوانه – إذ لولا ماينطوى عليه من ذكر أمريكة والأمريكيين والدستور الأمريكى ، لكان من حقه أن يزلزل أعصاب القارىء المسلم خشية أن يكون بلد من وطنه العالمى قد سقط إلى هذا المستوى الشيطانى ...

وإذا أنعمنا النظر فى محتوى هذه الفقرات الغريبة وجدنا خلاصتها كما يلى :

١ – أن الكيان القانونى لأرق دول العالم المسيحى يقوم على نفى الروح الدينى عن نطاق التعليم ، وتجريد الفرد الأميركى من كل أثر للمعرفة عن الله! .

---

(١) ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولا يقال فيهما الثانى والثانية ، لأنهما لا ثالث لهما .

٢ – أن أمريكة قد بدأت تقطف ثمرات هذا التدمير الروحى بما سجلته نسبة ضحاياه التى توشك أن تأتى على ثلثى المجتمع الأمريكى ! .

٣ – أن حرية الفحشاء فى أوساط الجامعيات وسائر الفتيات الأمريكيات (حق مقدس) لا يجوز لسلطة أياً كانت أن تمسه أو تعترضه .. وأن على المجتمع الأمريكى أن يتقبل بكل تقدير سيل اللقطاء دون أن يسأل عن مصدرهم ! .

ولو أن مفكراً مسلماً قرأ هذا الخبر قبل مئة سنة لا كتفى بإبداء عجبه ، مع الحمد لله على سلامة أمته من ذلك الوباء ، أما الآن ، وقد بات العالم أضيق مساحة من بلدة كجدة ، لا تكاد فتنة تنجم فى زاوية منه حتى تتسرب فى اليوم نفسه إلى سائر جوانبه .. كالحريق يشب فى بيت لعدوك المجاور فلا يسعك إلا أن تتخوف امتداده إلى حجرتك .. أما الآن وبإزاء هذا التقلص ، الذى أحدثه العاكس الفلكى[1] وما وراءه من التلفاز والإذاعة والكتاب والجريدة فى كيان الإنسانية ، فلن يجد هذا المفكر المسلم مسوغاً للاطمئنان على نفسه ، فضلا عن من حوله من أهله ، عندما يقرأ النذر عن مثل هذه الأوبئة .. ومما يضاعف قلقه من زحفها ما يعلمه من تضعضع المعاقل الروحية فى أنحاء الوطن الإسلامى ، بحيث أصبح مكشوفاً لكل وافد من السموم الخانقة ، بعد أن ألقى بأزمته إلى هؤلاء الموبوئين من الغرب والشرق ، يتتبع مسالكهم ، ويعتنق مناهجهم ، ويتخلى لهم عن بقية حصونه الواحد تلو الآخر .. حتى إن جيلا من المَخدوعين بطرائق أولئك الموبوئين قد تكفل لهم بإيصال سمومهم إلى كل عضو من جسم هذه الأمة ، فليس عليهم إلا أن يأمروا ويشيروا فينفذ ، ولو كلفته هذه التبعية بتر كل صلة له بماضيها وتراثها ومقوماتها ، التى بها ثبتت فى وجوه الأعاصير إلى اليوم ..

أجل .. إن سقوط العالم المسيحى شرقياً وغربياً ، لا مناص من أن يجر معه إلى الهاوية سكان الكرة الأرضية جميعها ، لأن هؤلاء قد ارتبطوا بعجلته المتدهورة راضين أو كارهين ، فالمصير واحد للجميع ، وإن تأخر بعض عن بعض .. وقد كان ثمة بصيص من أمل فى بقية رجال الدين فى الغرب ،

---

(١) نريد به التل ستار .

أن يتداركوا الخطر بتنبيه مجتمعاتهم إلى هول الكارثة التى هم فى الطريق إليها .. ولكن هذا البصيص قد انطفأ نهائياً منذ أن قضت اليد اليهودية على سلطان الكنيسة الروسية ، وباشرت التهديم فى أسس المسيحية الغربية حتى فى أوساط رجال الدين أنفسهم ! .

لقد انجرف قسس الغرب مع القطيع الضال ، فبدلا من التشمير لموقف الانهيار أسلموا أنفسهم لما يحسبونه تطوراً لا مندوحة من قبوله ، وهكذا بدأ العالم يرى قُسساً هيبيين ،وقسساً يدعون إلى عبادة الشيطان والمسيح معاً ، وآخرين ينادون بإباحة اللواط ، وبأمر من كُبّارهم تنشأ مشارب الخمر ومحاقل الرقص إلى جانب الكنائس ، استهواء للشباب الذين ضاقوا بطقوس القداديس.

وقد شاء الله أن أرافق ذات يوم قسيساً من هئلاء فى جو الحرية الأمريكية ، فكان أغرب ما سمعته منه هو إيمانه المطلق بحق الإنسان فى تحقيق رغباته دون أن يخضعها لأى اعتبار اجتماعى ؟!(1)

وإذا كان فى هذا كله من دلالة فعلى أن الحضارة الغربية قد انتهت إلى الوضع الذى واجهه العالم قبيل مبعث خاتم النبيين ﷺ الذى يصف ذلك الواقع الرهيب أبلغ وصف حين يقول : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا من بقايا أهل الكتاب(2) وإنما مقت الله عباده أيامئذ لأنهم تخلوا نهائياً عن مقومات الخير ، حتى لم يبق فيهم من يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر ، سوى أفراد من حملة العلم الربانى لا يكاد يستجيب لهم أحد » .. وهل نحن فى حاجة للتوكيد على دقة المطابقة بين اليوم والأمس .. بين ذلك الانهيار العالمى الذى شهدته إنسانية ما قبل البعثة الإسلامية ، وانهيار اليوم الذى نشهده ، ونلمسه فى تداعى الكيان الغربي ، الذى يزلزل الأرض تحت أقدام البشرية ! .

لقد بدأت المؤتمرات السليمة تسجل هذه الحقيقة ، حتى فى قلب المعترك الغربى ، فتنطلق بعض الألسنة بالتحذير من هول المصير ، وقد كانت هذه الألسنة صريحة فى تحذيرها ، فلم تعمد إلى الرمز والألغاز ، بل كشفت للعالم معالم الكارثة بما سمته (سقوط الغرب) و(سقوط الحضارة) وما إلى ذلك

---

(1) فى العدد ٣٢٥٥ من/ الشرق الأوسط . في ص ١٦ من العدد ٣٢٥٥ من الشرق الأوسط خبر عن تقرير جاء فيه أن واحد من كل ٣ من رجال الكنيسة مصابون بالشذوذ .

(2) رواه مسلم فى حديث طويل

من مؤلفات كانت جديرة بإيقاظ الوعى فى قلوب الشعوب ، لو أبقى لها الانسياق الضرير خلف الغرب قدرة على التفكير الصحيح ...

ولقد كان بين المفكرين بعض الخلاف حول الصلة بين ديمقراطية الغرب وشيوعية الشرق ، من حيث المصدر والأثر .. وكثيرون يحسنون الظن بأنظمة الغرب لما توفره من حرية التحرك للإنسان الغربى ، على خلاف ما يعانيه إنسان الشرق – الشيوعى – من ثقل الأغلال التى تسلبه كل حق إلا حق الخضوع للطغمة الحاكمة .. وقد نسى هؤلاء وأولئك فى معترك خلافهم أن الشيوعية ليست إلا قمة الانهيار الذى يسوق إليه فساد التصور الدينى ، الذى يحجب الفطرة البشرية عن نور الله ، ويصرفها عن الطريق القويم إلى سعادتها الحقة .. وقد أثبتت شواهد الحياة فى مختلف أحقاب التاريخ أن هذا الإنسان لا يعرف الحرية الصحيحة والاطمئنان النفسى إلا بقيادة النبيين وأتباعهم من المصلحين ، وأن كل زيغ عن طريقهم مهما يكن قليلا مؤد به إلى أسوأ العواقب ،فكيف به حين يعرض كلياً عن دعوتهم ويلقى بنفسه فى أحضان الشياطين ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً !..

يمكن للإنسان أن يوغل فى مجاهل الكون حتى يستكشف كل مخبآته ، فيسخر الهواء ، ويمتطى ثير ، ويقصر المسافات .. ويتضخم شعوره بذاته حتى يمسى كالبالون البالغ حدود الانفجار .. ولكن إنسان الآلة هذا لا يعرف السبيل إلى مصلحته ، بل إن كل مجهوداه ستتجه به إلى تدمير نفسه فى النهاية .. ولا غرابة ولا عجب لأنه تمرد على السنن الكونية ، فأصبح وجوده كالقاطرة التى يقودها سكران .. وهذا ما صار إليه ذلك المخلوق الضائع فى صحراء الحضارة الغربية .. آمن بالمادة وكفر بخالقها ، فجنى بذلك على جنسه ، إذ فقد نعمة الاستقرار والأمل بما وراء المادة .. وما أحسب عبارة أصدق تصويراً لهذا الضلال الشقى من قول نيكسن – رئيس الولايات المتحدة – السابق فى بعض أحاديثه عن المجتمع الأميركى : (نحن أقوى دولة فى العالم ، ولكن فى أعماقنا مرضاً خفياً ، يمزقنا من الداخل) وأى مرض أفتك فى كيان مجتمع من هذا الذى يصوره ذلك الطبيب – الذى نقلنا بعض كلامه عن (دعوة الحق) – حين يقول فى تقريره ذاك : (إن الممثل الهزلى يتقاضى مليون دولار فى العام ، على حين لا يزيد دخل الأستاذ فى مدرسة عالمية عن ألفى

دولار ، وبلغ عدد القتلى فى حرب فيتنام خلال تسع السنوات ثلاثة وأربعين ألفاً ، فى حين أن ضحايا السائق المخمور فى شوارع أمريكا بلغت أربعة وعشرين ألفاً فى غضون هذه المدة ، وقد كشفت الإحصاءات عن أن عشرين ألفاً يقتلون سنوياً بإطلاق الرصاص عليهم ...) .

على أن أفجع المفارقات فى هذا المجتمع المريض هو أنه كلما أوغل فى شقائه أسرف فى البعد عن أسباب شفائه ، حتى ليجعل تجهيل الأجيال الناشئة بربها ، وإقصاءها عن معرفة خالقها عنصراً أساسياً فى دستوره ، يحميه القضاء ، وتحرصه الدولة ..

وطبيعى أن مرض الكفر والتجهيل ليس مقصوراً على أمريكا والأقطار الشيوعية ، بل هو طابع الحضارة المادية فى سائر مصادرها الغربية .. وحسبنا أن نشير هنا إلى تلك الظاهرة المذهلة التى تجلت فى بعض كبريات الصحف الفرنسية يوم زيارة بابا روما لفرنسة ، إذ كتبت بالخط الطويل العريض ، وفى صدر صفحاتها الأولى : (ألفا سنة من عمر الكنيسة تكفى ..) وليس ذلك إلا ترجمة لمشاعر ملايين المثقفين فى فرنسة وأوربة تجاه المسيحية ، يعلنون بها أن المسيحية - لا الكثلكة فقط - قد استنفدت أغراضها ، فلم يعد للمجتمع بها من حاجة ! .

* * *

وأخيراً .. هل يعنى ذلك أن الأضواء قد انطفأت كلها ، فلم يبق للبشرية من رجاء فى معرفة سبيلها الراشد !!

قد يكون الرد على هذا التساؤل إيجابياً لدى الكثرة من الناس ، لأن اليأس من قدرة العقل البشرىّ على الوقوف بوجه القاطرة الهاوية قد بلغ ذروته فى نفوسهم .. ولكن لن يكون كذلك عند أولى العلم من بقايا المؤمنين فى عالم الإسلام ، بل إن تزايد الظلمات فى حياة البشرية من شأنه أن يزيدهم ثقة بأن خلاصها موقوف عليهم ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، وحَمَلَةُ مشاعله التى أعادت للأرض نور ربها من قبل ، فكما أنقذت سفينة الإنسانية من الدمار فى فجرها المشرق ، فَهَدَتها إلى

مسالك النجاة ، كذلك هى اليوم ، لا تزال مسؤولة عن مهمة الإنقاذ للقاطرة التى أصبحت على قاب قوسين من الكارثة ..

أجل .. إن أمراض المجتمعات المادية شرقية وغربية لا شفاء لها إلا فى صيدلية الإسلام .. ولكن أين هم الأطباء الذين يحسنون إقناع المرضى بهذه الحقيقة ؟!.. ومتى يدرك المسلمون أنهم المسؤولون عن مصير هذه الإنسانية الضائعة أمام الله .. ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ ؟!.

* * *

لكي نرتفع إلى مستوى المسئولية

فى فجارى التاريخ مراكز انطلاق أشبه بأجهزة التقوية فى طريق التيار الكهربائى ، ماإن ينتهى إليها كل منعطف حتى يستأنف سيرته بنشاط مجدد ، ولكن كثيراً ما تشتبه المسالك على بعض البشر فيتوهمون كل منعطف نقطة اندفاع إلى الأعلى ، ثم لا يتبينون خطأهم إلا بعد فوات الأوان .

ولقد تحقق لدَى أولى العلم بعد المرير من التجارب أن مراكز الانطلاق الصاعد فى مراحل التاريخ البشرى ليست سوى تلك الانفجارات النبوية التى أقامها الله ضُوى مضيئة فى طريق الإنسانية ، تحدد لها خط السير الأمين ، وتكشف لأعينها ما انطمس من معالم الجادة بين الحين والحين ، وقد شاءت عناية الله بالجنس البشرى أن تتابع عليه أضواء السماء منسكبة من مشكاة النبوات عبر التاريخ ، يحمل كل نبى رايتهـا فى نطاق قومه ،فيُعدونهم بذلك للتلاقى تحت لواء خاتم النبيين ﷺ الذى عَيَّنَ اللهمهمتـه منذ أنزل عليه فى محكم كتابه المبين : ﴿ **وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ .

وهكذا كان مبعث هذا النبى الحبيب مبدأ الوحدة الإنسانية التى جعلها الله الغاية الحتمية لكل تطور حضارى على هذا الكوكب .. وبذلك احتلت منه مركز القيـادة العالمية ، إذ أصبحت مناط رجاء الإنسانية كلها فى توطيد الاخوة والإجهاز على حُمى العصبية والطائفية ، التى من شأنها أن تحول دون كل استقرار أو سلام .

ولقد فهم المؤمنون الأولون من عرب الجزيرة هذه الحقيقة ، فأدركوا عِظَم الدور الذى اختارهم الله لأدائه .فوهبوا لهأنفسهم ، ووقفوا عليه وجودهم ، واندفعوا بلواء السماء يردون للفكر المقيد حريته ، ويُعيدون للشعوب الضالة اعتبارها ، وينفضون عن المرأة – وهى نصف الإنسانية – غبار الحقارة والهوان ، ويصرخون برجال الدين المتآمرين مع ا لظالمين : ارفعوا أيديكم عن المظلومين ، فليس الدين استثماراً ولا استغلالاً ، ولكنه أخوة

ورحمة ومساواة ، ثم يهيبون بجزارى الأمم من الحاكمين : إنما هؤلاء عباد الله : « ابتعثنا لإخراجهم من عبادتكم إلى عبادته وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » وسرعان ما تبدلت المفهومات فى ظل هؤلاء المنقذين ، فإذا البشرية المعذبة تفتح أبوابها لهم ، وتتسابق إلى الاستظلال برايتهم ، وتتهافت فى لهفة وظمأ على عقيدتهم ، فتشرق الأرض بنور ربها ، وتعرف البشرية لأول مرة عن طريق هذه الأمة الجديدة معنى الأخوة والحرية والإنسانية .

وكان طبيعياً أن تستمر الشعلة الإلهية فى التهابها ، لولا أن كواهل العرب تعبت ذات يوم من أعباء المجد ، فوسوس لهم الشيطان أن يستريحوا فى منحدرات الإثم ، التى جرفت الأمم قبلهم ، فإذا هم مقبلون على السموم المختلفة الألوان والأسماء يتجرعونها مجوناً يقتل الرجولة ، وخلاعة تحطم الأخلاق ، ونظريات مزوقة تشل العقول وتفسد القلوب ، وتحجب عن الفطر الصافية أشعة الوحى !..

ولابد لكل انحراف من جزاء وهكذا جاء تأديب السماء نكبات جائحة من وراء الحدود ، ومؤامرات كاسحة من داخل السدود ، تندفع لتتعاون مع الغزاة الغرباء على تقويض كل ما شيَّده الآباء !..

ولكن الله شاء أن تتحقق الأعجوبة ، وذلك أن الإسلام الذى لملم ظلاله عن بعض المناطق ما زال باقياً يزود الثابتين من المؤمنين بالمدد الذى لا ينفد حتى انجابت ظلمة الصليبيين بالجلاء ، وانتهت فواجع التتار إلى أغرب انتصار إذا ابتلعتهم لجج الإسلام ، فاستحالوا من غزاة يدمرون ويفتكون إلى مؤمنين مجاهدين يحملون راية السماء إلى مناطق جديدة من الغبراء .

ونحن لو وقفنا قليلا على أحداث التاريخ هذه نُنعم النظر فى أسرار كل نكسة ونبضة ، لرأينا كلا من هذه وتلك عائداً إلى قانون ربانى محكم ، ترتبط نتائجه بمقدماته ، ارتباط السبب بمسببه ، دون خلل أو تخلف ، فكل انحراف عن طريق الله مؤد إلى الهاوية التى لا مخرج منها ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ ولا خلاص من ذلك الشقاء إلا بالعودة إلى مخطط السماء ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى**

عزيز ﴾ ومهما أجلو لك الليل فالطريق إلى النصر مفتوح ، ولا ييأس المؤمن من رحمة الله متى أخذ نفسه بطاعته ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ .

ولقد ينفعنا اليوم ، والإسلام يخوض إحدى معاركه التاريخية الكبرى ، أن ننظر فى عوامل النصر الذى انتهت إليه معاركنا مع التتار والصليبيين ، بعد تلك العوامل الانتكاسية التى مكنتهم قبل ذلك من اقتحام الوطن الإسلامى . وفى اعتقادى أننا لن نلبث إلا قليلا حتى نرى أنفسنا تلقاء صورتين لا ثالثة لهما .

أما إحداهما فقيادة عسكرية يوجهها صفوة أبطال الإسلام : « عماد الدين زنكى وابنه الشهيد نور الدين وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومن دار فى فلكهم وتفاعل بطريقهم من جنود الإيمان .. ثم قيادة فكرية تتركز فى الصفوة من أبطال الشريعة كابن تيمة والعز بن عبد السلام ، والعديد من الذين عاشوا فى جوهما الروحى ، الذى ألهب المشاعر ، وفجر الطاقات ، وعبأ قوى الأمة للنضال الظافر .

إن ذلك التعاون المحكم بين سلطان الشريعة ، الذى احتل مركز الأمر المطاع وبين القوة الضاربة التى وقفت عند حدود التنفيذ الحازم لأحكام الشريعة ، هو الذى ضبط الأمور ونظم القوى ، ومن ثم وضع طاقات الأمة كلها فى طريق النصر ، وطبيعى أنه لولا هذا التجاوب الفعال بين الجانبين لاستحال على أيهما منفرداً أن يثبت يومئذ فى مهب تلك الأعاصير وقتاً طويلا ، ولقد جربنا هذا الضرب من التعاون فى معاركنا المعاصرة ، جربناه فى الكفاح الطويل الذى خاصته الجزائر طوال عهد الاستعمار الفرنسى ، وبخاصة فى ثورتها الأخيرة التى كان وراءها عبد الحميد بن باديس ورجال مدرسته المجددة من علماء الجزائر .. وجربناه فى فلسطين التى لم تخسر معركتها إلا بعد أن استُبعد الإسلام عن مركز القيادة فى كفاحها ضد الصهيونية والاستعمار ، وكذلك جربناه فى مراكش وتونس وطرابلس ومصر وفى أفريقية السوداء ، فكانت الدلائل قاطعة مانعة على أن الروح الإسلامى هو القوة التى لا غنى عنها فى معارك الحرية ، والعامل الذى لا مثيل له فى تعبئة المشاعر ، وتوطين النفوس على الصبر المحقق للنصر ...

وإذا كان فى وقائع التاريخ من عبر يستنطها الدارسون ، فالعبرة التى يجب على العرب والمسلمين أن يتعلموها من تاريخهم هذا هى أن كل محاولة لعزل الإسلام عن

نضالهم فى سبيل أهدافهم العليا إنما هى لعبة فاشلة ، لا حصيلة لها سوى تفريغ جهودهم من المحتوى الروحى ، الذى لا بديل عنه فى تحقيق العظيم من الأهداف .

هذه حقيقة لا يجوز أن تغيب عن أذهان العاملين فى ميدان الإصلاح الاجتماعى والسياسى لهذه الأمة ، وهى أحق بالاستحضار فى هذه المناسبة المباركة ، مناسبة ميلاد الرسول ﷺ الذى به دخل العرب أبواب التاريخ العالمى ، وبه بدأت الإنسانية على أيديهم تاريخها الصاعد .

إن العالم الإسلامى ليستقبل هذه الذكرى العزيزة وهو يترنح تحت ضربات النوازل .. ولكنه على الرغم من ذلك محتفظ بصبره ومؤمن بأن المستقبل للإسلام .. هذا النظام الذى يثبت التطور البشرى كل يوم أنه هو وحده الحقيقة الكبرى التى تنطوى على أصح الحلول لمشكلات الإنسانية جميعاً .. وهو مؤمن كذلك بأن هذا الإسلام كدأبه ، سيبتلع اليسارى من أبنائه الذين يعادونه اليوم لجهلهم بفضائله ، كما ابتلع من قبلهم الملايين من الذين خيل إليهم أنهم قادرون عليه ، فأتاهم من حيث لم يحتسبوا ، وإذا هم بين عشية وضحاها من أصدق أوليائه وأخلص أصفيائه .

وجدير بشباب الإسلام فى غمرة هذه الذكرى المجيدة أن يشّحذوا عزائمهم لاستئناف الكفاح الذى يدعوهم قائدهم المصطفى لخوضه ، إذ ينبئهم بأنهم لابد مقاتلو اليهود فقاتلوهم ، وإذ يبشرهم بأنهم لا محالة مجددون للزحف المقدس حتى يفتح الله عليهم رومة ، كما فتح على أسلافهم القسطنطينية . لقد بشَّر النبى ﷺ آبائنا الأولين بافتتاح مكة والشام ومصر وعاصمة هرقل ، وبالانتصار على فارس والروم ، فما ارتابوا بما سمعوا على ما فيهم من ضعف فى العدد والعدة ، بل أخذوا فى إعداد أنفسهم لتنفيذ المخطط السماوى بكل ما استطاعوا من جهد ، وإننا لنقرأ اليوم فى أحاديثه الثابتة ما يبشرنا بالانتصار على اليهود ، وتحطيم الاستعمار الغربى فى صميم قلاعه ، فما ينبغى أن يشغلنا ضعفنا الحاضر عن التفكير بذلك المستقبل الباهر .. ولتكن المحن التى نمر بها هى المصهرالذى يصفى العزائم ، ويحرق عوامل الضعف ، ويمكننا من الارتفاع إلى مستوى المهمة التى وضعها على عواتقها هذا النبأ العظيم .. وبهذا الإعداد وذلك التصميم نحقق لصاحب الذكرى الحبيبة أفضل ما يرضيه من التكريم ، وبعض ما يستحقه من التعظيم .

فاللهم صل على محمد فى الأولين والآخرين واجعلنا بهديه عاملين وبرسالته جديرين .

ياحكام المسلمين ... أجيبوا داعيَ الله

لعل بعض القراء يقفون مترددين أمام الوقائع التى أوردها بيان الأمين العام الخاص بالعلاقات الخارجية لجبهة مورو ، والمنشور فى مختلف الصحف العربية مؤخراً ، إذ يخطر فى بالهم أنها كغيرها من ظواهر الدعايات القائمة على التضخيم ، وما هى فى الحقيقة سوى خطوط مصغَّرة لحقيقة لا تتسع لها البيانات .

لقد شاء الله أن أطالع هذا البلاغ بعد ساعتين فقط من سماعى وصفاً شفهياً لبعض ما يكتنف مسلمى الفلبين من أهوال ، فكان ذلك هو الباعث لكتابة هذه الكلمة التى أخَّرت من أجلها الكثيرَ من أعمالى الهامّة .

لَم يمض على وصول محدثى من الفلبين سوى أيام ، وقد جاءنى لدراسة مؤهلاته وتعيين مكانه من مراحل الجامعة الإسلامية ، فما إن استشعر اهتمامى بأنباء بلده حتى غلبه الدمع وراح يفضى إلىَّ بالرهيب الغريب من مآسى ذلك البلد الإسلامى السليب .

يقول هذا الفتى : إن قوات ماركوس ماضية فى انتهاك حرمات المسلمين والتنكيل بهم ، فى وحشية لا يمكن وصفها فهى لا تكتفى بقتلهم بل تحرق بيوتهم ومساجدهم وتتلف مصاحفهم لتمحو آثار وجودهم ، وقد تألفت من هؤلاء القتلة منظمة سرية باسم (باليك بيان) تخرج تشكيلاتها ليلاً إلى مناطق المسلمين ، فإذا أقبلوا على البيت بادروا أهله بالتحية من الخارج ، وما إن يفتحون لهم الباب حتى يفاجئوهم بالرصاص فيأتوا على آخرهم .

ويمضى هذا الأخ فى حديثه المثير ، فيذكر أن هذه السلطات الباغية زيادة فى التضييق على المسلمين قد أحاطتهم بضروب من الحصار توشك أن تقضى عليهم بغير قتال ، ذلك أنها قيَّدت حركتهم فلا تسمح لأحد منهم بمغادرة

منطقته إلى سواها، حتى الصيادين حظرت عليهم الخروج إلى البحر، والفلاحين منعتهم الوصولَ إلى حقولهم، وهذا الحصار قائم فى كل مكان يقع تحت سلطات هؤلاء البغاة من ديار المسلمين هناك .. وقد امتد إلى مصادرة الأفراد لمجرد التوهم، أو لعلاقة بعض أقربائهم بحركات المجاهدين، من ذلك اعتقالهم السيد عبد الغفور ألنتو محافظ لاناو الجنوبية، لأن ولده أبا الخير يقود مجموعة من المجاهدين، والسيد ليمفى لأن زوج ابنته يعمل فى صفوف المجاهدين أيضاً .

وعلى الرغم من كل هذه الأهوال لا يزداد المجاهدون إلا اندفاعاً واستماتة لأنهم موقنون أنهم إنما يدافعون عن الإسلام، وعن بقائه فى هذه الديار، كما فعل أجدادهم فى مواجهة الغزو الأسبانى الأول .. وقد ملأتهم التجارب المرة إيماناً بأنهم تلقاء أمرين لا ثالث لهما : الخروج من الإسلام إلى النصرانية، أو القتال حتى الموت أو النصر، فآثروا الأخرى حفاظاً على أمانة الله وإبتغاء مرضاته .

وهكذا تتفاقم المعارك ويتساقط الشهداء زرافات ووحدانا ..

ويتابع الأخ الفلبينى فيقول : قبيل مغادرتى البلاد أغارت مجموعة من المجاهدين بقيادة أحد أبنائكم من خريجى كلية الدعوة بهذه الجامعة، على معسكر لقوات ماركوس وكادوا يتغلبون عليه، لولا وصول الطائرات والدبابات لنجدته، فاضطرت إلى اللجوء للغابات تاركين للعدو دورهم وأموالهم، فلم يدع بيتاً إلا أحرقه ولا مالاً إلا انتهبه، ولا متخلفاً لعجز إلا قتله .. ولا يزال المجاهدون معتصمين بغاباتهم، مهددين بالموت يقتحم عليهم من الجوع أو من العدو بين الحين والآخر ..

ويقص الفتى علىَّ قصة خِرّيج آخر من أبنائنا يتولى قيادة إحدى فرق المجاهدين الذين ينزلون بعدوهم ألوان البلاء، ومن ذلك غارة قام بها ومن معه من المؤمنين على تشكيلة عسكرية فى منطقته (كلا لا نؤان لاناو الجنوبية) فأوقعوا بها خسائر فادحة فى الأنفس ولم يفقدوا سوى شهيدين .

ويردف الفتى هذا الخبر بقصة واحد من خريجى الأزهر يقود شلة أخرى من هؤلاء الأبطال وقد تمكنوا من القضاء على العديد من أفراد العدو فى إحدى المعارك دون أن يفقدوا أحداً من أفرادهم ولله الحمد .

ويقول : لقد أزعج ماركوس جداً أن يتولى علماء الإسلام قيادة هؤلاء المقاتلين ، فهو لذلك يضاعف من ضغطه على أهل العلم ، ويتخذ مختلف الوسائل لرصد تحركاتهم والحيلولة بينهم وبين المجاهدين .

وفى صعوبة بالغة استطاع الفتى أن يمسك بقية دموعه من التدفق ، ويضغط على أنفاسه ليخفى ما اعتراه من لذع الأسى على أهله ودينه ووطنه ، حتى لم نكد نملك أنفسنا نحن السامعين فملأت الغصة صدورنا وفاضت بالدموع أعيننا .

ولكن .. لا مندوحة هنا عن التساؤل : أهذا كل ما ينتظره منا — نحن العرب المسلمين — ضحايا التعصب الصليبى فى عذراء ماليزية ؟.. أو هذا كل ما يفرضه علينا الواجب نحو هؤلاء المعذبين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم من المسلمين !..

لقد عرض هؤلاء المظلومون قضيتهم على مختلف المؤتمرات الدولية الإسلامية ، وفصلوا لإخوانهم الكثير من جوانب المأساة التى يعانونها ، وذهب أكثر من وفد إسلامى إلى مناطقهم لاستقصاء الحقائق على الطبيعة ، فلم تستطع مغريات ماركوس ومضللاته أن تحجب ذلك الواقع الرهيب عن أعين هؤلاء الوفود ، بل وضعت أيديها على الكثير مما يكفى لتحريك الضمائر وإلهاب المشاعر .. ومع ذلك كله لم نر أى رد فعل عملى لهذه الوفادات .. اللهم إلا زيادة التقارب بين حكومة ماركوس وبعض حكومات المسلمين ، وبخاصة فى مناطق النفط العربى ، حيث وجد ماركوس ألواناً جديدة من المساعدات التى تضاعف من قدرته على تقتيل المسلمين وتدمير ديارهم ..

فهل يعنى ذلك أن المسلمين قد بلغوا من العجز حداً لا يملكون معه نفعاً ولا ضراً ؟! أو أن القلوب قد تحجرت حتى لم يعد من سبيل للشعور بأخوّة الإسلام ؟ .

لقد أوضح رسول الله عناصر هذه الإخوة بصورة لا تدع مجالاً للاعتذار عن أى تهاون بحقها حين قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ... » ولا ريب أن من أكبر الخذلان لأولئك المعذبين من أمة محمد ﷺ ألّا نشعرهم بعطفنا ، وألّا نهب لنصرتهم بكل ما نملك من أسباب

القوة ، ولقد أثبتت الأحداث أن فى أيدى المسلمين من الطاقات ما يمكنهم من التأثير فى مجرى السياسة الدولية ، و تعديل الكثير من الوقائع التى تعارض مصالحهم ، وليس النفط الذى يملكون معظم مخزوناته الكونية سوى واحد من هذه الطاقات التى ائتمنهم عليها ربهم ، لينظر كيف يعملون ، فإما أن يستغلوها فى نصرة دينه ونجدة المظلومين من عباده فيحفظها عليهم ، ويزيدهم من فضله ، وإما أن يسيئوا استخدامها فيسلبهم إياها وتكون فى النهاية - لا سمح الله - وبالاً عليهم أى وبال .. وقديماً أعطى سليمان - عليه السلام - ملكاً لم يتح لأحد من بعده ، فلم يزده إلا تواضعاً لله وتقديراً لحقوقه فقال : ﴿ **ذلك من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ...** ﴾ .

قبل شهر أعلن كسينجر بتأييد من فورد أن لأمريكة مصالح لابد من مراعاتها عند توزيع المعونات السنوية ... فكل دولة لا تقيم لهذه المصالح وزنها لن يكون لها حظ فى معونة أميركة ، فلماذا لا نتعلم من أميركة فنقول لماركوس وأضرابه فى تايلاند وسيلان وبلغارية وبورمة .. وكل بلد يضطهد فيه المسلمون : إن نفطنا وأموالنا رهن بمصالح المسلمين ، فلا حظ فيها لظالميهم وسالبى حرياتهم وأموالهم ؟ .

لقد جربنا هذا المبدأ الحازم مرة قبل سنوات ، فأعطانا من الثمرات فوق ما كنا نتصور ، إذ زلزلنا به أركان العالم كله ، وحتى الذين كانوا يعيشون فى أولمب الدول الكبرى راحوا يلتمسون عطفنا ، ويخطبون ودنا ، ثم ما لبثنا أن حشدنا عن هذا الطريق معظم أعضاء الهيئات الدولية لتأييد قضايانا الحقة فى كل مكان ، أفلا جربنا هذا السلاح القهار مرة أخرى فى وجوه هؤلاء الطواغيت ، الذين يريدون القضاء على إخواننا الذين هم - لو أحسنا رعايتهم - أحد مصادر القوة التى تدعم وجودنا فى العالم ...

ماذا ننتظر فى شأن هؤلاء المظلومين ؟.. وحتام نتردد فى إعلان احتجاجنا على ظالميهم !.. لقد تكلمنا حتى اليوم أكثر مما يجب ، فحان لنا أن نترجم مشاعرنا بعمل حاسم نكره به أولئك الطغاة على إنصافهم ..

إن الفرصة لا تزال سانحة أمام القادرين من حكام المسلمين على تحقيق هذه المأثرة الخالدة .. فليعلنوها إرادة حاسمة تؤكد لماركوس وفيرانه وأضرابه

من الطواغيت أن المسلمين لا يزالون على ما وصفهم نبيهم : « كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ولتكن الخطوة الأولى فى هذه السبيل قطع شريان النفط الإسلامي عن آليات ماركوس ، فإن كل قطرة منه تتسرب إلى الفلبين إنما تشكل جزءاً من طاقة التدمير التى يصبها القتلة الغاصبون على ديار المسلمين .

إن دول أفريقية كلها تقف وراء المظلومين من أبناء روديسية ومانيبية ، معلنة دون مواربة إمداد محاربيهم بكل ما تملك من دعم مادى ومعنوى ، فما الذى يمنع دول المسلمين من إعلان تأييدها المطلق لأولئك المضطهدين المعذبين من مسلمي الفلبين وتايلاند وبورمة وسيلان وبلغارية والأريتيرية .. وإمدادهم علانية بكل ما يعينهم على استخلاص حقوقهم ، ومنع مضطهديهم كل معونة أو معاملة تزيد فى قوتهم ...

يا حكام المسلمين .. الذين مكّن الله لهم فى الأرض وآتاهم من فضله ما به يؤثرون فى موازين العالم .. أجيبوا داعى الله وقيدوا نعمه عليكم بنصرة هؤلاء المظلومين من إخوانكم ..

إن الإسلام مهدد بالزوال فى تلك المناطق المنكوبة ، فلا تؤخروا نجدته ولا تمكنوا أعداءه من اغتياله = كما اغتيلت الأندلس من قبل - وأنتم تشهدون ...

ولسوف تسـألون ...

* * *

دعوة إلى المباحث

كانت جولة غير ممتعة .. فعلى الرغم من لقائى أكثر من يهمنى أمرهم من الأقرباء والأصدقاء ، لم أشعر بأى أثر من ذلك الانفراج الروحى ، الذى كنت أعود به قبل سنين ، كلما اقتطعت من اجازتى الصيفية بعض الأيام لمثل هذه الجولة فى مدن الساحل.

إن مرد ذلك أو معظمه للجو السياسى ، الذى غير إحساس الناس بالحياة والأحياء وشغلهم بالصراع الاجتماعى ، الذى شحن النفوس بالخوف والحقد والشر ، حتى أوشكت النفس الواحدة أن تنقسم على ذاتها ، فيكره بعضها بعضاً ، ويخشى بعضها بعضاً ، فلا يكاد المرء يلمح طيف الابتسامة العفوية على وجه ، لكأن عضلات الابتسام قد فقدت خاصيتها ، فلم تعد قادرة على الحركة ، أو لم تعد تجد ما يحركها من الداخل أو الخارج .. .

وكنت أثناء عودتى ، من مسقط رأسى طرطوس إلى مستقرى باللاذقية ، أحس غير قليل من التوقيعات الغامضة ، ولا عجب فالعمل الذى عرضت نفسى له ليس بالأمر السهل الذى من شأنه أن يمر دون حساب .. إن أقل ما ستصفه به تقارير رجال الخفية كونه تهجماً فوق المعقول على نظام الحكم ، وانه لذلك حقاً .. ألم أصرح بالانكار لسياسة المسابح المختلطة ، التى تحدثها الدولة على امتداد هذا الشاطىء الشامى الجميل !.. ألم أسمها مذابح الأخلاق !.. ألم أكشف لرواد المساجد ، وبخاصة فى طرطوس ، عظم الأخطاء التى تدفع المسئولين إلى إنفاق الملايين على تدنيس الشواطىء ، واجتثاث بقية الحياء ، فى حين تصرف البصر عن مآسى مئات الأسر من الفقراء ، الذين يقتلهم المرض والجهل والحرمان .. ولا يكلف إنقاذهم ، وإعطاؤهم حق الحياة الإنسانية ، أكثر من المبالغ التى تصب فى هذه المبالع .

ومتى كان لمثل هذا النقد الصريح مكان أو احترام فى ظل الحكم الاشتراكى ، الذى لا يستطيع تحقيق سعادة الناس إلا بعد إراحتهم من عبء التفكير أو استعمال اللسان فى غير واجبات الإطراء لعباقرة النظام !..

ولقد كان فى وسعى أن أسلك سبيل الناس ، فأشاركهم بما أرضى ، وأتعامى عما لا أرضى .. ولن يكلف الله نفساً إلا وسعها .. غير أنى امرؤ طبعت على الفضول ، فلا أملك منع عقلى من التفكير فى أحوال الناس ، ودأبت منذ ثلث قرن على خدمة الكلمة المسلمة ، أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو تذكيراً بحق ، أو دعوة إلى خير .. حتى صار ذلك جزءاً لا يتجزأ من كيانى ، ولو كلفنى ألوان البلاء من السجون والاعتداء ، وحتى المحاربة فى الرزق .. ومن هنا أصبح مثل هذا التعرض للمسئوليات ، بالنسبة إلىّ ، خلقاً لا سبيل إلى تجاهله أو عصيانه ، كائنة ما كانت عواقبه ، لأن الموضوع ليس خاضعاً لمعايير الربح والخسار ، بمقدار ما هو حافز نفسى يفرض سلطانه دون أن يكون لى بإزائه أى خيار .

ثم إنى إلى ذلك من أعلم الناس بحساسية الأوضاع ، التى لا يمكن أن تتسع لأى نقد ، بعد أن استمر سلطان الحزبية الثورية ، التى لا تتورع عن سحق أى بادرة من هذا النوع ، لقد ظل دعاة هذه الحزبية عاجزين عن إطباق قبضتهم على عنق البلاد ، على الرغم من كل المحاولات الزائفة التى هولوا بها على السذج ، والحملات الإعلامية الرهيبة ، التى شنوها على مخالفيهم من قادة الأكثريات الشعبية .. أما الآن ، وبعد قيام الوحدة السياسية بين القطرين ، التى وضعت فى أيديهم أزمة البلد – ولو إلى حين – فقد حققوا كل ما فاتهم ، حتى ليعلنون حربهم على النظام الإلهى نفسه كما حدث يوم وقف أحد وزرائهم يفتتح مشروع سد الرستن بقوله : بعد اليوم لن نحتاج إلى السماء .. ، ومع أن السماء قد ردت على ذلك التحدى الصبيانى بحبس الغيث عن الشام كلها ، فلم تأذن لها بقطرة من الماء حتى تلك الساعة .. فإن قبضتهم لم تزل يشتد ضغطها على عنق البلاد ، حتى بات من غير المتوقع أن يجرؤ إنسان على الإشارة إليها ولو همساً ، إلا أن يكون كارها لحياته ، أو مفارقا لعقله .

ثم .. من أين لى أن أنسى تلك التظاهرة الحكومية الكبرى التى افتُتح بها مسبح (الشاطىء الأزرق) فى اللاذقية ، أكبر تلك المذابح ، إذ شارك فيها وزراء الإقليم ، حتى الوزير الذى كان محسوباً على الإسلاميين ، ومعروفاً بالسلوك المحافظ .. وقد حشد لها فريق من السباحين والسباحات من القطرين .. وألقى فيهم معمَّم غير مجهول تلك الكلمة الرائعة ، التى كان

منها قوله : (فى هذه المدارس - يريد المسابح - سيتخرج الجيل القوى الأمين الذى سيحرر فلسطين)!!

وطبيعى أن تعتبر تلك الحفلة يومئذ تعبير الدولة عن نظرتها الرسمية إلى مثل هذه المشاريع .. ولا سيما بعد إذاعة هاتيك الخطبة النفيسه ، التى صفق لها كبار الشخصيات الرسمية والمدعوة ، وحملتها وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمنظور إلى كل مكان .. وكان من حق هذا أن يقفل بى كل رغبة للكلام فى غير هذا الاتجاه .. لو كان لمثل فضولى أن ينتفع بمنطق الواقع فيلجأ إلى أضعف الإيمان .

وتذكرت أننى عضو منتخب فى تشكيلة (الاتحاد القومى) .. الذى كنا نتوقع أن يكون له مهمة أخرى غير التدريب على الاستقبال والتصفيق .. ولعل لهذه الصفة أثرها الأكبر فى اندفاعتي - غير المعقولة - التى حركت لسانى بكل ذلك التنديد المزعج .. إذ قلت لنفسى : ما جدوى انتخابنا وتنظيماتنا ، إذا لم يكن لأحدنا الحق فى أن يقول للمخطىء : إنك مخطىء !!.

ولم تذهب توقعاتى سدى .. فما إن انتهيت إلى مكتبى حتى طالعتنى تلك المفكرة غير السارة .. متوَّجة بشعار (المباحث) وفيها دعوة (المدعو محمد المجذوب) إلى مواجهة المسئولين وبأسرع وقت ممكن ! .

وكان ذلك عصر الخميس .. فخشيت أن أحجز هناك إلى يوم السبت ، فقررت تجاهل الدعوة ، وتأخرت المواجهة إلى صباح ذلك اليوم .

* * *

● وطال انتظارى فى غرفة الكاتب .. وكان ذلك مألوفاً بالنسبة إلى كل مدعو للمباحث العامة ، لأنه أشد إثارة لأوهامه ، وأعمق تأثيراً فى أعصابه ، ولا معنى للمباحث إذا هى تخلت عن هذا الطابع ! .

وعلى مقربة من وقت الظهر جاء الآذن ليبلغنى موعد المقابلة ، فانطلقت خلفه إلى مكتب الرئيس .. فإذا عنده الضابط الذى تتناقل الألسن أخبار شدته على الذين يقذف بهم القدر إلى يديه ...

واستكمالا للفائدة المنشودة عرفنى الرئيس - بعد رد التحية - شخصية

مساعده قائلاً : إنه فلان .. وضغط على اسمه بصورة تسترعى الانتباه ، وتظاهرت بالهدوء ، وأجبت بمثل المداعبة : يسرنى أن ألقاكما معاً ...

وافتتح الرئيس الحوار بهذا السؤال : لعل الرحلة كانت موفقة ؟!..

– أتريد زيارتى لأهلى فى طرطوس وبانياس ؟..

– طبعاً .. فهل لك أن تحدثنا بما ألقيت على الناس هناك ؟..

– عسى أن يكون المخبر أكثر تذكراً منى لما قلت .. لأنى لم أتحدث إلى الناس بشىء معدّ ..

– لقد تكلمت عن المسابح .. وحذرت الناس شرها ...

– المسابح المختلطة طبعاً !..

– هى لا غيرها ...

– يظهر أن المخبر لم يكذبك .إلاإنه نسى أنى لم أسمها مسابح بل مذابح ...

ولم يطق كتمان دهشته ، فنظر إلىّ فاغر الفم ثم قال : هكذا .. وفى دائرة حكومية تصرح بهذا !! ولم أجدنى قادراً على التمويه فأجبت : تلك كلمة حق لاقيمةلها إن لم تقل .. واسمْح لى أن أوجه مثلها إليكما أيضاً ..

وصاح الرئيس وصاح معه المساعد الذى لم يحرك لسانه بغير هذه الكلمة « إلينا » ؟!.

– نعم إليكما .. إنها نصيحة لا يسقط الواجب إلا بأدائها .. وهى أن تتجنبا تلك المذابح فلا تقرباها ولا سيما مع أهلكما ...

وركز الرئيس مقعده بانجاهى وهو يقول : يظهر أنك لا تفكر بعواقب كلامك .. عليك أن تفهم أن هذه المسابح ليست إلا إحدى الوسائل المخططة لإخراج المرأة من قوقعتها .. تلك هى سياسة سيادته ، ولا محيد عنها ، أرجو أن تفهم هذا جيداً .

وابتسمت بقدر ما يساعد الموقف ، ثم أجبت : إن سيادته مسلم ، وكثيراً ما يعلن تقديره للإسلام .. فلا يعقل أن يرضى بما يناقض دين الله ..

وأراد الرجل أن يسد باب الجدل ، فإذا هو يتحول إلى التلويح بالسلطة ، وفى لهجة مشحونة بالوعيد يسأل : من كلفك إرسال هذا الكلام ؟!.. وهل أنت موظف فى قسم الإرشاد ؟!..

ولم أجد مندوحة عن الاستسلام إلى حوافز الضمير فقلت : بلى .. إننى موظف وفى القسم نفسه ..

قال : ومن الذى وظفك ؟.. ومتى ، ..

قلت : اسمح لى أن أسألك : باسم مَن أنت توجه إلي هٰذا التحقيق ؟

وفى شموخ متعال أجاب : إننى أتكلم باسم سيادة الرئيس ..

قلت : إذن فاعلم أن رئيسى أكبر من رئيسك .. إنه الله الذى ألزمنى هذه المهمة منذ آمنت به وبرسوله !..

وسادت القاعة لحظة صمت .. لم يلبث أن قطعه بقوله : إذن فاستعدَّ لِمغادرة البلاد بأهلك وسنعد لكم الجوازات اللازمة ..

وسألت بدورى : ولم هذا ؟

قال :لأنك معارض لسياسة سيادة الرئيس .. ولا مقام فى جمهوريتنا المتحدة لمن يرفض هذه السياسة !..

وكان عليّ أن أفكر جاداً وبسرعة فى ذلك العرض الذى لم أكن بكاره له ، فقد طالما تطلعت إلى الضرب فى أرض الله تطلع السجين إلى ما وراء الأسوار .. غير أنى تخوفت أن يكون وراء العرض خطة للاستدراج .. فأجمعت على التظاهر برفضه ، وبالصراحة نفسها قلت للرجل : اننى امرؤ ذو رسالة أعمل لها منذ ثلث قرن ، ولا يزال أمامى الكثير لإتمامها ، ومن أجل ذلك لا أريد مغادرة وطنى فى الوقت الحاضر .. غير أنى أنصح لكم أن تدفعوا بمثل هذه الجوازات إلى جماعة (الهاشناق) فهم أحق بها من مثلى ..

وكانت أخبار هذه الفئة من الأرمن لا تبرح جديدة على ألسنة الناس ، بعد الذى أذاعته وسائل الإعلام عن مصادرة أجهزتها التجسسية ، حتى من بعض المعابد التابعة لها !.. وكأنه وجد فى إشارتى إليها ما استدعى وقف الحديث .. فأعلن انتهاء المقابلة دون أية نتيجة ..

وعدت الى البيت وفي نفسي أشتات التصورات ، وما هي سوى أيام حتى تسلمت الأمر الصادر من السلطة المحلية بتسريحي من عملى فى التدريس ..

وفى المساء نفسه جاء لزيارتى محام صديق ، جعل يعزينى ويذكرنى بما لا ينبغى أن أغفله من الثقة برحمة الله ، وتكلم بعض أبنائى يَعِدون بأن يؤمّنوا لى مثل راتبى الذى فقدته وفى اطمئنان غريب قلت لولدى : إننى لشديد الأمل ألّا يحوجنى الله إلى معونتكم ، وقلت لذلك الصديق : لقد أتيت ما أتيت نشدانا لمرضاة الله ، وسترى يا صديقى أنه لن يغفلنى ...

● وكنت مدعوا لإلقاء بعض شعرى فى الحفلة التى يقيمها المجلس الثقافى بدمشق ، فسافرت فى اليوم التالى ، وألقيت قصيدتى (ناقور القضاء) عن فلسطين واللاجئين .. ثم التقيت بوزير التعليم الإقليمى سيد يوسف ، وقصصت عليه مشكلتى كاملة ، فوجدت لديه إصغاء كريماً ، وكان على أهبة السفر إلى القاهرة فوعدنى خيراً ، وأنظرنى إلى موعد رجوعه لدمشق ، ولدى عودتى إلى الفندق وجدت خلاصة مكالمة هاتفية واردة من أهلى ، تفيد أن فلاناً ، وهو مدير ثانوية خاصة فى حلب ، قد أبرق يعرض علىّ عملا يقارب ضعف مرتبى المقطوع .. فقلت فى نفسى : إنها البادرة الأولى للفرج الربانى .

وعدت إلى اللاذقية ومن ثم إلى حلب ، ولكننى لم أكد أتم الاتفاق حتى فوجىء العالم بنبأ الانقلاب الذى أطاح بالكيان السياسى كله .. وإذا الوحدة التى خلقتها الظروف غير الطبيعية تتبخر خلال ساعات معدودة ، ويخلفها نظام جديد .. وحكومة جديدة تولى وزير التعليم فيها صديق لى قديم !..

ولم أتردد فى استجابة الحافز الأول ، فشخصت إلى دمشق واتصلت بالوزير الصديق ، الذى أحاط بواقع مشكلتى ، فكتب على بطاقة خاصة رسالة حاسمة إلى ذلك المسئول ، الذى كان قد وجد فى تسريحى فرصته الذهبية للانتقام وفيها يقول : إنى آمر بإعادة فلان إلى عمله دون أى تأخير ..

وعلى الرغم من محاولات المأمور تأخير التنفيذ ، لم يجد مفراً من إلغاء قراره الظالم ، فاستردت مكانى المغصوب .. ثم رحت أتابع شريط الأحداث ، فأرى بعينى إلى مصير الأربعة الذين تواطئوا علىّ وقد أصبح كل منهم عبرة لكل ذى عينين !..

وجاءنى الصديق المحامى مرة ثانية ليقول : لا أدرى بأى النصرين أهنئك .. بسقوط الذين بغوا عليك أم بعودة حقك إليك ؟ ..

قلت : ولكن .. أنّى للنصرين أن يخفا من أساى لانفصام القطرين !..

وأطرق صديقى يفكر بما أثارته عبارتى فى نفسه ثم أردف : لست والله بأقل أسى لهذه النهاية ..ولكن .. لا تنس يا صديقى أن الوحدة التى فقدناها ولدت ميتة منذ يومها الأول ، لأنها لم تحمل روح صلاح الدين ، ولهذا لم تظفر بالقرار المكين ، ثم لم تعرف سبيلها إلى الشاطىء الأمين !..

جيلنا المدخن

ولجت مدخل المصلحة لانجاز معاملة أرى تحقيقها لزاماً علي عملا بواجب الطاعة لأولى الأمر وأول ما استقبلنى هناك روائح التبغ ، تمازج الهواء ، وتتشبث بالجدران ، وتداعب وجه المراجعين مع أنفاس الموظفين ..

وحملت أوراقى أجول بها مابين المكاتب ذوات العلاقة،وكلما تخطيت عتبة واجهتنى هذه المشاهد المؤثرة دخان يتصاعد إلى أعلى ، متموج كأنه عفريت من الجن استحال ضباباً ، فهو يتمعَّج فى صعوده يمنة ويسرة .. ولفائف تحترق بين أصابع هؤلاء الغافلين ، يمتصونها بين الحين والحين ، ليعبّوا منها ما يحرق أفئدتهم ورئاتهم ، وهم يحسبون أنهم يستمتعون ، وأنهم لأنفسهم يحسنون ..

كل شيء أبصرته من هذه المشاهد كان طريفاً وغريباً ومبكياً حتى الضحك ، وشر البلية ما يضحك !.. على أن أطرفها وأبعدها فى الغرابة ذلك المنظر الذى لا أنساه أبداً .. إذ دخلت على كبيرهم لاستكمال المعاملة ، فإذا هو وراء مكتبه مكباً على عمله فى اهتمام ونشاط ، وكأنه خشى أن يفارق شيشته لحظة واحدة ، فمد أنبوبتها ما بين صدره ومكتبه ، حتى صارت فى مستوى فمه ، ولم يعد بحاجة إلى إمساكها بيده ، إذ ثبتها هناك بما لا أعلم ، وراح يُعمل كلتا راحتيه فيما بين يديه .. فهو كالنخلة ، وهى على صدره كالفسيلة !..

وضحكت فى سرى ثم أطلقت لخيالى العنـان ..

(٢)

قلت لنفسى : « كان هؤلاء المقبلون على الاحتراق معذورين إلى ماقبل سنوات ، إذ كان الفقهاء أنفسهم على خلاف فى أمر هذه النبتة الشيطانية » أحلال هى أم حرام ؟ .. فمنهم من رآها فى نطاق المحرمات ، لاندراجها فى أصناف الخبائث بنظره ، ولأن فى استعمالها نوعاً من التبذير الذى هو كفر

لنعمة الله ، إذ هو انفاق فى غير مردود .. وذلك دون ريب من عمل الشيطان بنص القرآن ..

وكان منهم من أخذ بها فجعل يسوِّغها محتجاً بأنها من المباحات التى لم يرد لها ذكر فى تحريم أو تحليل .. ويمعن فى التطرف فيقول : « إن كانت حلالاً فقد شربناه ، وإن تكن حراماً حقاً فقد أحرقناه !..

وطبيعى أن هذا الصنف من المفتين بحلها لا يرى فيها خبثاً ولا سرفاً ، بل يراها تحت تأثيرها المفتِّر من أطيب الطيبات !..

أجل .. كان هؤلاء معذورين إلى حد .. ولكن أى عذر لهم بعد أن أجمع علماء الصحة فى الشرق والغرب على القول بخطر هذه النبتة الرهيبة على القلب والشرايين والرئة والنسل ؟!..

لقد أثبتت موازين الإحصاء العلمى لدى أدق خبراء العالم أن التدخين من أهم أسباب سرطان الرئة ، وأن الخبراء قد انتهوا إلى اليقين بأن نسبة الوفيات فى صفوف المدخنين تعادل مثليها لدى غيرهم ، وأن الاجهاض لدى الحوامل من المدخنات هو كذلك أضعاف أمثاله لدى السويات من النسوة .. إلى عشرات البلايا والرزايا التى تجرها هذه اللفافة السامة وأختها الشيشة الطامة !..

ولقد بلغت ثقة الشعوب الغربية بهذه الاحصاءات العلمية إلى حد أنهم ، وهم المتفانون فى عبادة الشهوات ، قد أخذهم الرعب من مصير المدخنين ، فجعلوا يتهيبون التدخين ، ويفطمون أنفسهم عنه ، حتى بات هاجروه فى تزايد مستمر ..

ومع ذلك كله فإخواننا وأبناؤنا لا يزالون أسارى هذه العادة الخبيثة ، يقلد فيها الصغير الكبير ، والفقير الميسور .. حتى لتجد بين مُعاقريها مَن لا يعدو من عمره العاشرة !..

فياليت شعرى أعُزِلَ هؤلاء عن مجرى الحياة فلم يسمعوا هذه الأنباء عن طريق الإذاعات ، ولم يقرؤوها فى الكتب والمجلات ، ولم يطالعوها فى ما يسطره العلماء من المقررات التى أسفرت عنها مختلف المؤتمرات !..

أم علموا وسمعوا وقرؤوا وأدركوا تلك الحقائق من خلال تجاربهم

ومشاهداتهم اليومية ، ولكنهم عجزوا عن الاستجابة لداعى الهدى ، فآثروا سهولة الانحدار فى مهاوى العبودية ، على التسلق إلى مقامات الأحرار !..

ليتهم يقرؤون فى تدبر سيرة آبائهم من تلاميذ النبوة كيف كانوا أسارى الإدمان لِلخمور ، يكرعونها صبوحاً وغَبوقاً ، يفخرون بها ، ويتغنون بنعوتها وآثارها والتزامهم إياها ، إلا من رحم الله منهم وقليل ما هم ، ثم كيف لفظوها من صدورهم ، وهراقوها من آنيتهم ، وقذفوا بها مجارى الأقذار ، منذ أن أنزل الله فى تحريمها قوله الحكيم المبين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ مِن عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ .

لكن .. وهل تنفع شيئاً ليتُ ليت شباباً بُوعَ فاشتريتُ !

(٣)

وانطلق بى الخيال إلى أبعد من ذلك .. إذ تذكرت أن جيلنا (المدخِن) هذا يعيش أحرج مراحل التاريخ العربى والإسلامى .

فـــهناك وطن ورثناه من فضل أولئك الفاتحين ، تمتد إليه مخالب الطواغيت فينتقصون من أطرافه ، دون أن نستطيع عنه دفاعاً ، لأننا أصبحنا فى الشعوب المتخلفة التى لا تملك سلاحاً تذود به العدو عن مقدساتها إلا إذا قايضته عليه بحريتها ، أو اشترته منه بخبزها !..

وهناك صُبابة الخلق الإسلامى الأصيل ، تهاجمها ثعابين الكفر ، لتستأصل جذورها باسم المدنية والحضارة والتقدم ، فنفتح لها أبوابنا ، بل قلوبنا .. ونحن غافلون عما وراءها من تخطيط يريد بهذه البروق الزائفة نسف البقية الباقية من معاقل المقاومة فى وجودنا كله !..

وفى ظلمات هذه المأساة تنطلق اللفاقة والشيشة لتسهم فى التهام ما تخلف من أموالنا وصحتنا .. حتى إذا انتهينا إلى الملحمة الحاسمة ، التى لا مندوحة من اشتعالها ذات يوم ، كنا كالقصب الأجوف لا نستطيع الصمود أكثر من أيام – دون الستة – أمام الإعصار الذى لا يرحم مريضاً ، ولا يقبل اعتذاراً ...

وسألت نفسى كم ترى من أموال أمتى ينفق كل يوم ثمن هذه السموم فى هذه المصلحة أولا ؟.. ولم يتطلب الأمر كبير جهد فقد توسط ذلك بما لا يقل عن خمسين دولاراً ، ثم مضيت فى تتبع هذا التقرير فى المصالح الأخرى ، ثم فى البلد ، ثم فى القطر ، ثم .. فى العالم الإسلامى ، وإذا أنا تلقاء ما لا يقل عن خمسين مليون من الدولارات ، تدفعها أمتى كل يوم لِصُنَّاع هذه الرزايا فى معامل العالم الصليبى ، وما وراءه من البطون اليهودية التى لا تشبع ! .

وكان لابد لى من أن أتساءل : وماذا يصنع أعداؤنا بهذه الأموال التى تشترى بها مصنوعاتهم المغوية جداً من سموم كنت وكرفن ولوكى ؟.. فيأتى الجواب عجيباً رهيباً : إنهم يصنعون بها الرصاص الذى يطلقونه على إخوتنا فى كشمير والأرتيرية ونيجيرية وتنزانية وتشاد وفلسطين !.. فيكون ربحهم بذلك مضاعفاً ، إذ يضمون إلى القذائف والرصاص ، التدمير الذى لا مندوحة منه لصحة هؤلاء الإخوة ، ليس فقط فى المصالح والمؤسسات والمتاجر والأسواق والمقاهى ، بل فى خنادق القتال أيضاً !..

(٤)

ويصل بى هذا التساؤل إلى تصور الشباب المقاتل من أمتى وهو يزحف للقاء العدو ، وفى جعبة كل واحد منهم زاده من تلك السموم التى أسرته حتى لا يستطيع منها فكاكاً .. كيف يعيش مع هذه السموم المدمرة فى حومة القتال ؟.. وكيف به إذا لجأ إلى الكمون لمراقبة غرة من عدوه ، حيث يكون اشتعال الدخينة الواحدة سبباً فى القضاء على الكتيبة المحاربة كلها !..

كيف يصبر نفسه عن التدخين !.. وكم يعانى من القلق والتوتر والضياع أثناء ذلك الانقطاع !.. وإذا مسته نفحة من البرد فى كمينه ذاك فماذا تحرك فى صدره من تفاعلات تدفعه إلى الكحة المتتابعة كالذى يطلقه المصلون المدخنون أثناء الانتقال من فصل الحر إلى أوان القر ، حتى ليستحيل المسجد على سعته ميدان صراع ، تتنافس فيه أصوات السعال على تبديد ذاك الجلال !..

وشدَّ ما حيَّرنى ذلك التدبير العبقرى الذى نهضت لتحقيقه بعض حكومات أمتى .. إذ تمخضت أفكارهم العاملة فى حقل التنمية الاقتصادية ، فكان من ولائدها مصانع لإنتاج السجائر تغنى البلاد عن الاستيراد .. ويتبع ذلك تطوير

زراعة هذه الشجرة الإبليسية ، حتى تكون قادرة على مضاعفة الدخل عن طريق ذلك التحسين ، ثم زيادة الاقبال على هذا التخريب الصحى من قبل المدخنين !.. هذا إلى تعطيل ملايين الأفدنة ، وملايين الأيدى النشيطة على هذه التجارة الوبائية ، وحرمان المجتمع الإسلامى من البركات التى كان من حقها أن تفيضها عليه ، لو وجهت فى الطريق السوى الأمين !..

* * *

وهكذا استسلمت إلى تصوراتى المحزنة ، وأنا أتلقى بصدرى تلك الروائح العفنة ، وأتملّى بعينى ذلك الدخان الذى يتصاعد إلى الأعالى من الأفواه ، ومن خلال تلك الأصابع كأشباح العفاريت ! ..

ولما غادرت المصلحة كان شيء رهيب قد استقر فى خاطرى الكئيب ، هو أن قومى يعبثون ويعبثون ، وهم لا يعلمون ما يعملون .. على حين أن الشيطان واليهود والصليبيين هم وحدهم الذين يضحكون ، وهم قاصدون لما يصنعون !..

* * *

أليس لمذابح المسلمين من نهاية ؟!

لا أدرى كيف أبدأ أحديثى عن محنة الإسلام فى مخيمَىَّ (صبرا وشاتيلا) ؟!..

إن اللغة وهى أداة التعبير الأولى لتعجز أحياناً عن الوفاء بما يختلج فى أعماقنا من الانفعال ، فكيف بها تلقاء هذه المجزرة ، التى هزت العالم ، وأرهبت حتى قلوب بعض اليهود ، الذين أصبحوا مضرب المثل فى التحجر والحقد على أبناء آدم جميعاً ، بما ورثوه من كره لهم ويقين تلمودى بأنهم وحدهم شعب الله المختار ، فكل من سواهم لا يعدو أن يكون ملكاً خالصاً لهم ، من حقهم أن يتصرفوا به قتلاً وتشويهاً واستلاباً .. وهاهى ذى أصوات هؤلاء اليهود تضج بالنقمة من القتلة الذين – على قول شيمون بيريز – ضاعفوا كراهية البشر لشعب إسرائيل فى كل مكان ..

أجل .. إنها لكارثة تخرس الألسن ، وتُفحم البيان .. ومع ذلك فإنى لأعجب من الأقلام التى تطلق عليها اسم (مذبحة العصر) لأنه يوهم القارىء أنها نسيج وحدها فى كوارث هذا العصر ، وربما خَيَّلت للقارىء أنها وحيدة نوعها فى ماضيات العصور أيضاً .. على حين أن الواقع يصادم هذا الظن ، لأن تاريخ المسلمين لا يزال يفيض بأمثال هذه الفواجع ، منذ انصرفوا عن مهمتهم الكبرى فى هداية القطعان البشرية إلى الانغماس فى ضروب اللهو واللغو والاختلاف على شهوات الدنيا ، ومن هنا كان الأولى بنا أن نسمى كارثتنا الجديدة (مذبحة اليوم) بدلا من (مذبحة العصر) إذ يستحيل توقف هذه المذابح فى أوساط المسلمين ، ما داموا غافلين عن خلفيات هذه الأحداث ، لا يعرفون السبيل إلى مواجهتها بالوسائل الصحيحة الرادعة .. وفى مقدمتها التأمل الواعى فى عبر الفواجع الماضية للانتفاع بها فى مسيرتنا القادمة .

إن فاجعة اليوم لتوقظ فى أعماق ذكريات المآسى المتلاحقة من تاريخ

أمتى ، فلا أدرى أيها أعرض ، وبأيها أبدأ .. وعلى أيها أقتصر .. وحسبى من حلقاتها الفائقة للحصر بعض النماذج المنبئة بما وراءها .

أقرب الفواجع شبهاً بكارثة اليوم مذابح المسلمين فى ساحات الأندلس ، عقيب نزوح رايات الإسلام عن فضائها ، إذ تخلف عن النزوح جموع من المسلمين صدَّقتْ عهودَ أعداء الإسلام بالحفاظ على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ومعابدهم ، فما إن غادرت بقايا المقاتلين شواطىء الأندلس حتى انقضوا على أولئك العزل ، فأعملوا فيهم السيفَ والنار ، حتى لم يسلم منهم أحد إلاَّمن أعلن الانسلاخ من الإسلام واعتناق النصرانية .

ثم تلت ذلك مذابحُ التتار فى خراسان وبغداد ، التى ذهبت بالملايين من المسلمين وبالعشرات من المدن والقرى التى طمست معالمهاومُحِيَتْ آثارها .. وفى تلك الحقبة نفسها وصل المد الصليبى إلى بيت المقدس ، وخلت الساح من أبطال الإسلام ، فلجأ العُزل المسالمون إلى أحضان المسجد الأقصى ، فلم يلبث الحقد الصليبى أن أحاط بهم واقتلع شأفتهَم فأغرق خمسة وسبعين ألف مسلم بدمائهم فى بيت الله ...

ويتتابع الشريط فإذا فى ساحات دهلى من حواضر الهند ، حيث نرى قذائف الانكليز تحصد المسلمين حتى تمتلىء بجثثهم الشوارع ، وتفيض بدمائهم الأرجاء ، فلا يوارَون الثرى إلا بعد أن خشى القتلة على أنفسهم روائح الموت التى بدأت تلوث الفضاء ...

ويشاء الله أن نشهد استمرار المأساة فى الهند ، حتى بعد جلاء المستعمر ، فلا يكاد شهر يمضى دون أن يُقضى على العشرات بل المئات من المسلمين ، أو تحرق بهم ديارهم وقراهم .. ولم يمض بعد سوى عامين على مذبحة مراد آباد فى أنتربرادش تلك التى حصدت فيها رشاشات الشرطة الهندوس قرابة الألفين من المسلمين وهم فى مصلى العيد ...

ثم من ينسى مذابح دعاة الإسلام فى سجون عبد الناصر وجلاديه ، حمزة البسيونى وصلاح نصر وشمس بدران وبقية الزبانية ، الذين مرَّغوا وجه مصر بالعار – كما قرر قضاتها الشرفاء –

ويتتابع البلاء على هؤلاء الدعاة البرآء على أيدى صاحب كامب ديفيد

وأعوانه من أعداء الإسلام ، وما يزال الطريق مشحونا بمواكب الشهداء مسوقة إلى محاكم تقاضيهم بقوانين (النائب العام الاشتراكى) الذى لا عمل له سوى تسليمهم إلى حبال المشانق ، أو زجهم فى غياهب السجون ...

وهل نسى المسلمون بجزرة مقديشو يوم سِيق علماء الإسلام إلى أخدود الماركسية ، فأحرقوا أحياء ، ولا ذنب لهم سوى أن يعلنوا حكم الله على قوانين الشيوعيين ، التى تريد القضاء على دين الله ...

ودير ياسين .. وما أدراك ما دير ياسين .. تلك التى سوتها وحشة مناحم بيجن وعصابته بالأرض ، وقضت على كل نسمة حية فيها ، ك ما أوصت كتبهم المزورة بالقضاء على كل إنسان وحيوان فى أريحا العربية قبل آلاف السنين ...

ومن على هذه التلال من أشلاء شهداء الإسلام نطل على مذبحة تل الزعتر التى شارك فيها أحفاد المردة من حلفاء الصليبيين وأنصارهم ضباط إسرائيل حسبَ إقرار المجرم شارون فى برلمان إسرائيل ، وكل ذلك على مرأى ومسمع من (حماة الديار) الذين لم يملكوا إلا أن يباركوا المذبحة المقررة ..
وكان لابد لهذه الكوارث من أن تؤتى ثمارها فواجع تتلوها فواجع ، فكانت مذابح أعقبت مذابح دمرت أحياء وهدمت مساجد ودفنت تحت الأنقاض عشرات الآلاف من المسلمين .

● وقد ينفعنا أن نلقى نظرة تحليلية على ظروف الفاجعة الراهنة وخلفياتها ، فنتخذ من دروسها عبرة تجنبنا الوقوع فى أحابيل مثلها فى الكَرَّة القادمة ..إن كنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...

لم يكن شيء من كارثة اليوم مفاجئاً .. بعد أن ملأ ياسر عرفات الفضاء بأنباء الاستعداد اليهودى لاجتياح لبنان ، حتى إذا دقت ساعة الصفر تدفقت قوى صهيون على معاقل المقاومة ، التى أدهشت الدنيا بصمودها الخارق وكفاحها الجبار ، الذى أثخن فى العدو فكلفه – باعترافه – ما لا يقل عن عشرين ألف إصابة فى الأنفس فضلا عن تحطيم مئات الدبابات والآليات ، وفجأة تخلت عن اليسرى شقيقتها اليمنى ، فوقف أبطال الصمود والتصدى إطلاق النار ، وتقهقروا إلى المدى الذى يريده المعتدى ، وهكذا أصبحت

المقاومة الجبارة مكشوفة لأسلحته لا يسترها عن طائراته أى غطاء ، وقد أحاط بها من البر والبحر والجو ، حتى بلغ ما تلقته من قذائفه وصواريخه أكثر من مئتى ألف ، وهى ماضية فى نضاله مصممة على تحويل الأرض جحيماً تحت أقدامه ...

ولكنها .. بيروت العزيزة الغالية يعز على أولئك الأبطال أن يروا إلى بقيتها تستحيل أكواماً من الأنقاض ، تهوى على رؤوس الأطفال والشيوخ والنساء ، فلم يسعهم إلا أن يستجيبوا لنداء السلام يطلقه فيليب حبيب ، ويتعهد لهم بشرف أميركا أن تحمى أهليهم وأبناءهم وإخوانهم من عدوان الغادرين إذا هم تركوا باختيارهم بيروت ...

ووفّى الأبطال الشرفاء بعهدهم ، فخرجوا مشيعين بالثناء والإعجاب والدموع ، ثم ما لبثت القوات الثلاث التى تولت الحجز بينهم وبين أعدائهم أن تبعتهم على الأثر ، زاعمة أن مهمتها قد انتهت عند هذا الحد .. وهو زعم سرعان ما افتضح كذبه ، حين تحركت قوات صهيون لاقتحام العرين الذى خلا من حماته ، وما هى إلا ليلة وضحاها حتى أقبلت عصائب الكتائب والخونة تحملها الطوائر الأميركية بحماية صهيون ، إلى المخيمين الأعزلين لتحيلهما مقابر جماعية لآلاف المسلمين من لبنانيين وفلسطينيين .

ولا حاجة للوقوف طويلا على هذه الوقائع ليحكم العقل بأنها حلقات متماسكة فى تنظيم ، أريد به من اللحظات الأولى أن يصير إلى غايته التى شهدها العالم ..

● ولكن .. هل حققت المؤامرة كل ما حدده لها المتآمرون من أهداف ؟..

أغلب الظن أن النفى هو الجواب الصحيح لهذا التساؤل .. ذلك أن الغرض الأكبر من المؤامرة هو إبادة المسلمين بعامة ، سواء منهم نزلاء المخيمات الفلسطينية أو سكان الجانب الغربى من العاصمة المعذّبة .. أو تشريدهم فى داخل لبنان أو خارجه على صورة لا تترك لهم أى أثر أو نفوذ فى سياسة البلد .

ومعلوم أن تفريغ بيروت من العنصر الإسلامى كتفريغ المخيمات من الهوية الفلسطينية ، هو المطلب الأكبر فى التخطيط الصليبى اليهودى الذى كلف لبنان المسكين عشرات الآلاف من الضحايا ، فى حروبه الأهلية طوال السنوات السبع ...

فلابد إذن من افتعال فرصة أخرى لتحقيق ذلك التخطيط ...

وهاهى ذى الفرصة المنشودة قد أطلت بوادرها فى عودة القوات الثلاث المتعددة الجنسيات .

لقد وقف العالم العربى من المحيط إلى الخليج ، ومن حوله العالم الإسلامى كله ، من أقاصى البسيطة إلى أدانى الدنيا ، وهما يشاهدان بأم أعينهما من خلال العواكس الفضائية التى لا تحسن الكذب ، ويسمعان بآذانهما على ألسنة الثقات من مغامرى الصحافة ووكالات الأنباء العالمية ، يسمعان ويريان وقائع الجريمة التى تخطفت إخوتهم وأخواتهم ، فلا يكتفى الغادرون بانتزاع أرواحهم حتى يمزقوا وجوههم وجثثهم بالسكاكين !..

فماذا صنع العَرب والمسلمون بإزاء هذه الأحداث ، التى تذهل المرضعة عما أرضعت ، وتزلزل الأرض بمن حملت !! أكثر مما صنعه الأبعدون من سكان الشرق والغرب .. صراخاً لا يخيف ظالماً ،واحتجاجاً لا يردع باغياً ، بل لا يزيده إلا إمعاناً فى طغيانه ، اعتماداً على تجاربه السابقة فى ميدان العدوان على أمة العرب والإسلام .. لا بل إن التظاهرة التى انتظمت أربعمائة ألف من سكان إسرائيل استنكاراً للمذبحة واحتجاجاً على بقاء المجرمين العالميين بيجن وشارون فى الحكم ، هذه التظاهرة التى لم تشهد مثلها قط دولة العصابات والتى لا نزال نستمع إلى أخبارها الكبيرة ، من خلال الإذاعات الدولية ، لَأروعُ أثراً من كل ردود الفعل التى أبرزها العرب والمسلمون حتى الآن بإزاء تلك الهجمة الوحشية على أهليهم وأعراضهم وكراماتهم !.. .

وإذا كان للتجارب الواقعية من مدلول فالمُتوقّع أن تنتهى غضبتهم كسوابقها ، إلى الخمود الذى عهدناه عقيب كل محنة تلم بهؤلاء المظلومين فلا يعودون لليقظة إلا على محنة جديدة تطير الكرى عن أعين الغافلين ...

ولعل أغرب ما يواجه المسلم كل مسلم فى ظلال هذا الجو الرهيب هو تقلص أمانى الحكومات العربية حتى لتنحصر فى تطبيق قرار التقسيم بإعطاء الفلسطينيين حقهم فى وطن قومى بجانب إسرائيل ، التى جعلها ضعف العرب والمسلمين دولة تفرض وجودها حتى على أميركة بعد كفاح ثلث قرن فى سبيل استعادة الأرض المغصوبة كلها لأهلها !..

ولو أن هؤلاء الألف مليون من العرب والمسلمين قد عرفوا كيف يستغلون النقمة العارمة التى تكتسح العالم كله نحو دولة الشُّذّاذ هذه الأيام لأمكنهم أن يقنعوا السواد الأعظم من دول المنظمة العالمية بخطر هذه النبتة الخبيثة على مصالح الإنسانية كلها ، ريثما يأتى اليوم الذى تتمكن فيه هذه المنظمة من إلغاء الوجود السياسى لإسرائيل ، وإعادة الوضع الشرعى إلى فلسطين السليبة ، فى ظل حكم شورى يؤمِّن العدالة والأمن لكل سكانها من مسلمين ونصارى ويهود ...

● ونعود إلى رؤية الموقف الجديد بعد المذبحة ...

هذه القوات المتعددة الجنسيات تعود كرةً أخرى إلى بيروت ، ويعود معها الأمل بفترة من الأمن لآلاف المروَّعين من بقايا الفلسطينيين ومسلمى المنطقة الغربية .. ولكنه أمل لا يعدو خيال الغريق الذى يستهويه منظر القشة فى البحر الذى يوشك أن يبتلعه .. وإلا فما هو الخير الذى ننتظره من قوة يحدد ناطقها كل مهمتها بأنها استعراضية ، لا تدفع شراً ولا ترد عدواناً ، وإن مجموعته -الأميركية - ستنسحب من حيث أتت بمجرد حدوث أى قتال !..

أليس معنى ذلك أن هذه القوات على أتم الأهبة لتسليم بيروت كلها إلى القَتَلَة عندما يتحركون لتنفيذ بقية مخططهم !..

وما الذى يمنع أعداء الله من افتعال أى سبب لاستئناف القتال مرةً ومراتٍ ما دام الجو ملائماً لأهوائهم إلى هذا الحد ؟..

لقد رأينا آثار التوقعات المرعبة فى تظاهرة النسوة المسلمات اللواتى خرجن بأطفالهن غرب بيروت وفى أعقاب المجزرة الهائلة يهتفن (الله أكبر) فيعبرن بهذا الهتاف المثير عن مدى الذعر الذى يملأ قلوب المسلمين ، حتى لا يجدن ملجأ من الله إلا إليه .. وياله من نذير يذكر العالم الإسلامى كله بالمسئولية التى يتحملها بتقاعسه عن نصرة هؤلاء المروَّعين قبل فوات الأوان ..

ثم هاهو ذا الجيش اللبنانى - الذى بات سفينة الخلاص بنظر المساكين - يقوم بمصادرة بقية الأسلحة من دور مسلمى الغرب ، على حين لم يمد يداً إلى أسلحة الآخرين فى شرق بيروت ، وهم المشاركون الأوَل فى مذبحة المخيَّمَين .. فهل لذلك من معنى إلا تجريد المسلمين من كل وسائل الدفاع ، لكى يموتوا كإخوانهم السابقين دون مقاومة ؟..

وإذن فلينتظر العالم الإسلامى مذبحة تلو مذبحة ما دام لا يملك من الحس الإسلامى ما يحركه لحماية هؤلاء المساكين .. اللهم إلا الكلام الذى أصبحنا به أضحوكة الأنام ..

• وأخيراً .. أليس لهذا الليل الفاجع من آخر ؟..

ألم يأن للملايين الألف أن تخشع قلوبهم لذكر الله ..

ألم يحن لؤهلاء النائمين موعد اليقظة التى تفتح أعينهم على واقعهم الأليم ..

ألا يقرؤون تاريخهم ليتذكروا مَن هم ، وما مهمتُهم ، وما مدى مسئوليتِهم العالمية ؟!..

لقد جربوا حتى الساعة كل الأفكار ، ومارسوا مختلف الأطوار ، فلم يعودوا بغير الذل والاخفاق والعار ..

أفلا يجربون مرة واحدة العودةَ إلى رسالتهم ، التى أخرج بها الله أوائلهم من الظلمات إلى النور ، فعرفوا طريقهم إلى العزة ، فأدركوا واجبهم نحو الخليقة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله !!! ..

اختباران قريبان مارسوهما فخرجوا منهما بأعظم العبر والدروس ..

كان أولهما عام ١٩٦٧ يوم زحف جيش مصر تحت رايات (الفنانين) من عصائب الرقص واللغو والموسيقى والغناء ، فكانت العاقبة هزيمة مكنت للعدو من احتلال سيناء وتهديد بمصر كلها بأنواع البلاء ...

ثم جاءت ثانيتهما عام ١٩٧٣ إذ زحفت الكتائب المؤمنة تحت راية (لا إله إلا الله) فكان النصر الذى أذهل العالم .. ولو تُرك لدفقة الإيمان أن تأخذ سبيلها إلى النهاية لتغير تاريخ المنطقة ، ولما سقط (بلعام) فى فخ (كامب ديفيد) .

فلم لا تستأنف أمة القرآن تجربتها تحت راية التوحيد فتستعيد عزتها من جديد ، وينتهى الأمر بكل مسلم إلى إحدى الحسنيين فإمّا سعيد وإما شهيد ...

ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

مرحى لقضاء مصر

من سنن الله الحاسمة فى حياة الأمم أنها متى بلغت النهاية فى الترف والبغى ، شارفت البداية فى طريق الانهيار فالدمار .

وقد وصلت أميركة إلى قمة القوة عسكرياً واقتصادياً ، ولكنها لم تكن لتملك العاصم من إغراء القوة ، فاستسلمت إلى الشهوات ، وتجاوزت نطاق الحفاظ على كيانها إلى البغى على غيرها ، وبذلك شرعت تواجه المصير الذى لا مندوحة عنه لامثالها ..

وأول بوادر هذا الهُوى فى حياة أميركة تلك الزعازع التى بدأت تعصف فى نظامها الديمقراطى ، وقد لاحت مؤشراتها فى مقتل كندى ، ثم فى فضيحة ووتر غيت ، واليوم تتجلى فى أزمة المخابرات ، التى بدأت إشاعات هامسة ثم مضت تكبر وتكبر ، حتى برزت على حقيقتها الرهيبة فى تقرير نائب الرئيس روكفلر .

لقد كشف هذا التقرير بعض أسرار هذه المؤسسة بما أوضح من تجاوز القائمين عليها حدود صلاحياتهم إلى ما لا تجيزه القوانين الديمقراطية .

وخلاصة القضية أن المخابرات التى أنشئت لمهمة خارجية صرف ، هى مراقبة أعداء أميركة ، ورصد تحركاتهم ذات الصلة بمصالحها ، قدْ مدوا شباكهم إلى الداخل ، حيث تناولوا بتجسسهم تصرفات بعض الأميركيين ، لمصلحة السلطة الحاكمة ، أو لأغراض أخرى لم يكشف عنها النقاب بعد .

ولقد اعتبر هذا التقرير فى مستوى فضيحة ووتر غيت ، التى زجت بالعديد من الرؤوس الكبيرة فى أعماق السجون ، وأوشكت أن تلحق بهم الرئيس نيكسون نفسه ، لولا قرار العفو الذى تداركه به فورد ، فاكتفى منه بالاستقالة ، وكان أشد على سمعته من حكم القضاء .

والمسلم الذى يقرأ أو يسمع مثل هذه الأخبار لا يستطيع أن يمنع نفسه

من هذا التساؤل : وهذه المخابرات التى تنشر شباكها فى بلاد العرب والمسلمين كلها ، وتكاد تنحصر مهامها فى رصد حركات المواطنين وسكناتهم ، ولا تقف عند حدود الوقائع ،فتخترع من الأحداث كل مايحقق رغبة الحاكم وحده... هذه المخابرات .. متى يتاح لها مفتش عادل يكشف أستارها ويفضح أسراراها ؟!..

حتى الآن لم يثبت على المخابرات الأميركية أى عدوان على حريات الناس خارج نطاق التجسس ، فلا ضحايا يقتلون ولا معتقلون منسيون فى غيابات السجون ، ولا أبرياء يعذبون فى مالا يعلمون ، ولا تهم ملفقة توجه إلى الغافلين .. بل مجرد تتبع للأسرار الشخصية ، مما تعتبره الشعوب المتحضرة عدواناً على حريات الأفراد المقدسة .

أما مخابراتنا - أسرع الله بفضيحتها - المبرزة فى ميادين الإبداع ، فقد أغرقت الأرض الطيبة بالدماء ، وشحنت السجون بالأبرياء ، وملأت الفضاء رعباً بحوادث الخطف والاغتيال .. وكان لها السبق فى استخدام الأسيد لاذابة الأجسام البشرية .. ومع كل ذلك ، ومع أن الكثير من هذه الأحداث لم تعد من المجهولات ، فقد ظلت مخابراتنا وحدها متمتعة حتى الآن بالحصانة الهائلة ، التى تجعلها فى منجاة من كل تبعة ، فلا تفتيش ، ولا تحقيق حتى ولا مؤاخذة !..

أيام محنة الإخوان فى مصر استصرخت ضمائر الهيئات العالمية لما يجرى فى المعتقلات من أفانين التعذيب الوحشى .. ورأى الجلادون أن يأذنوا لبعضها بدخول مصر للاطلاع ، ولمجرد تضليل الرأى العام .. وفعلا واجهوا بعض نزلائها ، ثم خرجوا يعلنون على ألسنة الوكالات العالمية سلامة الوضع ، وتمتع المعتقلين بكل حقوقهم الإنسانية !..

ولا حاجة إلى القول بكذب تلك التكذيبات ، بعد أن ثبتت الوقائع باعتراف المسئولين ، وعن طريق المشوهين الذين أتيح لهم أن يغادروا سراديب الموت فى السجن الحربى ، ومعتقل الطور ، وظلمات إلى زعبل وأخواتها ..

ولكن .. الشيء الذى لا يزال ملفوفاً بالغموض هو نوعية الأكاذيب التى أعلنتها تلك المنظمات ، أقد تعمدتها وهى بها عالمة ، أم أن الجلادين قد

جمعوا ممثلى الصليب الأحمر ببعض سجناء اليهود ، الذين كانوا ينعمون بمستوى عال من الرفاهية هناك – كما يرى مؤلف كتاب (أقسمت أن أروى) – وأوهموهم أنهم أمام معتقلى الإخوان ، بالاتفاق مع أولئك السجناء اليهود طبعاً ؟..

وهكذا خرجت مخابرات القاهرة يومئذ ظافرة فى ذلك الامتحان ، فلم يُشَر إليها حتى بكلمة استنكار .

واليوم ، وبعد انقشاع سحب الإرهاب عن ربوع مصر العزيزة ، رأينا الدكتور عبد الله رشوان الخارج من ظلمات السجن الحربى ، يحاضر فى نقابة المحامين بالقاهرة عن عهود التعذيب ، التى وضعت مصر كلها فى القيود ، ويكشف من أسراره ما فاق كل معلوم من أخباره ، وفى نهاية المحاضرة يعلن الأستاذ نقيب المحامين أن النقابة سترفع الدعوى على جلادى مصر أثناء تلك الفترة الحالكة .

وانتظرنا ، ولا نبرح ننتظر ، دون أن نلمح أى بادرة تبشر بتحقيق ذلك الوعد ..

على أن أسعد ما لمسناه حتى اليوم من انتفاضة الضمير المصرى فى نطاق هذه الأحداث ذلك القرار الذى أصدرته إحدى محاكم القاهرة ، فى قضية الأستاذ على أبى جريشة ، أحد ضحايا تعذيب السجن الحربى طوال عدة سنين ، فسجلت به أول انتصار فى التاريخ الحديث على السلطة الخفية ، إذ كان مضمون القرار إدانة فاضحة للعهد الناصرى كله .

لقد قضى القرار للأستاذ أبى جريشة بثلاثين ألف جنية تعويضاً له عن مصادرة حريته ، وتعريضه لألوان التعذيب خلال سنوات اعتقاله الظالم .

وقضى كذلك بوجوب إحالة وزراء العدل لذلك العهد إلى القضاء ، بتهمة التستر على تلك الجرائم .

وطالب أخيراً بهدم السجن الحربى بوصفه رمز الذل الذى فرض على مصر طوال ذلك العهد الدامى .

أجل .. لقد كان هذا القرار العظيم أول انتصار للحرية على عبودية

القهر ، فاستحق أن يخلد بجانب الانتصار العسكرى ، الذى حققه الجيش المصرى على خط بارليف تحت راية (لا إله إلا الله) فأثبت أنها لا تزال صالحة لاحداث العجائب ، بعد الهزيمة التى جللته بالعارَ حين أقحم الوغى تحت راية الطغيان مزوداً برسوم الرقعاء من (نجوم) الرقص والغناء .. إنه الضربة الأولى فى أساس (باستيل) حمزة البسيونى ، وشمس بدران ، وصلاح نصر وبقية الطواغيت ..

ولابد من أن تتبعها قريباً أو بعيداً الضربات التى تأتى عليه من القواعد ، فيخر ملعوناً مذؤوماً ، كما خر من قبله باستيل الطواغيت فى فرنسة على رؤوس جلاديه ..

بهذا القرار العظيم دخل المسلمون مرحلة التحرير من كابوس المخابرات .. فبات من حقهم أن يترقبوا الخطوات التالية التى ترد للإنسان المسلم الكرامة التى قررها الإسلام وسلبه إياها الظلام .

أما ما سبق ذلك من إحراق أشرطة التجسس فلا يعدو أن يكون محاولة لإخفاء الوقائع الرهيبة بدلاً من إبرازها – على رأى الدكتور رشوان – .

فمرحى لقضاء مصر . ومرحى لقراره الذى كان أكبر فضيحة لمحاكم جمال سالم وزكريا محيى الدين وبقية السفاحين ...

* * *

من المسئول عن هؤلاء الضّائعين ؟!

فى طريقنا إلى الفلبين كان لابد لنا من الهبوط فى بومباى لتغيير الطائرة ، وكان علينا أن نقضى معظم الليل فى ردهة المطار بانتظار موعد الطائرة التى ستقلنا إلى مدراس .

وبينما أنا أغالب إغفاءة خفيفة أخذ سمعى دوى بعيد ترافقه ضجة موزونة ، ثم ما زال يقترب شيئاً فشيئاً حتى انجلى لنا عن موكب يضم قرابة العشرين رجلا ، كلهم من العرق الأوربى الأبيض البشرة ، الأزرق العيون ، الفارع الهيكل ، كان أحدهم حدثاً لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وبينهم واحد فى سحنة اليهود .

وقد استرعى انتباهى من هؤلاء أزياؤهم الغريبة ، فهى عبارة عن سراويلات من الجاكى قد فصلت على الطريقة الباكستانية ، منضدة الجانبين بعضها فوق بعض ، تتسع من الأعلى ثم تضيق تدريجياً حتى تنتهى إلى الكعبين ، وفوقها قُمص تنسدل إلى الركب ، وكانت رؤوسهم حليقة كلها ، إلا من امتداد كذيل الثعلب ، يبدأ من وسط الرأس ثم يتدلى إلى مؤخرة الرقبة .

كان بعض هؤلاء يحمل طبولا على شكل أسطوانى ، ينتهى طرفاه بفتحتين ضيقتين ، الصقت بهما قطعتان من الجلد ، عليهما يضرب حاملوها .

وينطلق الجميع فى أناشيد محفوظة يكررونها وهم يترنحون فى انتظام ، وكلما انتهوا إلى فقرة منها معينة قفزوا معاً إلى أعلى ، ثم يعودون إلى اهتزازتهم الأولى .

وهكذا جعلوا يُبدئون ويعيدون حتى نال منهم الإرهاق وجعلت أصواتهم تخفت من التعب .. فإذا استعادوا بعض قدرتهم أعادوا العمل ضرباً وترنحاً وقفزاً وإنشاداً .

لم أستطع بادى الرأى تفسيرَ عملهم .. وخطر فى بالى أنهم مجموعة من

الضائعين ، الذين يتكاثرون هذه الأيام فى شوارع أوربة وحواضر أمريكة ، قد أقبلوا على الشرق فى سياحة ترفيهية ، فهم يجوبون شوارع بومباى على هذا الوضع ، إعراباً عن تمردهم على الحضارة الغربية ، التى أعطت الانسان الغربى كل وسائل الرفاه ، وسلبته مقابل ذلك كل أسباب الطمأنينة ، إلا أنى لم ألبث أن هديت إلى التفسير الصحيح حين أقبل رفيق رحلتى الدكتور عبد الرحيم فبين لى أن هؤلاء نموذج لكثيرين من الغربيين الذين فُرِغت قلوبهم من سكينة الإيمان فراحوا يهيمون على وجوههم حتى احتضنهم دعاة الوثنية الهندية ، فاعتنقوا بعض مذاهبها ، ثم جاؤا إلى الهند ليمارسوا شعائر ديانتهم الجديدة على النحو الذى ترى .. فهم يؤدون هذه الحركات داخل المعابد ولعلهم يريدون من إجرائها فى الشوارع تذكير الناس بها ودعوتهم إلى إحيائها .

وسرعان ما وجدتنى مشدوداً بما شاهدته من هذه الغرائب إلى التأمل فيما وراءها من عِبَر وأحداث .

لقد وثبت بى الذاكرة إلى منظر بعض الطرقيين فى العديد من ديار المسلمين وقد تحلقوا حول (الراقص المولوى) يعزفون له ويقرعون وينشدون ، وراح هذا يدور فى وسطهم على قدم واحدة ، كخذروف الوليد ، وقد انفتحت (تنورته) الواسعة حتى أشبهت مظلة الطيار الهابط من الأعالى .

ثم تتابعت علّي الرؤى حتى وقفت بخيالى على واحدة منها لم تزل تعمل عملها فى صدور الغافلين .. إنها صورة هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، فكان من بين مبتدعاتهم تلك الحلقات الأخرى ، التى يتوسطها (قائد السيرك) فتأخذ فى التمايل وفق إشارته ، وقد تصاعدت من صدورها همهمات تبدأ واضحة باسم الله ، ثم ما تنفك تتغلغل فى الغموض ، حتى تستحيل زفيراً وشهيقاً لا مفهوم له ، ثم لا تفتر ولا تهدأ إلى أن يأخذها الإرهاق ، الذى يأخذ هؤلاء الراقصين فى ردهة مطار بومباى .

فمن هنا إذن .. من رقصات الهنادك والبوذيين لآلهتهم ، قد تسرب هذا الرقص الطرقى الذى يسميه المضللون فى بلاد المسلمين (حلقات الذاكرين) !

ثم الفيتنى أتساءل : هذا الجيل المتمرد على حضارة المادية والشهوات

وعلى تعاليم الكنيسة ، بعد أن تمردت الكنيسة نفسها على وحى الله ، حتى صارت تعاليمها مجموعة من مقررات رجال الدين ..

هذا الجيل الذى تتخطفه البوذية والبرهمية والهيبية .. و .. و .. لماذا أغفله دعاة الإسلام ، فلم يفتحوا أعينه على نور ربه ؟

أليس الإسلام هو خاتم رسالات الله إلى عباده ؟ .

فمن المسئول عن تبليغهم حقائقه ، إذا لم يقم المسلمون من أولى العلم بهذه المهمة ؟

ولا حول ولا قوة إلا بالله !..

* * *

رسالة إلى الأستاذ الطنطاوى

إلى فضيلة الأخ الأثير الشيخ الطنطاوى وفقنا الله وإياه إلى كل ما يحبه ويرضاه من قول وعمل .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وأشواق حارة إلى لقاء أرجو أن يكون قريباً ونافعاً بفضله ومنه .

أما بعـــد :

فقد سمعتك يوم أمس- الأربعاء١٣٩٩/٦/٢٧ ، واليوم إذ أعيدَ حديثك نفسه – فى برنامج الساعة ٥ر٣ (مسائل ومشكلات) تجيب على أسئلة بعض المستمعين ، وتقف بخاصة على قول الشاعر الشابى :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة　　فلابد أن يستجيب القدر

وقد أشرت أثناء الكلام إلى ما سبق أن أرسلته من نقد لهذا التعبير ، إذ اعتبرته خروجاً عن منهج الحق فى موضوع القضاء والقدر ، وكان الباعث لتلك الإشارة ما رفع إليك من قول أحد المرورين :

نحن حب مخلّد　　نتحدى به القدر

فجمعت بين البيتين فى قَرَنٍ واحد ، وأصدرت عليهما الحكم نفسه .

وقد خطر لى وأنا أستمع لنقدك بيت الشابى – ولعل ذلك للمرة الثالثة أو الرابعة – أن أجاذبك الحديث عن تعبيره ، لما بيننا من اختلاف فى تقييمه واسمح لى أن أصرَّ على هذاالاستعمال جرياً على قاعدة العرب فى ما أسميه ضرباً من الاشتقاق الثانى ، كفعلهم فى عَيَّدَ ونيّف وما أحِيلَه ـــ فالشابى – غفر الله لنا وله – لا يريد بقوله هذا أكثر ما يريده أحدنا عندما يقول : لا سبيل إلى استعادة فلسطين إلا بعد التحرر من عوامل الضعف والتردد والاتكال على غير الله ، فإذا فعلنا ذلك كنا أحرياء بالظفر الذى وعَد الله المؤمنين مهما تتعاظم وسائل الكافرين .. وليس هذا ببعيد عن التوجيه الربانى الذى نطالعه فى قوله

تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...** ﴾ (الرعد: ١١)

ومما يؤيدنى فى ما ذهبت إليه من توجيه لكلام الشابى إيمانه بالقدر الذى جعل استجابته مشروطة بتصحيح إرادة الخير فى الشعب ، وسلوك الطريق القويم إلى أهدافه العليا .. فكأنه بذلك يذكر القوم بقول الحق سبحانه : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ...** ﴾ .

ومن العبارات المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله قوله : (نازعت أقدار الحق بالحق للحق ..) !.. وقد تولى إيضاح مراده شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتواه ، فكان من ذلك قوله (ومن عبادة الله وطاعته فى ما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير ، ودفع ما يريده الشيطان ويسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله من الخير) ويستشهد لذلك بالحديث : « إن الدعاء والبلاء ليتلقيان فيعتلجان بين السماء والأرض » ثم يعقب على ذلك وهذا بقوله رحمة الله : (فالذى ذكره الشيخ هو الذى أمر الله به ورسوله)[1] .

ومن هنا نرى أيها الأخ الأثير أن لمثل ذلك التعبير مسوّغات كثيرة ، وبخاصة إذا صدرت عن مؤمن ، ولو أن أحدنا كشف له الغيب – عن طريق رؤيا صادقة مثلاً – أن فلاناً سيصيب منه مقتلا لا محالة ، بل أقول لو أن هذا الكشف جاءه عن طريق نبى ، لما كان له أن يستسلم للقاتل ، بل عليه أن يتخذ كل الأسباب المؤدية إلى نجاته مع القطع بأنه مقتول ، لأن مجرد الإيمان بالقدر لا يفضى الاستسلام للأمر المقضّى ، كما يزعم المضلّلون من العامة ، حين يقصون خبر خضرِهم وقد تقدم جيوش تيمورلنك لينصح المسلمين بعدم مقاومته ، لأن تنكيله بهم أمر مقدور ! .. وهل دمر جماهير المسلمين وسلبهم إرادة التحرير إلا سيطرة هذه المضلات عليهم فى موضوع القضاء والقدر ! ..

وفى اعتقادى أن تلاقى الشيخين ، الجيلانى وابن تيمية على هذا الفهم العالى من شأنه أن يبعث على التأمل فى موضوع التحدى .. فليس سواء صدوره عن مؤمن أو كافر .. ولابد من ملاحظة القرينة لتخريج المضمون .

وبهذه المناسبة أذكر فضيلة الأخ حفظه الله وأمتع بحياته زلة صاحب مجلة الرسالة

---

(١) الفتاوى ج ٨ ص ٥٨٨ .

وبهذه المناسبة أذكر فضيلة الأخ حفظه الله وأمتع بحياته زلة صاحب مجلة الرسالة يوم جعل عنوان إحدى افتتاحياته فى مجلة الأزهر (شعب تحدى القدر فقدر) ومع أنه لا يعْدو عبارة الشيخ عبد القادر من حيث المدلول المجرّد ، فإن القرائن التى انطوت عليها المقالة ، من حيث تفضيله الوحدة الناصرية المزورة على الوحدة النبوية المطهرّة ، كافية للحكم على كاتبه بالردة أو الخرَف ..

ثم أن فى قول الفاروق رضى الله عنه وهو يرد على استفهام آحد إخوانه بشأن الحجر الصحى : (أتفر من قدر الله ؟) : (نفر من قدر الله إلى قدر الله) لَتقريراً حاسماً فى الموضوع يستمد من قول رسول الله للآخر الذى سأله : (أرأيت رُقى نسترقى بها ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها .. هل ترد من قدر الله شيئاً ؟) فأجاب : (هو من قدر الله)[1] .

فبقدر الله إذن نواجه قدر الله ، ولا عذر لمحتج بالقدر فى تقاعسه، عن بذل الوسع للوصول إلى الأفضل من كل مأمول .

وأخيراً : أرانى حقيقاً بالاعتذار إليك عن هذه الإطالة التى لابد أن وقتك ضائق بها .. ولكن الحديث إليك متعة لا تفوَّت وقليلا ما تتاح .

وإنى لأسأله تعالى أن يُقَدِّر لنا لقاء قريباً يساعدنى على تدارك ما فاتنى من الكلام عنك فى الجزء الأول من كتابى (علماء ومفكرون عرفتهم) وبخاصة بعد أن استيقنت أن وراء ذلك التأخير خيراً كثيراً ، إذ قيّض لى أن أعرف المزيد من مواهبك ومزاياك ، ولعمرى لن أكون راضياً ولا معذوراً إذا لم أقدمك إلى القراء على الصورة التى ترضى الله وتنصفك إن شاء الله .

والسلام عليك أولاوآخر ورحمة الله وبركاته .

المدينة المنورة ص. ب : ٤٣ فى ١٣٩٩/٦/٣٠هـ

---

(١) أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح .

رسالة إلى صديقى صُبْحى

إلى صديقى القديم صبحى .. وفقه الله ..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعـــد :

فقد تلقيت رسالتك الكريمة قبل أيام نسيت عددها ، وكدت أنساها ، لو لم تُطل على صباح اليوم من خلال بعض الأوراق التى جعلتها على مقربة من يدى للإجابة عليها فى أول فرصة ، وكنت على مثل اليقين بأنى كتبت جوابها، بل لعلى بعثت به إليك فور وصولها ، فليت شعرى هل فعلت ؟.. لا يعلم ذلك ولا يقطع به إلا الله ثم أنت ، ومهما يكن فقد وجدت فرصة ، أثناء عملى فى معادلة الشهادات ودراسة المناهج لحوار معك انقطع من عشرين سنة ، ولا أحبّ إلىّ مِن وصله فى ظل التطور العقلى والروحى الذى منْ الله به علينا ، فبصّرنا الحقيقة التى من أجلها ذَرَأنا على هذه الأرض .

لقد ربطت بيننا وشائج كانت على جانب طيب من الخير ، ففيها المودة والوفاء والتقدير المتبادل .. وكل أولئك من الشيم التى لا غنى عنها لعاقل يبتغى مرضاة الله ، على أنها لم تكن من التكامل بحيث يستحق أصحابها أن يحشروا فى زمرة المتحابين فى الله ، لذلك لا أرى فى مثل هذه المناسبة خيراً من أن تذكرنى وأذكرك بكل ما يقربنا من هذه الحقيقة .

أخبرك عن نفسى أولا : فأنا بحمده تعالى على غاية من الحبور بما أتمتع به من قرب المسجد الذى تعدل فيه الصلاة ألفاً وصلاة الجماعة سبعة وعشرين ألف صلاة ، غير المسجد الحرام الذى تعدل به صلاة الجماعة مليونين وسبعمائة ألف صلاة ، وغير المسجد الأقصى السليب – ردّ الله غربته – الذى تعدل فيه الصلاة الواحدة خمسمائة صلاة ، كما أنبأنا الصادق المعصوم عليه صلوات الله وسلامه ، وفى مهبطى الوحى ذكريات تهز القلوب المؤمنة بما يحيى مواتها ، وينمى مشاعرها ، ويفسح أمامها ومن حولها رحبات الحياة .. ومن

هنا توافر لى من الحبور والسرور ما أنا سعيد ، سعيد ، ولله الحمد على فضله الذى لا يكافأ .

ولقد تكرمت فَأحطتنى علماً بما صار إليه كل من بنيك ، الذين هم ما بين متخرج فى الجامعات ناجح فى عمله ، ومثابر على دراسته للحاق بإخوته فى مدارج التوفيق .

وقد كان بودى أن أنبئك من أمر بنىّ بمثل الذى أنبأتنى به من أمر أبنائك فأقول إنهم جميعاً ولله الحمد ظافرون بما يغبطهم عليه الكثيرون من أهل الدنيا ، وإن كان بينهم من تحول الجندية بينه وبين الانطلاق إلى استكمال ما يجب حتى الآن .

إلا أنى مع ذلك لا أكتمك أنى غير راض عن مسلكهم فى الحياة – إلا قليلاً – ذلك أنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، وقد كاد بعضهم ينسى أنه ابن الإسلام ، وأن أشرف ما يملكه فى هذه الدنيا امتلاؤه شعوراً بعزة الإسلام ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين** ﴾ .

وكيف لا آسى على أجزاء من قلبى أراهم يقذفون بأنفسهم إلى النار دون أن أستطيع إنقاذهم !..

إن هذا الجيل – الذى غسلت أدمغته من معانى الإسلام – هو الذى انتصرت به الصليبية واليهودية العالمية على المجتمع ، الذى كان العالم الضائع ينتظره لانتشاله من ضياعه ، فإذا هو ينزلق معه فى الهاوية التى صار إليها ، ولا يكتفى حتى يعلن كفره بكل قيم الإسلام العليا ، التى بها دخل العرب أبواب التاريخ من قبل ، وباغفالها خرجوا من الأندلس وفلسطين والأقطار الأخرى ، التى طالما سعدت تحت رايته بنور الله ، وإنه لَمما يحرق قلوبنا نحن دعاة الإسلام أننا لا نجد السبيل إلى قلوب هؤلاء الغافلين لنخاطبها بكلمة الله ، لأن السدود قد ضربت حولها فلا طريق إليها ولا مجال لإضاءتها ، فهى قانعة بما انتهت إليه من ظلام لا تؤمن بأن وراءه نوراً ، وقد زادتهم شهاداتهم – المغرورة – عناداً للحق فكانوا بها كالذين قال الله فيهم : ﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به**

يستهزئون ﴾ وأنى لهم وقد فرَّغت الشياطين أرواحهم من آثار الحقائق العليا ، أنّى لهم أن يدركوا أنهم لا يعلمون إلا : ﴿ **ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ !

وما إخالك إلا عاذرى عندما تعلم أن بين أولادى من لا يذكر الله إلا قليلا .. وكاد يتعرى من كل أثر للإسلام ، وأن بين حفيداتى من سلكت سبيل الكوافر فهى تتخطر بالبنطال فى الجامعة وخارجها ، دون أن يعتريها من بقية الإسلام أثارة من حياء .. بل إنها لتعالننى البغضاء والعداء إذا حاولت تذكيرها بهويتها وواجبها نحو هذه الهوية !..

أجل .. ذلك هو الوضع الذى صرنا إليه ، وليس هو مما يغبط عليه مؤمن ، ولكننى مع ذلك سعيد لأننى أعمل على إنقاذ نفسى من عذاب الله ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ولأننى لا آلو هؤلاء الظالمين لأنفسهم نصحاً وتذكيراً بآيات الله كلما الفيت إلى أسماعهم طريقاً .

ولعلك أيها الأخ الحبيب نجوت من هذه الأوبئة ، فاطمأن قلبك إلى التزام أبنائك سبيل المؤمنين ، فلم يخدعهم المفسدون ، ولم يجتلهم الشياطين المضلون !..

وإنى لأسأل الله جلت قدرته أن ينقذنا وذرياتنا من معصيته ، ويأخذ بأيدينا جميعاً إلى رياض طاعته ، حتى نكون أهلا لاجتماعنا معهم فى ظل رحمته ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ...** ﴾ .

ولك أخيراً آخر تمنياتى ، وأخلص تحياتى ، سائلا إياك الدعاء بظهر الغيب .

والحمد لله رب العالمين .

* *

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

من آثار المؤلف المطبوعة

فضائح المبشرين

المرشد فى الأدب العربى (مع آخرين)

نار ونور . شعر الديوان الأول

قصص من الصميم

صور من حياتنا

الأدب العربى للسنة الأولى من الجامعة الإسلامية (بالاشتراك)

الأدب العربى للسنة الثانية من الجامعة الإسلامية

دروس من الوحى

مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام

تأملات فى المرأة والمجتمع

مشاهد من حياة الصِّديق

همسات قلب ـ شعر الديوان الثانى ـ

قصص من سورية

قصص لا تنسى ـ للشباب والطلاب ـ

بطل إلى النار

الآيات الثلاث

بطل من الصعيد

دماء وأشلاء

من تاريخنا

الألغام المتفجرة

اللقاء السعيد

تحفة اللبيب من ثقافة الأديب

مع المجاهدين والمهاجرين فى باكستان

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥١٠٣

الترقيم الدولى × ـ ٢٠٩ ـ ١٤٢ ـ ٩٧٧

دار النصر للطباعة الاسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت: ٧٧٣٢٢١